

ذاكرة الكتاب

(من دفتر مراسل صحفي)

Khams Khalaf

صلاح النصراوي

ذَاكِرَةُ الْحُرُوبِ

(من دفتر مراسل صحفي)

صلاح النصراوي

(تنويه عن هذه النسخة الألكترونية)

"هذا الكتاب صدر بنسخته الورقية بطبعين عام 2004 وقد اهديت بعد جهد جهيد الى مسودة كنت قد خزنتها على ديسك قديم فقررت ان أنشرها هنا كما هي مع تنقيحات بسيطة دون إعادة كتابة بعض فقراته على ضوء ما أستقر في بالي بعدها أو ما أستجد من معلومات بعد نشره. وهدفني من نشره كما كانت غايتي خلال عملي الصحفي طيلة حياتي هو أن أقدم النسخة الأولى او المسودة الأولى للتاريخ كما عشته على سيفتح للقارئ أفقاً أوسع في قراءة وفهم ما جرى."

مع اعتذاري سلفاً عما ورد في المسودة من أخطاء طباعية.

تشرين أول/ نوفمبر 2025

" ليست النتيجة وحدها، بل هي أيضاً الطريق
المفضي اليها، جزءً من الحقيقة. إن البحث عن
الحقيقة يجب أن يكون هو نفسه صادقاً حقيقياً،
فالبحث الحقيقي الصادق هو الحقيقة تتكشف
عنها الأغلفة والتي من وحدة أجزائها تتكون
النتيجة"

(كارل ماركس)

خلال أقل من ربع قرن خاض العراق ثلاثة حروب خارجية كان
حصادها موت ملايين من أبناءه سواء في ساحات القتال أو نتيجة
العقوبات الاقتصادية التي فرضت عليه بينما تعوق أو أصيب بأمراض
وعاهات مزمنة بضعة ملايين آخرين، كما شرد في المنافي ملايين
غيرهم. وعلى الصعيد المادي دمرت معظم البنى التحتية التي صرف
على انشائها بلايين الدولارات وفقدت ثروات كان يمكن لو صرفت على
تطويره ان تجعله في مصاف أرقى البلدان وأغناها، وافقرته حتى جعلت

منه واحدًا من أكثر الدول مديونية وحاجة للمساعدات الأجنبية. غير ان النتيجة الأكثر مأساوية لكل هذه الحروب هو ان العراق أصبح البلد الوحيد في هذا العصر الذي يتم احتلاله كاملا ويفقد استقلاله ويترك مصيره تعبت به الأقدار الأهواء والمصالح المحلية والإقليمية والدولية المتنافرة. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل انها أدت الى اخضاع كل المنطقة العربية للهيمنة الامريكية واتاحت لاسرائيل فرصتها الذهبية في تحقيق مشروعها التاريخي في فلسطين. ولعلي لن ابالغ اذا قلت ان هذه الحروب الثلاثة وخاصة الأخيرة منها غيرت خارطة السياسية والجيوبولتيكية للعالم أجمع وحدثت فيه هزة كبرى لابد وان تترك نتائج كبيرة في العمق والجوهر.

ولربما لم يحن بعد استكهان كل الأسباب والعوامل الحقيقية التي احاطت باندلاع هذه الحروب وهي مهمة تنتظر شهادة الكثير من الشخصيات التي عايشتها وربما ساهمت بشكل أو باخر بتأجيلها أو ادامتها وكذلك فتح أرشيف الدول المعنية اضافة الى جهد المؤرخين الموضوعين. غير ان ما لا يمكن ان يجادل فيه احد هو ان رجلاً واحدا هو صدام حسين كان المسؤول الأول والأخير عن اندلاع هذه الحروب والويلات والنتائج السياسية الكارثية التي جلبتها على

العراقيين وعلى العرب والتي ستبقى نتائجها بين ظهرائهم لعقود قادمة بل ربما الى الأبد. غير ان هناك بالتأكيد آخرين في العراق وخارجه لعبوا أدواراً مهمة او ثانوية، اما في تأجيج تلك الحروب او في جعلها ممكنة او في اطالتها لأسباب خاصة بهم ودولهم. ومن المؤكد ان الكثير من الأسرار والخفايا المرتبطة بهذه الحروب، شأنها شأن الكثير من القضايا الكبرى، سوف تطوى في الصدور او في الملفات السرية وقد لا يتاح لها ابدا ان تظهر للناس لكي تكشف عن الحقيقة النهائية لما جرى.

في الظروف التي عشتها شاء قدري ان أكون قريباً من أحداث الحربين الأولتين، الحرب العراقية-الإيرانية بين عامي 1980 و 1988 وحرب الخليج الأولى عام 1991 التي اعقبت غزو الكويت وشاهداً على الكثير من تطوراتها بينما راقبت باهتمام مماثل الحرب الأخيرة التي قادتها الولايات المتحدة عام 2003 لإسقاط صدام منذ البدايات الأولى للتحركات التي قادت اليها. لم يخطر ببالي أبداً اني سأقوم بكتابة هذا العمل غير اني وجدت نفسي دائماً ما احث سياسيين وشخصيات عراقية لعبت دوراً في أحداث العقود الماضية على ان تكتب مذكراتها وتتركها إرثاً للأجيال القادمة فقررت ان أعمل بنصحتي

حتى ولو بالحصيلة الضئيلة التي امتلكها نتيجة عملي في عالم الإعلام والصحافة طيلة ثلاثة عقود لأنني وجدت بان ذلك قد يؤدي غرضاً في محاولة العثور على الحقائق التي ارتبطت بتلك الحروب. لم يكن ممكناً لأسباب عديدة ان اكتب في دفاتري كل شيء رأيته أو سمعته أو عرفت به أو أن احتفظ بوثائق مرت بين يدي خلال كل هذه السنين ولكنني اعتمدت على الكثير مما دونته في كراسات الصحفية من ملاحظات كما اعتمدت على الذاكرة في حالات عديدة والتي لا بد ان أعترف انها لم تسعفني كثيراً، غير ان همي وغايتي ظلاً دائماً هو ان اسلط الضوء على أبرز الأحداث والمعالم وأهم القضايا الرئيسية التي شكلت الملامح الحقيقية للحروب الثلاثة.

هناك خيوط عديدة تجمع بين هذه الحروب والتي اثبتت الوقائع انها بقدر ما كانت دراما انسانية بالغة التراجيديا كانت ايضاً من الناحية السياسية سلسلة ممتدة من الأحداث والتطورات تشابكت في انتاجها تطلعات الزعامة وطموحاتها الهوجاء عند صدام مع مصالح ومطامع الدول والمؤسسات والأشخاص الذين لعبوا دوراً خطيراً في ما آلت اليه الأمور ليس فقط نتيجة للحروب الثلاثة بل ما سبقها من مقدمات أدت اليها وعلى رأسها الإنقلاب الذي جاء بحزب البعث الى

السلطة في العراق عام 1968 ثم تبؤ صدام زمام القيادة فيه. ولم يكن بوسعي كما هي ليست غايتي ان اقدم كتاباً تاريخياً عن وقائع تلك الحروب بقدر ما ان اقدم اسهاماً من وجهة نظر صحفية اشحذ انتباه القارئ العادي الى بعض أبرز تلك الوقائع واستحثه على المزيد من التفكير فيها علها تعينه على الوصول الى استنتاجات صائبة. غير اني اتمنى ان تستحث بعض الوقائع التي سترد في الكتاب القارئ المتخصص والمؤرخ والباحث الى دراسة معمقة وخاصة ربط الحوادث التي جرت خلال الحروب الثلاثة فيما بينها بهدف المساعدة على توفير ولو بعض الاجابات للسؤال المضني الذي يؤرق كل منا وخاصة كعراقيين وعرب لماذا جرى ما جرى والأهم من كل ذلك كيف نتعلم مما جرى لنا وعلينا.

(1)

بعد ظهر يوم 22 أيلول/ سبتمبر 1980 كنت قد انتهيت من يوم دراسي طويل في كلية اللغات التابعة لجامعة "ويستمنستر" في وسط لندن وبدأت طريق سيري عائداً الى البيت باتجاه محطة "توتنهام رود ستيشن" لقطار الأنفاق القريبة حين لفت نظري مانشيت جريدة "الإيفينغ ستاندرد" المسائية يقول بخط عريض ان الدبابات العراقية تخترق مدينة "خرمشهر" الإيرانية بينما هناك في مكان آخر من الصفحة أبرزت الجريدة تصريحات لطفه ياسين رمضان نائب رئيس الوزراء يقول فيها ان العراق سيقا تل إيران لمدة ثلاثين سنة اذا ما لزم الأمر. اشتريت نسخة من الجريدة الشعبية التي لا اقرأها عادة وبدأت أقرأ تفاصيل الخبر بشيء من الدهشة والذهول ولثوان قليلة كنت كمن يعيش كابوساً مرعباً يزلزل كيانه. كانت الحرب بين العراق وإيران قد بدأت بعد ان ظلت طولها تقرر لأسابيع. سرعان ما بدأت أسترجع بذاكرتي أحداث السنتين الماضيتين منذ إندلاع الإنتفاضة الشعبية في إيران والتي اطاحت بالشاه "محمد رضا بهلوي" وجاءت بنظام الجمهورية

الإسلامية بقيادة "آية الله روح الله الخميني" والتي كنت أعيشها لحظة بلحظة واتساءل مالذي يمكن ان تتركه وراءها هذه العاصفة التي تضرب ليس بإيران وحدها، بل بعموم المنطقة. كنت أعمل في تلك الفترة في مديرية البحوث في وزارة الثقافة والإعلام وبحكم عملي كنت أطلع يومياً على تفاصيل عديدة تخص تطورات الأحداث في إيران منذ ان أطلق "الخميني" حملته الفعلية لإسقاط نظام الشاه من مدينة "النجف الأشرف" سواء أكان ذلك من المصادر الصحفية والبحثية الأجنبية مباشرة أم من تقارير السفارة العراقية في طهران أو باقي السفارات في الخارج والتي كانت تصلنا. وكنت كلما أمعنت في الأمر رأيت ان السياسة العراقية تجاه إيران مرتبكة ومشوشة وغير قادرة على اتخاذ الموقف العملي والوطني الصحيح من الأزمة المستفحلة لدى الجارة الشرقية والإحتمالات التي لابد وان تنتج عنها آجلاً ام عاجلاً. غامرت وكتبت في أحد التقارير الخاصة التي كنت أعدها استنتاجاً بان الثورة التي يدعو اليها "الخميني" ستنتصر بالنهاية في إيران وان النظام الإسلامي الذي ستقيمه سيدخل لا محالة في صدام مع النظام القومي في العراق. ولم يلق تقريرى واستنتاجي ترحيباً وتم سحبه من مكاتب القيادات التي يوزع لها واتلافه بأمر من نائب رئيس مجلس

قيادة الثورة حينها "صدام حسين". طبعاً كان هذا الإستنتاج قائماً على معطيات تحليلية مجردة للمواقف العراقية المعلنة غير اني كنت أدرك ان الأمر يتجاوز ذلك الى السياسات المضمرة والحسابات الأخرى التي تتجاوز ما هو معلن أو ما هو معروف من شعارات النظام الى خفايا سياسات وربما خطط تم صياغتها في الدهايز التي لن يكون سهلاً فك طلاسمها ربما لا الآن ولا في المستقبل. كانت الظروف السياسية وقتئذ في كافة أنحاء المنطقة وفي العالم مضطربة بشكل يحتم على النظام التروي واللجوء الى الحسابات الدقيقة وبعيدة النظر على أساس حماية مصالح العراق الأساسية وطويلة المدى أولاً لا اتخاذ مواقف وسياسات انفعالية تفتقد الى مراعاة المصلحة الوطنية وتقفز الى المجهول. داخلياً كان النظام قد أجهض تماماً على الحركة الكردية التي يقودها "الملا مصطفى البرزاني" بالتعاون والتنسيق مع شاه ايران وبدعم من الإدارة الأمريكية برئاسة "ريشارد نيكسن" من خلال "اتفاقية الجزائر" في أذار عام 1975 والتي وقعها نائب رئيس مجلس قيادة الثورة "صدام حسين" مع الشاه بوساطة مثيرة للريبة من الرئيس الجزائري "هواري بومدين" وبدفع من وزير الخارجية الامريكي حينذاك ومخطط الحقبة الامريكية الجديدة في الشرق الأوسط "هنري كيسنجر"

مما سمح بانتهاء مخاطر استنزاف النظام وبدأ مسيرة إجتثاث كل معارضة سياسية سواء خارج "حزب البعث" مثل "الحزب الشيوعي العراقي" حليفه في الجبهة الوطنية أو المجموعات الشيعية النشطة كـ"حزب الدعوة" أو داخل الحزب من المتشككين في مسيرة قيادته وهو الأمر الذي أدى بالنهاية الى تفرد تلك القيادة، أي صدام بالسلطة المطلقة في الحزب الذي أصبح من ذلك الوقت الحزب الواحد والقائد. إقليمياً كانت حركة التحرر الوطني الفلسطينية بمختلف فصائلها قد حشرت في حرب استنزاف في لبنان جراء انجرار قياداتها في الصراعات العربية وفشل الإستراتيجيات والتكتيكات السياسية والعسكرية التي اتبعتها كما كانت زيارة الرئيس المصري "أنور السادات" للقدس في 19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1977 ثم توقيعه على اتفاقيات "كامب ديفيد" للسلام مع اسرائيل بعد عامين من ذلك قد كشفت عورات الأنظمة العربية وخاصة الراديكالية وعجزها عن تحقيق شعارات تحرير فلسطين بعد ان كشفت صراعاتها والأساليب القمعية التي لجأت اليها في الوصول الى السلطة والإحتفاظ بها عن كذب شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية التي رفعتها وفضحتها بإعتبارها مجرد قبائل سياسية أو حتى مجرد عصابات فئوية تدير كل شيء ومن

ضمن ذلك الدولة التي استولت عليها لمصلحة أهداف خفية. عالمياً كانت استراتيجية قوس الأزمات التي طبقها إدارة الرئيس الأمريكي "جيمي كارتر" لإحتواء الإتحاد السوفيتي والكتلة الشيوعية من جميع جهاتها قد بدأت تأتي أكلها وتوجه ضربات موجعة للنظام الشيوعي الذي كان قد دخل قبل ذلك مرحلة التخشب التي قادته اليه سياسات المرحلة البرجنيفية (ليونيد برجنيف) مما جعله يتداعى وخاصة بعد إحتلال أفغانستان وبدء عهد الجهاد الإسلامي. كل ذلك جعل النظام العراقي الذي تشبث بشعاراته القومية والثورية في الوقت الذي مارس سياسات داخلية وخارجية مغرقة في البرغماتية يعيش حالة من الانفصام عن واقعه وعن محيطه وبالتالي أدى به الى التخبط في اتخاذ المواقف الصحيحة. فمثلاً كان إصرار النظام على طرد "الخميني" من "النجف الأشرف" والذي تم في 5 تشرين الأول/ أكتوبر 1978 مدعاة استغراب حين منحه الفرصة التي كان يتمناها في الحصول على منبر دولي من باريس لتأليب الإيرانيين ضد الشاه في الوقت الذي كان بإمكان النظام العراقي مثلاً تضيق الخناق على "الخميني" في بيته في "النجف الأشرف" والحد من نشاطاته ومن بينها تسجيل وارسال أشرطة الخطابات الثورية التي كان يستخدمها لتأليب الإيرانيين

ضد الشاه واستقبال بعض مساعديه القادمين من الخارج والذين كانوا يديرون ثورة الإحتجاجات المتصاعدة في إيران. قيل يومها ان الشاه هو من طلب ذلك استناداً الى "اتفاقية الجزائر" التي تمنع استخدام أراضي البلدين للتحريض ضد نظام البلد الاخر. ولكن السؤال الذي يواجه أصحاب هذه الفكرة هو لماذا انتظر الشاه خمسة أعوام لكي يتقدم بهذا الطلب ولم يتقدم به فور توقيع الإتفاقية علماً انه كان يدرك خطورة نشاطات "الخميني" على نظامه. ولم يكن واضحاً كذلك في ماذا اذا كان طلب الشاه هو وقف نشاطات "الخميني" مع ابقاءه في العراق او طرده الى الخارج. عندما أتيح لي عام 2000 ان أسأل الشاهبانو "فرح بهلوي" زوجة الشاه في احدى زيارتها للقاهرة والتي تأتيها كل عام لإحياء ذكرى موت الشاه المدفون في مقبرة الأسرة المالكة المصرية السابقة عما اذا كانت هي فعلاً من طلب ذلك من القيادة العراقية في زيارتها الى العراق في خريف عام 1978 قالت بعد ان اخذت نفساً عميقاً من سيكرتها ونظرت بعيداً الى السماء من خلال شباك الصالة الواسعة في "قصر السلام" الذي تستضيفها فيه الحكومة المصرية: "كنا فقط نريدهم ان يلجموه" ثم شرحت لي بعد ان أخذت نفساً آخر بان طلبها من "صدام" كان محدداً وهو عدم طرده أو

تركه يخرج من العراق. بعد أشهر قليلة كان "الخميني" قد أطاح بالشاه في واحدة من أكبر الثورات الشعبية التي شهدتها القرن العشرين وأسس "الجمهورية الإسلامية الإيرانية" التي سرعان ما أضحت بؤرة للراديكالية الإسلامية في المنطقة بينما كان "صدام" قد واصل طريقه الى أعلى مراتب السلطة عندما أزاح العقبة الأخيرة في طريقه حين أجبر الرئيس "احمد حسن البكر" على الإستقالة في يوم 16 تموز/ يونيو 1979 ثم قيامه بمسرحية المؤامرة التي أحاكها لرفاقه في قيادة الحزب والتي انتهت بتصفيتهم بعد أيام من تسلمه منصب الرئاسة وبذلك أحكم صدام سيطرته على الحزب والدولة بادئاً مشروعه الخاص لحكم العراق وربما امتدت طموحاته الى أبعد من ذلك بكثير. عندما ذهبت الى بغداد في نيسان/ أبريل من عام 1980 في أول اجازة لي كان كل شيء يدل على ان العراق قد وقع تماماً في قبضة دكتاتور متفرد في السلطة داخلياً وأيضاً مهوس بالبحث عن دور عربي وأقليمي تحت شعارات مشروع قومي متهافت وانه ماضٍ في طريق المواجهه مع إيران التي كان "الخميني" قد عاد اليها منتصراً وزعيماً للثورة التي اطاحت بالشاه ومرشداً وقائداً للجمهورية الإسلامية مع برنامج سياسي طموح معد للتصدير الى دول الجوار وخاصة العراق.

في الشهر السابق لوصولي كان 97 شخصاً من الناشطين الإسلاميين معظمهم من أعضاء "حزب الدعوة" و"منظمة العمل الإسلامي" قد أعدموا بعد عمليات ذكر ان أعضاء في التنظيمين بعضهم عاد من إيران قاماً بها لإطلاق الكفاح المسلح ضد النظام. في 8 نيسان/ أبريل 1980 كان نظام صدام قد أعدم آية الله "محمد باقر الصدر" شريك "الخميني" في أفكار الثورة والدولة الإسلامية والذي نشرت خبر إعدامه بعد ثلاثة أيام مجلة "الوطن العربي" التي تصدر بتمويل عراقي من باريس وتوزع في الأسواق العراقية على نطاق واسع. جاء إعدام "الصدر" ومعه اخته "بنت الهدى" بعد أيام من حادث الهجوم الذي وقع يوم 1 نيسان / أبريل 1980 في "الجامعة المستنصرية" عندما قام شاب يدعى "سمير نور علي" وهو كردي فيلي ينتمي الى احد التنظيمين الإسلاميين المذكورين بضرب تجمع طلابي كان يخطب فيه "طارق عزيز" نائب رئيس الوزراء بقنبلة يدوية واتهمت السلطات العراقية أحزاباً إسلامية عراقية وإيران بالوقوف وراء المحاولة. وفي اليوم التالي أُلقيت قنبلة أخرى من داخل بناية مدرسة إيرانية على مسيرة تشييع ضحايا الانفجار الأول حيث قتلت فيه طفلة فخرج صدام الى الملأ يقسم يميناً وهو يمسك بشاربيه بانه سينتقم للذين وقعوا

ضحايا في الحادث ومتوعداً بأنه سيرد على الإيرانيين بدرس لن ينسوه. خلال هذه الفترة حصلت هجمات أخرى منها محاولة اقتحام "مديرية الأمن العامة" وضرب "دار الحرية للطباعة" العائدة لوزارة الإعلام وغيرها من العمليات التي كانت تدل على وجود خطط لدى التنظيمات الإسلامية لمواجهة النظام عسكرياً متشجعة بنجاح الثورة في إيران. وأنا في بغداد شاهدت فلم "القادسية" الذي كانت وزارة الإعلام العراقية قد انتهت من إنتاجه قبل فترة عن "معركة القادسية" عام 636 والتي هزم فيها جيش المسلمين جيش الفرس والتي انتهت بانهيار "الإمبراطورية الساسانية" التي سيطرت على العراق لأكثر من قرن من الزمان. كنت التقيت بالمخرج المصري البارز "صلاح أبو سيف" عام 1978 في بغداد اثناء تصويره للفلم الذي خصصت له الوزارة ميزانية بلغت ملايين من الدولارات ويومها سألته عن مغزى إنتاج الفلم في هذه المرحلة وعما اذا كان يجد شبها باخراج "يوسف شاهين" لفلم "صلاح الدين الأيوبي" برغبة من الرئيس المصري حينها "جمال عبد الناصر" في ظروف سياسية مشابهة كانت تمر بها مصر مع صراعها مع اسرائيل. لم يستغرب من السؤال لكنه قال انه لم يكتب قصة الفلم ولا السيناريو له (كتبه عبد الحميد جودت السحار) وهو

يتعامل معه كمخرج فقط. عندما قابلت "أبو سيف" بعدها في القاهرة عام 1994 سألته عن ظروف اعداد واخراج الفلم وهل فكر مرة واحدة اثناء ذلك بان فلمه سيدخل التاريخ باعتباره المدخل الإعلامي للحرب العراقية-الإيرانية والتي سماها "صدام" بعد ذلك ب"القادسية الثانية" ثم "قادسية صدام"، وهل كان يعتقد بان "صدام" كان يفكر بالحرب ضد إيران حتى قبل ان يسقط نظام الشاه، قال أبو سيف: "حينها لم أكن أعرف ذلك" ولكنه استدرك بشكل سريع "متفكرنيش". وشعرت ان الرجل لا يرغب حتى بتذكر ذلك العمل الذي لم يخلده كما فعلت باقي افلامه الرائعة. مرت علي كل هذه الأفكار والأحداث وأنا اسير باتجاه "المركز الثقافي العراقي" القريب من الجامعة بعد ان قررت التوجه اليه لكي أحاول الحصول على معلومات أكثر عن الهجمات العراقية على إيران وهو نفس المركز الذي شهدت قبل أكثر من عام فيه قصة ظريفة حين ذهبت لأطلع على الأخبار المتعلقة بتلك المؤامرة في المركز. عندما صعدت الى المركز كان هناك حركة نشطة ومزيد من الضجيج بينما جلس الصحفي "حسن العلوي" والذي كان بمثابة المستشار الصحفي لـ"صدام" والذي كان حينها في زيارة الى لندن يملي كما هي العادة في مناسبات مثل هذه برقية لـ"صدام" يستنكر المؤامرة ويطالب فيها بأسمه

وأسم مدير المركز "تاجي الحديثي" بالإقتصاص من الخونة وإعدامهم فوراً. فجأة ظهر مراسل "وكالة الانباء العراقية" وبيده شريط طويل من ورق جهاز الإبراق الذي يحتوي على أحدث الأخبار القادمة من بغداد ويغمز الي باحدى عينيه كي القي نظرة عليها بينما كان "حسن العلوي" لا يزال يملئ برقيته بالتلفون مع "بغداد". حين نظرت الى أسماء المتأمرين كان أسم "عدنان حسين الحمداني" نائب رئيس الوزراء وأبن خال العلوي ونسيبه وأسمي أخوي "تاجي الحديثي" كلاً من "محمد" و"شكري" من بين تلك الأسماء التي يطالبان الآن بإعدامهم مع بقية المتأمرين دون ان يعلما بطبيعة الحال انهم من بين أولئك المتأمرين. خرجت ساعتها من المركز الى نفس هذا الشارع وانا أفكر بما يجري وما سيجري لاحقاً في هذا البلد التعيس على يد هؤلاء الذين استولوا على مقدراته خلسة وتحت جناح الظلام فقد كان ذلك مشهداً من مشاهد الدراما الشكسبيرية تندر ان تجود به أحداث الحياة الواقعية الا ربما في العراق. في المساء عاودني نفس السؤال وأسئلة اخرى كلها تدور حول الطريق الذي سيقود فيه "صدام" العراق بعد حربه هذه. في الأشهر التالية بدت تتضح الورطة او الهوة العميقة التي أوقع صدام فيها ليس العراق وحده بل المنطقة كلها والتي بدأت الحرب

تستقطب دولها وشعوبها بين من يرى في "صدام" حامي حمى البوابة الشرقية للأمة العربية ضد الفرس المجوس، كما بدأت آلة الحرب الإعلامية العراقية تسم الإيرانيين، وكان واضحاً انه المعسكر الأكبر بكل تنوعاته وغاياته، وبين من يرى في الحرب مغامرة صدامية لن يخرج منها العراق سالماً معافاً مهما ستكون نتائجها العسكرية. بعد عام ونصف كان آتون الحرب لا يزال مشتعلًا حين حان موعد عودتي الى العراق.

*

حتى بمقاييس القمع والإرهاب التي كانت سائدة قبل ان أغادر العراق للدراسة في المملكة المتحدة في ربيع عام 1979 كان العراق الذي عدت اليه في ربيع عام 1982 والذي هيمن على زمام السلطة فيه الآن وبشكل مطلق "صدام حسين" بلداً مختلفاً تماماً عما كان عليه قبل سفري واختفت منه كلياً أية مظاهر تدل على وجود مجتمع حيوي، بل ولأقول الأمر بفضاضة، فان المجتمع الذي عدت اليه كان قد تحول الى مجرد كتلة بشرية صماء، أو حتى جثة هامدة فقدت كل

سمات ومقومات الحياة الطبيعية وعلى رأسها قدرتها على التفكير الحر والتفاعل، بل وحتى القدرة على النقاش العادي البريء. لم يكن الصمت أو رديفه الخوف هما سيدا الموقف، بل وكان أيضاً شيوع روح النفاق والرياء والتملق، بل والأهم من كل ذلك الغاء الذات الإنسانية وإحلال الولاء الأعمى لـ"صدام" الذي أصبح الآن "القائد الضرورة" وهو تعبير سيتجاوز في المستقبل القريب المعنى المطلوب ترويجه داخلياً لكي يصبح أيضاً ضرورة عربية، بل وضرورة عالمية على الجميع ان يحسب حسابها. وبقدر ما أحل ذلك نمطاً متدنياً من أنماط عبادة الشخصية لـ"صدام" فانه أحل أيضاً أنماطاً من الدناءة الأخلاقية بدأت تشيع في تصرفات الكثير من العراقيين وعلى رأسها الوشاية بحيث كان العراق الذي عدت اليه قد أصبح مجموعتين من الناس أحدهما من الوشاة، وهم الجواسيس والبصاصين وكتبة التقارير، والثانية من المرعوبين والمهزوزين حتى من خيالهم. كان العراقيون قد تحولوا، أو هكذا بدوا لي، الى مجرد (جماهير) تلتف جميعها حول "صدام" الذي تحول الآن الى القائد الوحيد والأوحد حتى انه لم يعد هناك أي إشارة الى الحزب القائد الذي كان شعار المرحلة التي تلت استلام البعث للسلطة وقبل ان أغادر العراق. كان خير من يعبر عن تلك الصورة

التي عليها العراق هي السيل العارم من الأغاني التي بدأت تنشد في مديح القائد والتي كانت في مقدمة أعمال وسائل جهاز الدعاية الضخم الذي لم يكن له عمل غير تمجيد "صدام" وتأليهه. كانت من أشهر الأغاني تلك أغنية تذاع يومياً ربما عشرات المرات للمطرب "حسين نعمة" يقول فيها عن "صدام" وبلغه الشعر الشعبي العامية "عمود البيت واحنا نصير اليك سور ويمر الليل عدنا بين ضويات" وهي صورة رسمها جهاز دعاية القائد بدقة لأنه يسعى لترسيخ قيم الولاء الأعمى وهو العامل السايكولوجي الذي يتحول فيه الناس بالنتيجة الى دهماء مفتونين حتى بقامعهم. ولم يكن الأمر يقتصر على المطربين والشعراء العراقيين، بل راح فنانون وأدباء وصحفيون عرب ومنهم أسماء بارزة يملئون فنادق بغداد مثلما يملئون شاشات التلفزيون العراقي وصفحات الجرائد يكيلون بأصواتهم أو بمداد أقلامهم مديحاً لـ "حامي حمى العرب" و "حارس بوابتهم الشرقية" لم يسمع بمثله العرب منذ سنوات الخلافة. كنت ادهش لهذه الحالة التي وصل اليها العراقيون واتساءل هل كان بإمكان "صدام" ان يرسخ هذا النمط المزري من عبادة الشخصية دون ان يكون هناك نوع من القناعة لدى هذه (ال جماهير) ودون ان يحوز رضاها وثقتها. كنت أثناء دراستي في

لندن قد قرأت كتابي "جورج اورويل" "مزرعة الحيوانات" و "1986" وكتاب "اسس التوتاليتارية" لـ "حنا ارندت" والآن استطيع ان اتذكر الكثير مما ورد فيهما والتي تفسر كيفية نشوء الأنظمة الشمولية وبقائها في السلطة عبر ثنائية البطش والخداع التي اراها تعمل امامي. ولم يكن ذلك ممكنا بالطبع دون وجود جهازين أحدهما أمني مخابراتي والثاني إعلامي يعملان معا؛ الأول لإخافة الناس وإشاعة الرعب في المجتمع والثاني لحقنهم بلقاح التحصين الأديولوجي الكافي واجتذابهم الى جانب النظام وقائده الرمز. ولم تكن الحرب مع إيران في حقيقة الأمر، على الرغم من كل المبررات التي ساقها، سوى أداة شريرة استخدمها "صدام" لترسيخ وإدامة الأسلاك الشائكة التي أحاط بها عقول وقلوب العراقيين قبل أجسادهم وهو يمضي في إقامة نظامه وتشديد قبضته على البلد الذي كان يوماً ما مؤلاً ومناًراً للحضارة الإنسانية. سيكون لي نصيبي من المعاناة من أهوال الحرب ومآسيها حيث سيتم سوقي لأداء الخدمة في الجيش لعدة سنوات قبل ان يتم تسريحي وانا محمل بندوبها الكثيرة وأعود للعمل في أجواء أشد تعاسة وخطراً مما قبل. في مثل هذا الواقع ظل السؤال يواجهني وهو كيف سأستطيع العمل اذن في جهاز إعلام النظام الذي وجدتني عائداً اليه

وهذه المرة في احدى صحفه. وعلى الرغم من ان عملي في قسم الأخبار الخارجية في جريدة "بغداد أوبزرفر" كان أهون الشرور باعتبار الجريدة الناطقة باللغة الأنكليزية كانت خارج لعبة التعبئة الجماهيرية التي تمارسها وسائل الإعلام الاخرى الا ان الأمل ظل يحدوني بإمكانية التخلص من ذلك في الوقت المناسب. في 22 حزيران/ يونيو 1985 جاءت مثل هذه الفرصة وبدأت العمل مع "هيئة الاذاعة البريطانية" "بي.بي.سي" كمراسل للقسم العربي في بغداد والتي لم يكن لها مراسل في العاصمة العراقية قبل ذلك. لم تكن لدي أية أوهام بشأن صعوبة وربما استحالة العمل كمراسل لهيئة إعلامية أجنبية وخاصة "اذاعة لندن" في العراق لإعتبارات مهنية وسياسية في ظروف في غاية الدقة والحساسية، وهي ظروف الحرب العراقية الإيرانية التي كانت تغطيها تعني التعثر بمطبات كثيرة. ففي الوقت الذي يتطلب مثل هذا العمل الإلتزام الدقيق بالمعايير المهنية والأخلاقية للصحافة العالمية والتي على رأسها الحياد والموضوعية والمصداقية كان من الصعوبة بمكان وسط أجواء من الدعاية والحرب النفسية وحملات التعبئة الجماهيرية الإقتراب من الحقيقة التي ظلت كما هي شأنها في كل الحروب احدى أبرز ضحاياها. فالعراقيون لم يكونوا يرضوا بأقل من نقل وجهة نظرهم

مهما تكن وكانت اي محاولة ايجاد توازن مع وجهة نظر الإيرانيين تعتبر اخلاقاً بالواجب ان لم يكن خيانة وطنية. وسرعان ما بدأت المشاكل حيث يصر المسؤولون العراقيون على نقل وجهة النظر العراقية كما هي بينما تتطلب حرفة العمل ايجاد مسافة كافية للتعبير عن الاستقلال. أحياناً كانت اعتراضات المسؤولين العراقيين مثيرة للسخرية لأنك لا تدري على اي شيء يعترضون ولماذا. في مرة ما استدعاني "عبد الجبار محسن" الناطق باسم القوات المسلحة كي يعترض ويحتج على اذاعة جزء فقط طوله سبع دقائق من حديث استمر حوالي نصف ساعة أدلى به في اليوم الأسبق تضمن معظمه تنظيراً في إطار الخطاب الرسمي من غير معلومات ذات قيمة إخبارية أو تحليلية تضيف جديداً.

شرحت له ان ظروف الإذاعة خارجة عن ارادتي حيث تتحكم فيها عوامل عديدة منها سياسات التحرير والمضمون والوقت المخصص للمقابلة وان اذاعة سبع دقائق ليس أمراً سيئاً بل هو شيء يستحق الثناء الا انه أرغى وأزبد دون ان يضيف شيئاً غير إصراره على ان اقتطاع جزء مهم من المقابلة أفسد الخطة الإستراتيجية للقوات المسلحة. لم أحاول ان اسأله عن ما شأني و"اذاعة لندن" بالخطة

لكن عندما طرحت الموضوع على "صلاح المختار" المدير العام للإعلام الخارجي المسؤول عن عمل المراسلين أجابني بان جزءاً من خطة الحرب النفسية التي يتبعها العراق هي محاولة استخدام علم "الباراسيكولوجي" للتأثير على المسؤولين الإيرانيين ومن بينهم "الخميني" الذي يعرفون انه يستمع كل ليلة الى "اذاعة لندن" وان المقابلة كانت لإرسال رسائل متضمنة في المقابلة للتأثير عليه من خلال الإيحاء وبدأ يشرح لي ما قد يعنيه كل ذلك وفقاً لتطبيقات "الباراسيكولوجي". انتابني شعور بالإشمئزاز لمحاولة استغلالي بهذه الطريقة السمجة ولكن في نفس الوقت أدركت سذاجة هذه المجموعة التي تتولى قيادة الإعلام العراقي والتي كانت قد اقنعت "صدام" بفتح مركز لدراسات "الباراسايكولوجي" والذي أخذ يروج لتطبيقاته من خلال كراسات وكتب تطبع وتوزع بشكل شبه مجاني أو مقالات تكتب في الصحف وبرامج تعد في التلفزيون كانت بمجملها نوعاً من الشعوذة والدجل الذي كان يستهدف نشر الأوهام بين الناس وتزييف وعيهم وتدجين عقولهم لغرض السيطرة عليهم وهو ما كان يدعونه بالإيحاء عن بعد بالباراسايكولوجي. اكتشفت بعد ذلك ان صاحب الفكرة والشخص الذي اقنع "صدام" بذلك هو احد المدراء العاميين في وزارة

الإعلام والذي كانت أمه واحدة من السحارات والمشعوذات الشهيرات في مدينة الموصل. بعد عام تقريباً وفي 12 تشرين الاول/ أكتوبر 1986 حصلت على عمل مع وكالة انباء "الأسوشيتدبريس" كأول مراسل عراقي لها في بغداد. كان من المفروض بعد تجربة "بي.بي.سي" ان أبتعد تماماً عن هذا النوع من العمل الذي لم يكن الا سيراً في طريق محفوفة بالألغام وظل البديل هو العودة الى صحافة الدولة الشمولية وماكنتها الدعائية ولم يكن ذلك سوى انتحاراً مغنياً وأخلاقياً ان لم يكن موتاً فعلياً بطيئاً. كان للحرب المستعرة أيضاً جانبها الآخر القاسي الذي قلص الفرص والخيارات سواء أكانت حياتية ام مادية أو مهنية أو ثقافية مما حتم النظر الى الأمر من زاوية تحمل الأكلاف والضغط مؤقتاً برجاء جلاء الغمة. ومع كل المصاعب والمشاكل والمخاطر بدا العمل كمراسل صحفي لوكالة دولية كبيرة مصدراً مثيراً للمتعة والخيال والتحدي وتجربة مهنية وثقافية كبيرة شعرت أحياناً بانها تستحق الثمن الذي أدفعه من أجلها.

*

مع نهاية عام 1985 ظهر ان هناك نوع من التوازن قد تحقق لمصلحة كل من العراق وإيران في الحرب التي كانت على وشك ان تدخل عامها السادس دون بوادر لحسم عسكري وأيضاً دون وجود أفق لحل سلمي سياسي. بالنسبة للعراق فان ما اعتبره "صدام" نجاحاً هو قدرة الجيش العراقي على صد هجمات الموجات البشرية الإيرانية المتكررة وحصر مكاسبها على الأرض في مناطق حدودية بعيدة عن التجمعات السكانية الكبيرة اضافة الى النجاح الكبير في حرب المدن وفي توجيه ضربات موجعة لمنشآت النفط الإيرانية على الخليج وناقلات النفط الإيرانية العابرة في الخليج العربي. وفي هذا العام شنت الطائرات العراقية أكثر من 20 ألف طلعة جوية ضد أهداف داخل إيران من بينها 77 هجوماً على ميناء تصدير النفط في جزيرة "خرج" وضرب 124 سفينة شحن إيرانية للنفط في مياه الخليج. كانت الإستراتيجية العراقية في البر قائمة على أساس عدم وجود إمكانية لشن هجمات كبيرة واحتلال مدن إيرانية كما حصل في بداية الحرب وثبت فشلها عندما اضطر الجيش العراقي للإنسحاب لاحقاً ولذلك اتبع صدام استراتيجية دفاعية هدفها احباط محاولات إيران في إحتلال مدن رئيسية والصمود ضد الهجمات الإيرانية، من جهة، ومن جهة أخرى،

نقل الحرب الى داخل المدن الإيرانية بواسطة الضربات الصاروخية والجوية وتعطيل قدرة إيران على تصدير النفط في محاولة لتئيس الإيرانيين ودفعهم الى وقف الحرب. ورافق ذلك عرض "صدام" إيقاف الحرب وهو أمر كان يرى ان قبوله من قبل إيران كان يعني هزيمتها من وجهة نظره. بالنسبة لإيران فانها لم تكن سنة سيئة حيث تمكنت قواتها من شن عدة هجمات كبيرة على طول المناطق الحدودية واستطاعت من خلالها إحتلال المزيد من الأراضي العراقية في الشمال والوسط والجنوب. كان أهم مكاسبها في جبهة الشمال حيث احتلت القوات الإيرانية مناطق جديدة. صحيح ان تلك المناطق كانت مجرد جيوب جبلية على الحدود الا انها مكنت المقاتلين الأكراد و بمعاونة مقاتلين من التنظيمات الشيعية المتواجدة في إيران مثل "المجلس الأعلى للثورة الإسلامية" و"حزب الدعوة" من السيطرة على أراضٍ عراقية شاسعة قدرت بثلاث المنطقة الكردية الشمالية. ومع نهاية عام 1985 كان واضحاً ان الإيرانيين عبؤا مئات الآلاف من الحرس الثوري استعداداً لشن هجمات جديدة على العراق بعد حملة "قوافل كربلاء" التي شنوها في المدن والقرى لجلب المتطوعين الذين ادعت ايران انهم بلغوا حوالي مليون متطوع. في 29 و30 كانون أول/ ديسمبر 1985

شنت إيران هجوماً مباغتاً على جزيرة "أم الرصاص" التي تقع في وسط "شط العرب" جنوب البصرة تمكن لواءان من القوات الخاصة العراقية من طرد القوات الإيرانية بعد يومين من القتال الشرس. عندما زرنا الجزيرة في اليوم التالي كانت جثث العشرات من الجنود الإيرانيين منتشرة بين أدغال الجزيرة بينما عرض علينا الضباط العراقيون أسلحة سوفيتية وصينية ومعدات أمريكية وملابس ضفادع بشرية بريطانية الصنع وزوارق مطاطية سريعة قيل انها استخدمت في عبور الممر المائي الذي يفصل الحدود البرية الجنوبية للبلدين. للوهلة الأولى كان يبدو ان هدف الهجوم الإيراني هو الحصول على موطئ قدم قريب من البر العراقي يوصل بمدينة "البصرة" التي لا تبعد الا أقل من 30 كيلومتراً الى الشمال لكن الإيرانيين لم يعززوا الهجوم مما أثار استغراب القادة العراقيين الذين كانت لديهم معلومات بعضها جاء من مصادر أجنبية وقيل انها أمريكية عن وجود حشود إيرانية كبيرة الى الشمال من البصرة في منطقة "هور الحويزة" وعندما بدأت هذه القوات هجومها فعلاً على المنطقة توصل العراقيون الى الإستنتاج بان الهجوم على "أم الرصاص" كان مجرد مخادعة تكتيكية لتشتيت انتباههم عن الهجوم الرئيسي الذي توقعوه في "هور الحويزة" فكانوا قد جهزوا له وتمكنوا

من صده. غير ان مفاجأة كبرى كانت بانتظار القادة العسكريين العراقيين حين بدأ الإيرانيون هجوماً كاسحاً على ميناء "الفاو" على لسان الأرض العراقية الممتدة على شمال الخليج يوم 9 شباط/ فبراير 1986 وتمكنوا من إحتلالها في اليوم التالي مستغلين جملة عناصر منها المباغته الناجحة وسوء الأحوال الجوية التي حدثت من قدرة الطيران العراقي على تدمير جسور العبور التي اقيمت على "شط العرب" والأهم من ذلك عدم وجود قوات عراقية كبيرة في المنطقة التي لم يتمركز فيها سوى لواء واحد من حرس الحدود فقط. استمرت المعارك حتى يوم 25 شباط/ فبراير 1986 وفي ختامها لم يتمكن العراقيون سوى من حصر القوات الإيرانية داخل مثلث من الأراضي بين البحر والنهر ومنطقة الممالح مما أدى الى سيطرة الإيرانيين الكاملة على أول مدينة استراتيجية عراقية منذ بدأ الحرب.

*

باحتيالها لـ"الفاو" حققت إيران نصراً عسكرياً كبيراً في الحرب سيعتمد تحويله الى انتصار إستراتيجي على عوامل عديدة منها إضافة

الى القدرات العراقية في المواجهة ما سوف يعتمد الى حد كبير على المواقف الإقليمية والدولية. فإحتلال "الفاو" كسر حالة التوازن الإستراتيجي التي كانت تعتمد عليها القوى الكبرى في استمرار معادلة لا غالب ولا مغلوب التي اتبعتها منذ نشوب الحرب والتي أدت بالتالي الى استمرارها طيلة كل هذه السنوات. كما ان وجود القوات الإيرانية على مسافة لا تتجاوز عشرات الكيلومترات من الأراضي الكويتية شكل تهديداً حقيقياً ولأول مرة الى المملكة العربية السعودية وباقي دول الخليج وعرض مصالح الدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة للخطر. وعلى هذا الأساس فقد ظل السؤال الذي يواجه المراقبين والمتابعين لمجرى الحرب طيلة الأشهر التي تبعت الإحتلال الإيراني للفاو هو الموقف الذي ستتخذه واشنطن لمواجهة إحتمال استثمار "طهران" لوجودها هناك في الإنتشار جنوباً نحو "الكويت" او شمالاً نحو "البصرة".

كان العراقيون قد فشلوا في استعادة "الفاو" من خلال عدة هجمات تعرضية شنوها منذ شباط/ فبراير لكنهم أفلحوا في اقامة منطقة دفاعية محصنة ساعدتهم فيها الطبيعة الجغرافية المتمثلة في منطقة الممالح شرقا وغابات النخيل الكثيفة على طول "شط العرب" شمالاً

على إحباط أية محاولة إيرانية للخروج من الزاوية التي حشروا أنفسهم فيها في ظل فقدانهم للكثير من الإمكانيات العسكرية لشن هجوم كهذا مثل الطيران والدبابات والصواريخ المضادة للدروع التي ستحتاجها لفتح طريقها من خلال سد الدبابات العراقي المنيع المتوقع. في هذه الأثناء فجرت مجلة "الشراع" اللبنانية مفاجأة كبرى حين كشفت في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر 1986 عن زيارة قام بها الى واشنطن مستشار الأمن القومي الأمريكي "روبرت ماكفارلن" للإجتماع الى المسؤولين الإيرانيين ومن بينهم "هاشمي رفسانجاني" رئيس البرلمان الإيراني وواحد من أبرز مساعدي "الخميني". ما كشفته المجلة الموالية لسوريا كان مجرد قمة جبل الجليد الذي بدأ يتكشف لاحقاً وما سمي بفضيحة "إيران- غيت" عن قصة تجهيز الولايات المتحدة وإسرائيل لإيران بمعدات عسكرية منها مواد احتياطية لطائرات "ف-4" الأمريكية الصنع المتعطلة في إيران ومنها صواريخ "هوك" المضادة للطائرات اضافة الى صواريخ "تاو" المضادة للدروع والتي ظهر ان الرئيس الأمريكي آنذاك "رولاند ريغن" أمر في 17 كانون الثاني/ يناير 1986 أي قبل إحتلال "الفاو" ببيع 4000 صاروخ منها الى إيران نقل 1000 منها يومي 15 و 16 شباط/ فبراير عام 1986 الى إسرائيل التي نقلتها فعلاً

نهاية الشهر نفسه وعبر الأجواء التركية الى إيران. ما تكشف أيضاً ان "ماكفارلين" الذي وصل الى مطار "مهراباد" في طهران يوم 25 آيار/ مايو 1986 اي بعد احتلال "الفاو" أيضاً كان يحمل معه جزء من شحنات صواريخ "هوك" المتفق عليها. في بغداد كانت هذه الأخبار تأتي فتثير الكثير من الغضب لدى المسؤولين العراقيين والذين كانوا يعبرون عنه لدى الصحفيين الأمريكيين الذين يزورون العراق تلك الأيام وبطريقة تعبر عن الشعور بالخيانة والخذلان من قبل الولايات المتحدة التي يعتبرونها تتآمر مع إيران وإسرائيل ضد العراق. في هذه الأثناء وفي 24 كانون الأول/ ديسمبر 1986 شنت إيران هجوماً كاسحاً على البصرة سمته "كربلاء-4" لحقته بعد أقل من أسبوعين وفي 6 كانون الثاني/ كانون الثاني 1987 بهجوم جديد على نفس المنطقة سمته "كربلاء-5" كان الهدف منهما الوصول الى الضفة الشرقية لـ"شط العرب" عبر منطقة أراضي جرداء أغرقت بعضها القوات العراقية بالمياه منذ عام 1982 وحولتها الى ما سمي حينذاك بـ"بحيرة الأسماك" وهي حاجز مائي محصن حينما زرتة في مرة سابقة بدا لي شديد المنعة لما يتمتع به من تحصينات تشمل حقول الألغام المحيطة به والمحاطة بدورها بالأسلاك الشائكة المكهربة وبراميل احتوت على

كل أنواع المتفجرات ومنها قنابل النابالم. في 9 كانون الثاني/ يناير 1987 نقلت وزارة الإعلام مجموعة من المراسلين الصحفيين وكنت من بينهم الى "البصرة" التي كانت قد افرغت من معظم أهاليها بينما كانت القذائف المدفعية تضرب على مقربة من المدينة وبعضها يسقط في وسطها وبالقرب من فندق "الشيراتون" الذي انزلنا نحن الصحفيين فيه. التوتر كان بادياً على القادة العسكريين العراقيين مما يعكس الحالة العصبية على الجبهة وخاصة الخشية من المفاجئات حيث كان أكثر من مائة ألف من الحرس الثوري الإيراني اضافة الى آلاف أخرى من الجنود النظاميين قد حشدوا جنوباً في "الفاو" بينما اخترقت القوات المهاجمة من الأمواج البشرية الإيرانية شرقي البصرة ثلاثة من خمسة أقواس دفاعية اقامها العراقيون وهددت ثاني أكبر مدينة عراقية مثلما لم تهددها من قبل منذ بدأ الهجمات الإيرانية داخل الحدود العراقية في حزيران عام 1982. بعد انتهاء هذه المعارك الطاحنة في 26 شباط، فبراير 1987 بإيقاف الزحف الإيراني نحو البصرة من الشرق وإحباط وصول الإيرانيين الى المدينة بدأت تتضح حقائق كثيرة في مجرى الحرب أهمها ان القوات الإيرانية رغم انها فقدت حوالي 20 ألف رجل في هذه المعارك وفشلت في تحقيق هدفها الا انها أظهرت تكتيكات

وإمكانيات قتالية أكثر تطوراً من ذي قبل إضافة، وهو الأهم، امتلاكها أسلحة جديدة الكثير منها هو مما حصلت عليه من الولايات المتحدة مؤخراً. عندما تسللتُ الى "ملعب الإدارة المحلية" في البصرة لأرى بعض نتائج المعارك وجدت من بينها أكثر من مائتي دبابة عراقية مدمرة أو معطوبة كان واضحاً انها أصيبت بصواريخ "تاو" الأمريكية التي تسلمتها إيران العام الفائت وهو أكبر عدد من الدبابات تصيبه إيران في كل سنين الحرب. حين كتبت ذلك في أحد تقاريري الإخبارية جن جنون المسؤولين العراقيين واستدعاني "صلاح المختار" المدير العام لدائرة الإعلام الخارجي لتوبيخي على ذلك. سألته مالذي يغيض في التقرير الإخباري؟ هل هو الكشف عن اثر وجدوى التسليح الأمريكي لإيران أم انه نشر أخبار عن الخسائر العراقية؟ أجبني بانني تناولت أسراراً عسكرية وبان ذلك لن يذهب دون عقاب أو رادع وان جهات عليا ستنظر في الإجراء الذي سيتخذ ضدي لكنه دعاني للمغادرة في الوقت الحاضر. بعدما تركت مكتبه تساءلت مع نفسي ان كان هؤلاء الناس يعرفون ما يقومون به من عمل أم انهم صم بكم لا يفقهون. بعد أيام قليلة وفي 11 نيسان/ أبريل 1987 ادلى طه ياسين رمضان نائب رئيس الوزراء بتصريحات الى محطة تلفزيون

"اي.بي.سي" صب فيها جام غضبه على إدارة الرئيس "ريغان" واتهمها ليس فقط بتزويد إيران بالمزيد من السلاح بل وأيضاً بالمعلومات الإستخبارية عن الجبهة العراقية والتي قال ان الهدف منها هو معادلة تفوق العراق الجوي وفي ميدان الدروع لتحقيق توازن مع إيران. وبالنسبة للهجوم الأخير اعترف رمضان بسقوط ضحايا عراقيين كثيرين مضيفاً "لقد تسببوا فعلاً في بعض الأضرار لسلحنا الجوي والقوات المدرعة مضيفاً "لكن ذلك لم يحد من امكاناتنا بالطبع". مثلما كانت سلسلة هجمات "كربلاء" محطة مهمة في الحرب فانها كانت علامة بارزة في مجرى العلاقات الأمريكية العراقية وتطورها خلال الحرب. رسمياً كانت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين قد اعيدت في 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1984 بعد 17 عاماً من القطيعة اثر حرب الأيام الستة بين العرب وإسرائيل عام 1967 لكن لم يكن سرّاً أبداً في بغداد ان الطرفين كانا على علاقة أكثر من جيدة حتى في غياب العلاقات الرسمية، بل وتعدى ذلك الى التعاون العسكري والتسليحي خلال الحرب. كانت واحدة من المسائل التي لفتت نظري في وقت مبكر مثلاً هي استبدال طائرات الهليكوبتر المقاتلة من طراز "ام-اي 18" السوفيتية الصنع التي عادة ما ينقلونها بها الى جبهات القتال

بطائرة "بيل" وهي هليكوبتر مريحة ومتقدمة تنتجها شركة "تيكسترون" الأمريكية مطلية باللون الخاكي ويقودها طياران عسكريان فهل من المعقول ان الولايات المتحدة لا تعلم بان طائراتها تستخدم من قبل الجيش العراقي. كانت أجهزة الدعاية العراقية لا تزال تضع أمريكا في خانة الأعداء جنباً الى جنب مع إسرائيل وإيران وتحرض عليها كجزء من سياسة النظام العلنية لكن كل المؤشرات كانت تدل على ان هناك وجهاً آخر لهذه السياسة وأبرز تعبير عنه هو مساهمة الولايات المتحدة بشكل مباشر أو من خلال حلفائها في دعم وتعزيز المجهود الحربي العراقي سواء من خلال التسليح أو التجهيز أو المعلومات أو ما هو ليس أقل أهمية من ذلك من خلال تقديم الدعم السياسي والعون المالي الذي يأتي الى "صدام" من أصدقاء أمريكا في المنطقة والعالم. والواقع ان العلاقة بين الطرفين أخذت منحاً منظماً منذ يوم 20 كانون الأول/ ديسمبر 1983 حين التقى "دونالد رامسفيلد" وزير الدفاع الأمريكي في عهد الرئيس جيرالد فورد والمبعوث الخاص للرئيس "ريغن" (وهو نفس وزير الدفاع الذي سيشن حرب اسقاط "صدام" في عهد الرئيس جورج دبليو بوش عام 2003) مع "صدام" وهي الزيارة التي أسست لتفاهم بل ولتعاون مشترك في الوقت الذي

كانت إيران تشن هجوماً بعد آخر على جبهات الحرب تزيد من عمق الأزمة التي يعانيها "صدام". وحتى حين ضربت الطائرات الحربية العراقية الفرقاطة الأمريكية "ستارك" في 17 أيار/ مايو 1987 بصاروخي "أكسوسيت" فرنسي الصنع وقتلت 37 بحارا أمريكياً فان تسوية الأمر لم يأخذ غير اتفاق على التعويضات دفعته "بغداد" لكن الحادثة كانت قد فتحت الباب تماماً للامريكان في ان يعزوزا من تواجدهم البحري في مياه الخليج بحجة حماية خطوط نقل النفط الدولية. كان الدبلوماسيون الأمريكيان الذين التقى بهم في "بغداد" يفسرون الأمر بأنه جزء من السياسة الواقعية التي تتبناها بلادهم ازاء منع انتشار المد الأصولي الذي تمثله الثورة الإسلامية في إيران بما كان يعني في الحقيقة منع سقوط نظام "صدام" وتعزيز قدراته بغض النظر طبعاً عن الكلفة المادية والبشرية التي يتحملها العراقيون من إطالة أمد الحرب وإطالة عمر النظام في الوقت نفسه. لكن فضيحة "إيران-غيت" بتفاصيلها المثيرة التي كشفت عنها كانت تكشف أيضاً ليس عن خيوط لعبة كبيرة تجري وقائعها في المنطقة، بل وأيضاً عن انفتاح خشبة المسرح عن مسرحية تراجيدية لم يكن بالإمكان تحديد

كل أبطالها ولا عدد فصولها ولا حتى التكهّن بكيف أو متى ينتهي
فصلها الأخير.

*

منذ عام 1982 ومع تحول إيران الى الهجوم وإحتلال الأراضي
العراقية بدأت الإخبار تتواتر عن استخدام كلا الطرفين للأسلحة
الكيميائية في بعض المعارك الرئيسية كما بدت إيران بشكل خاص
تطرق أبواب المنظمات الدولية للشكوى من استخدام العراق من تلك
الأنواع من الأسلحة. في نهاية تشرين الأول عام 1983 وبعد أيام من
شن إيران هجوماً واسعاً على منطقة "بنجوين" قدمت طهران شكوى
لـ"مجلس الأمن الدولي" طالبة التحقيق في هجمات عراقية بغاز
"الخردل" ضد قواتها التي كانت قد تغلّت بمسافة 30 ميلاً داخل
الأراضي العراقية وطردت قوات الفيلق الأول منها. غير ان مسعاها
جوبه بلا مبالاة من المجموعة الدولية وخاصة الدول الغربية والولايات
المتحدة التي كانت هناك الكثير من التقارير التي تشير الى تزويدها
كل من العراق وإيران بمكونات تصنيع هذه الأسلحة. ولم يحاول
المسؤولون العراقيون ان ينفوا ذلك بل ان البيانات العسكرية التي

صدرت يوم 22 شباط/ فبراير 1984 هددت قبيل معركة خاضها "الفيلق الثالث" مع الإيرانيين بان "على الغزاة ان يعلموا بان لكل حشرة ضارة مبيد قاتل قادر على القضاء عليها مهما كان عددها وان لدى العراقيين هذا المبيد القاتل". وفي 28 شباط/ فبراير 1984 أي بعد انتهاء المعركة بعث الفريق "ماهر عبد الرشيد" قائد "الفيلق الثالث" ببرقية الى "صدام" يهنأه على الإنتصار بقوله : " لقد حولنا بقايا تلکم الحشرات الضارة الى طعام للغربان وأسماك الهور." ومع استمرار الحرب تكررت الإتهامات من كل طرف بإستخدام الطرف الثاني للأسلحة الكيماوية ضد جنوده كما ظلت الصحافة العالمية تردد التقارير عن صفقات يجري توقيعها وشحنات يتم توقيفها ومصانع يجري بناءها حتى ان رئيس وزراء إيران "مير حسين موسوی" صرح علنا في كانون الأول/ ديسمبر 1986 بان إيران طورت سلاحاً كيميائياً دفاعياً، مضيفاً "غير انها لن تستخدمه الا في الضرورة القصوى." كانت الأمم المتحدة قد ارسلت ثماني بعثات للتحري والتحقيق في إستخدام الطرفين الأسلحة الكيماوية منذ عام 1983 ومع ذلك ظل المجتمع الدولي عاجزاً عن وضع حد لإستخدامها مما ادى بالنتيجة ان يستخدم "صدام" ذلك النوع من السلاح الفتاك ضد

شعبه. ففي 13 آذار/ مارس 1988 نقلتنا طائرتا هليكوبتر الى "السليمانية" بشكل عاجل بعد تقارير عن اشتداد المعارك على الجبهة الشمالية. كانت إيران قد أعلنت قبل يومين عن شنّها هجوماً كاسحاً باسم "ظفر-7" بالقرب من مدينة "السليمانية" مما أثار المخاوف من احتمال ان يكون لها نية التقدم نحو المدينة ذات الأهمية الاستراتيجية القصوى. ما ان وصلنا الى المدينة حتى نقلونا الى المستشفى الرئيسي فيها حيث أطلعونا على العشرات من المدنيين الأكراد ومن بينهم نساء واطفال الذين قالوا انهم تعرضوا للأسلحة الكيماوية التي استخدمتها إيران في معارك دارت في اليومين السابقين. لم يسمح لنا مرافقونا من توجيه أي سؤال الى الضحايا الذين كان واضحاً من القروح التي امتلئت بها أجسادهم انهم فعلاً تعرضوا لمواد كيماوية ولربما غاز "الخردل" الا ان المرافقين من عناصر "الإستخبارات العسكرية" وبعض مسؤولي "حزب البعث" أصرّوا على أن الإيرانيين هم الذين ضربوهم بالأسلحة الكيماوية. قبل هذه الرحلة المفاجئة كان الكلام يتواتر عن ضربات كيماوية عراقية على قرى كردية حصلت الشهر السابق ضمن حملة يشنها الجيش وتسمى "الأنفال" هدفها على ما يبدو هو سحق الحركة الكردية التي بدأت على ما يبدو

تسترجع أنفاسها في بعض اجزاء المنطقة حتى انها وصلت الى "كركوك" التي اعتقل فيها حوالي 5500 كردي وخشية النظام من ان تكون الأحزاب الكردية المسلحة والمتحالفة مع إيران جزءاً من الجهد الإيراني للتقدم في الأراضي العراقية. بعد ان أنهينا الجولة في المستشفى أخذونا الى مبنى محافظة السليمانية حيث نظمت مظاهرة اشترك فيها المئات كان واضحاً انهم من الطلاب والمعلمين وموظفي الدولة يهاجمون إيران لإستخدامها السلاح الكيميائي. بعد فترة قصيرة اخذتنا سيارات "لاندكروز" عسكرية الى منطقة "دربندخان" جنوب "السليمانية" حيث مقر الفرقة 39 من الجيش العراقي والتي كانت وحداتها حينها تخوض قتالاً عنيفاً في الجبهة القريبة لحماية سد "دربندخان" من السقوط والتي لم تكن تبعد أكثر من كيلومترات قليلة. في الطريق كانت قذائف المدفعية الإيرانية تتساقط بينما يحاول سائقونا تفاديها من خلال السرعة الهائلة التي قادوا فيها السيارات على الطريق الممتد عبر سهل شاسع يتوسط مناطق جبلية من الجانبين. ما ان وصلنا الى مقر الفرقة المحصنة بأسحتكومات إسمنتية وأكوام من أكياس الرمل حتى اشتد القصف المدفعي الذي بدا وكأنه يستهدف أيضاً جسم "سد دربندخان" القريب. كان الضباط في

حالة إرتباك واضحة ولم يظهر قائد الفرقة الذي قيل لنا انه سيعقد مؤتمراً صحفياً ليتحدث عن نتائج المعارك الأخيرة مما عزز الشكوك من ان الأوضاع على جبهة القتال القريبة لم تكن تجري على ما يرام. ولم تمض الا حوالي ساعة من الوقت حتى كانت طائرتا هليكوبتر تهبطان في مهبط قريب ويأمرنا مرافقونا بالصعود اليهما بسرعة قبل ان تنطلقا بنا عائدين الى "السليمانية". التزم المرافقون من الضباط بالصمت عما يحدث ولم يجيبوا عن أسئلتنا عماذا يجري بالضبط ولماذا احضروا الطائرتين لإعادتنا في الوقت الذي كنا قد جئنا من "السليمانية" بالسيارات لكن من شبك الهليكوبتر التي كانت تطير بسرعة لم أألفها من قبل كانت أعمدة الدخان تتصاعد من منطقة لم تكن بعيدة عن خط عودتنا نحو "السليمانية" وعندما نظرت الى الخارطة التي كانت بحوزتي ظهرت مدينة "حلبجة" التي كانت القوات الإيرانية تقصف حينها المناطق القريبة منها قبل يومين من شنّها هجوم "والفجر-10" بهدف احتلالها. في اليوم التالي نقلونا الى "مستشفى الرشيد العسكري" في بغداد حيث عرضوا علينا العشرات من الجنود هذه المرة والذي قالوا انهم تعرضوا للأسلحة الكيميائية الإيرانية في معارك على الجبهة الشمالية. ولم يكن بالإمكان طبعاً التأكد من كل

هذه الإدعاءات بشكل محايد كما جرت العادة خلال السنوات الماضية حيث يدعي كل طرف استخدام الطرف الآخر لهذه الأنواع من الأسلحة لكن دون أية إمكانية للتحقق. لكن في 16 آذار/ مارس 1988 كانت الطائرات العراقية تدك المدينة التي يسكنها حوالي 70 ألف نسمة بقنابل ربما كانت محملة بـ "غاز الأعصاب" (ستقول إيران انه بمادة "السيانيد" الأكثر فتكاً) تاركة ورائها جثث حوالي 4000 كردي بين طفل وامرأة وشيخ في أكبر مذبحة ترتكب بهذا النوع من السلاح ضد مدنيين والأدهى من ذلك انهم من مواطني البلد نفسه. ولم يكن بالإمكان ان تذهب هذه المجزرة دون ان يتمكن الإعلام الدولي من تسجيلها بالصورة والوقائع التي ادلى بها الناجون. دعت إيران في اليوم التالي للضربة الصحفيين الأجانب ونقلتهم على عجل الى "حلبجة" التي كانت قد سقطت بأيديهم بعد ان فرت منها القوات العراقية. كان الهجوم الكيميائي على "حلبجة" علامة فارقة في مجرى الحرب التي كانت قد دخلت عامها الثامن فعلى الرغم من ان إيران حققت مكاسب إعلامية كبيرة من خلال ادانة العالم للعراق الا انها أثبتت للإيرانيين ان "صدام" قد لا يتردد في استخدام الأسلحة الكيميائية ضد المدن الإيرانية في لحظات معينة أو ضد مدن عراقية أخرى قد

تحتلها إيران اذا ما اضطر الى ذلك تحت ظروف مشابه وهو الأمر الذي انعكس على الأداء الإيراني خلال الأسابيع التالية. ففي 1 نيسان/ أبريل 1988 أجرت الحكومة الإيرانية تمارين للدفاع المدني في المدن الإيرانية الكبرى لتعليم السكان كيفية مواجهة مثل هذه الأسلحة وهي تمارين جاءت بنتيجة عكسية إذ إنها نبهت السكان الذين كانوا قد شاهدوا التلفزيون الإيراني يعرض المشاهد المرعبة لـ"حليجة" الى مخاطر هذه الأسلحة مما أضعف من معنوياتهم ونبههم الى ضرورة إيقاف الحرب. ولذلك فماعداء استكمال الهجوم الذي كانت تشنه القوات الإيرانية على "دربندخان" وتمكنها نهاية شهر آذار/ مارس من إحتلال مناطق على الضفة الشرقية للبحيرة وهجوم "بيت المقدس-5" الذي شنته يوم 10 نيسان/ أبريل 1988 على قاطع "بنجوين" فان الهجمات الإيرانية الكبرى توقفت تماماً منذ الهجوم الكيميائي على "حليجة" مما يؤشر الى التأثير الكبير للإستراتيجية العراقية الجديدة.

ستبقى قضية الهجوم الكيميائي على "حليجة" صندوقاً مقفلاً عتلى أسرار كثيرة وخاصة بعد صدور تقارير من وكالة الإستخبارات العسكرية الأمريكية تنفي امتلاك العراق لمادة "السيانيد" وتؤكد على امتلاك إيران لها. لم يجر أي تحقيق دولي بهذا الملف على الرغم من

كل الإهتمام الذي أحيط به ربما لوجود أسرار تتعلق بمن زود كلا الطرفين بالأسلحة الكيماوية وكذلك دور فصيل كردي بارز في العمليات العسكرية الإيرانية التي جرت في "حلبجة".

*

صباح 17 نيسان/ أبريل 1988 كنت مع مجموعة من المراسلين الصحفيين نركب لأول مرة طائرة عسكرية كبيرة من طراز "اليوشن" سوفيتية الصنع في طريقها الى مطار البصرة والتي وصلناها بعد أقل من ساعتين حيث كانت تنتظرنا سيارات "لاندكروز" "تويوتا" رباعية الدفع انطلقت بنا بسرعة نحو الجنوب وباتجاه "الفاو". كانت قوات الحرس الجمهوري والفيلقين الثالث والسابع قد شنت اليوم السابق هجوما مباغتاً على القوات الإيرانية التي تحتل شبه الجزيرة التي تشكل نهاية الأرض العراقية المطلة على الخليج ثم اعلن العراق نجاحه في تحرير الجزيرة بعد سنتين وشهر وستة عشر يوماً من احتلال الإيرانيين لها. على مشارف الطريق المؤدي الى "الفاو" والذي يمر في منطقة سباح ملحية تمتد الى ساحل الخليج الشمالي كان الطريق خالياً من أية قوات عراقية أو آثار معارك عدا انهيار بعض الإستحكامات وأبراج

المراقبة التي كانت تحت قبضة الإيرانيين قبل يومين. في مدخل "الفاو" كانت المدينة الصغيرة خالية تماماً من أي دليل على الحياة عدا وجود عدد قليل من الجنود العراقيين الذين ما ان رؤنا حتى بدأ بعضهم يطلق النار بالهواء من بنادقهم الألية وحتى قذائف "أر.بي.جي" وبشكل إستعراضي على جدارية لـ"الخميني" كانت تزين مدخل المدينة. في موقع قريب كانت بناية مهجورة كتب عليها مكتب "المجلس الأعلى للثورة الإسلامية" في العراق انتشرت على أرضيته بقايا جرائد ونشرات وكتيبات قديمة من اصدارات التنظيم المعارض الذي يتخذ من إيران مقراً له. في الجوار كانت مقرات لتنظيمات إسلامية معارضة أخرى مهجورة بدا انها تواجدت في المدينة طيلة فترة إحتلالها من قبل الإيرانيين. وفي حين سمح لنا الجنود بدخول هذه المكاتب فانهم لم يسمحوا بالدخول الى مقر قيادة قوات "الفجر-8" الايرانية التي كانت تحتل "الفاو" أو الإقتراب من شاطئ نهر "شط العرب" المطل على الجانب الإيراني. كنت أريد ان أشاهد جسور الأنابيب التي قيل ان الإيرانيين نصبوها فوق مياه النهر للعبور عام 1986 وهل لا تزال قائمة في مكانها وهل استخدمت في الإنسحاب بعد الهجوم العراقي الأخير. لم نشاهد جثة إيراني واحد خلال جولتنا في المدينة التي

استغرقت حوالي ساعتين مما أثار تساؤلات عن كيفية استعادة القوات العراقية "الفاو" بهذه السرعة الفائقة وأين ذهبت تلك الأعداد من الحرس الثوري الإيراني التي كانت تحتلها وهل حصلت مقاومة فعلية اما لا. لكن كل الشواهد التي رأيتها تدل على ان الإيرانيين لم يقاتلوا بل تركوا المنطقة وهربوا باتجاه الضفة الاخرى من النهر. ماذا حدث بالضبط؟ لم يكن هناك تفسير لدى أي احد من مرافقينا من وزارة الإعلام أو القلة من الضباط العراقيين الذين التقينا بهم الا أن أعراض الحساسية التي أصابت اجزاءاً من جسمي المكشوفة واحمرار بعض هذه الاجزاء وشعوري باحتقان في عيني سرعان ما نبهاني الى احتمال استخدام القوات العراقية للأسلحة الكيميائية وربما يكون غاز الأعصاب او الخردل الذي لا تزال بقاياها تلوث جو المنطقة. عندما سألت أحد الزملاء عن ذلك قال ان ذلك ليس احتمالاً بل مؤكداً لأنه هو أيضاً يشعر بتلك الأعراض وهو ما يفسر الهروب السريع لحوالي 5000 رجل من الحرس الثوري الإيراني بعد ان كانوا يحتلون حوالي 180 ميلاً مربعاً من مساحة شبه الجزيرة. على الأرض كانت الدلائل كلها تشير الى انه كان نصراً عسكرياً عراقياً سهلاً لكن الإحتفالات التي سرعان ما أعلنت في بغداد أوضحت أهمية الإنتصار السياسي

الذي حققه "صدام" على عوده اللدود "الخميني" الذي ظل مصراً على مواصلة الحرب ورفض قبول قرار مجلس الأمن الدولي رقم 598 الداعي لوضع حد لها. كان توقيت الهجوم العراقي المفاجئ أيضاً مثيراً للإستغراب اذ جاء بعد هجوم شنته البحرية الإيرانية على سفينة حربية أمريكية في الخليج ووسط توقعات بان الأسطول الأمريكي بقيادة حاملة الطائرات "انتربرايز" يستعد للقيام بهجوم انتقامي وأيضاً لمعاقبة إيران على العدد الكبير من الألغام البحرية الطوافة التي كانت قد نثرتها في مياه الخليج والتي كانت تعطل الملاحة فيه. ولم يمض يوم واحد الا وكانت وحدات أمريكية تضرب جزيرتي "سيري" و"سليمان" وتدمر منشأتهما النفطية وعندما اقترب منها زورق صواريخ إيراني تم ضربه وكذلك اغرقه. بعدها بأيام قامت البحرية الأمريكية بإغراق الفرقاطتين الإيرانيتين "ساهند" و"سابلان" في مياه الخليج مما أبقى لدى البحرية الإيرانية فرقاطتان فقط من مجموع أربعة ورثتها من عهد الشاه. كانت كل هذه الحوادث مؤشراً على تنسيق أو تفاهم ما عراقي امريكي ألحق ضربات معنوية ومادية قوية بإيران التي أصبحت في موقف دفاعي ضعيف. بعد شهر من تحرير "الفاو" الحق العراقيون هزيمة أخرى بإيران عندما شنت قوات الحرس الجمهوري مرة ثانية مع

الفيلق الثالث هجوما مباغتاً على مواقع الإيرانيين في "السلامجة" شرقي البصرة يوم 25 آيار/ مايو 1988 وتمكنوا من تحريرها في تكتيك مشابه تماماً لما جرى في "الفاو". عندما زرنا المنطقة بعدها بيوم واحد كان مثيراً منظر التحصينات الدفاعية التي أقامها الإيرانيون من سواتر وخنادق وحقول ألغام دفاعية ومع ذلك لم نشاهد الا عدداً قليلاً من جثث الجنود الإيرانيين مما يعني انهم لم يقاتلوا هنا أيضاً وأختاروا ترك مواقعهم وإجتياز الحدود. عندما سألت بعض الجنود العراقيين عما حصل كان واحداً من الأجوبة التي سمعتها أنهم استخدموا نوعاً من القنابل العنقودية الانفلاقية التي تنفجر فوق تجمعات القوات مما لا يتيح أية فرصة لهم بالنجاة. بعد أكثر من أسبوعين وفي 13 حزيران/ يونيو 1988 قام الإيرانيون بهجوم مقابل لإعادة إحتلال "السلامجة" التي افقدتهم خسارتها ميزة القرب من البصرة وبغرض إستعادة معنوياتهم المنهارة الا انهم صُدُّوا وفقدوا العديد من أفراد الحرس الثوري في معركة خاسرة. ولم يلبث "صدام" ان أمر بشن هجوم مباغت آخر يوم 19 حزيران/ يونيو 1988 في محاولة واضحة لإستثمار الفوز الذي تحقق في "الفاو" و"السلامجة" ولكن هذه المرة لإحتلال مدينة "مهران" الإيرانية في القاطع الأوسط

لجبهة الحرب ولكي لا يبدو وكأنه يعيد إحتلال أراضي إيرانية سلم المدينة الى منظمة "مجاهدي خلق" الإيرانية المعارضة وألحقها بعد أسبوع اي في 25 حزيران/ يونيو 1988 بهجوم مباغت آخر هذه المرة على "جزر مجنون" في هور الحويزة لكي يحرر واحدة من أكبر المناطق الغنية بالنفط من سيطرة الإيرانيين. في اليوم التالي أخذونا نحن المراسلين الى المنطقة التي لم تكن دفاعاتها تقل استحكاماً عن مثيلاتها في "الفاو" و"السلامجة" لكن الإيرانيين تركوها وغادروا تماماً كما فعلوا في الجبهات الأخرى. حين قادنا أحد الضباط الذين كانوا يرافقونا الى منطقة بعيدة كانت خالية من أي اثار للقتال بالقرب من تلك الجبهة أثار استغرابي عندما ظهر نهر من بعيد وعندما نظرت في الخارطة التي كنت أحملها كان المكان يبدو قريباً من نهر "الكَارون" أي اننا كنا اجتزنا كيلومترات عديدة داخل الأراضي الإيرانية قبل ان انبه الضابط المذكور لكي يعود بنا الى داخل الأراضي العراقية قبل ان ينتبه الى وجودنا الإيرانيون ويأسرونا. في الأسابيع التالية شنت القوات العراقية سلسلة من الهجمات أطلقت عليها جميعها ومنذ الهجوم على "الفاو" أسم "توكلنا على الله" تمكنت خلالها من إستعادة كل الأراضي العراقية التي كانت إيران قد احتلتها منذ عام 1982 وبذلك

هُيئت الأرضية لقبول إيران بعد أيام بقرار مجلس الأمن رقم 598 كما نوه بذلك "هاشمي رفسنجاني" رئيس مجلس الشورى والذي كان "الخميني" قد عينه في 3 آيار/ مايو 1988 نائباً له كقائد عام للقوات المسلحة الإيرانية. ومع ذلك فإن العراق استمر بعملياته العسكرية حتى ان القوات العراقية شنت هجوماً مباغتاً على الجبهة الوسطى يوم 22 تموز/ يوليو 1988 استمر أياماً كانت مفاجئته دخول قوات "مجاهدي خلق" يوم 26 تموز/ يوليو 1988 الى عمق الأراضي الايرانية تحت حماية الطيران والمدفعية العراقية حتى وصلوا الى اطراف مدينة "كرمنشاه"، أو "بختران"، كما سميت بعد الثورة والتي تقع على مسافة تبعد حوالي 100 كيلو مترا من الحدود العراقية. حينما دخلت مع قوات "مجاهدي خلق" الى تلك المنطقة كان واضحاً أولاً تخلي القوات العراقية عن فكرة المشاركة معهم أو إحتلال أراضي ايرانية من جديد وثانياً ان بضعة آلاف من قوات مجاهدي خلق غير قادرة اطلاقاً على إحتلال بقعة من الارض بهذا الحجم والسيطرة عليها لفترة طويلة وان الأمر لم يعد كونه استعراضاً إعلامياً للقوة صممه العراقيون و"مجاهدي خلق" لأغراض سياسية ودعائية ربما بهدف كسر معنويات الإيرانيين أكثر وضععة شعبية النظام وقائده "الخميني" واجباره على قبول شروط

وقف اطلاق النار من خلال المحادثات الثنائية المباشرة التي كان يريد ان يفرضها على إيران ويرفضها "الخميني" او ربما لزيادة جرعات نشوة النصر التي كان يشعر بها بعد سلسلة الهجمات الناجحة. وهذا ما حصل فعلاً اذ لم يحل يوم 29 تموز/ يوليو 1988 حتى كان مقاتلو "مجاهدي خلق" ينسحبون الى مدينتي "إسلام آباد غرب" و"كرند" الحدوديتين ثم ينسحبون الى داخل الأراضي العراقية بعد أيام قليلة من ذلك بعد ان خسروا أعداداً كبيرة من جنودهم ربما وصل الى 4500 مقاتل كما ذكرت البيانات الرسمية الإيرانية.

*

في خطابه بمناسبة الذكرى العشرين لإستيلاء "حزب البعث" على السلطة يوم 17 تموز/ يوليو 1988 بدا "صدام" منتشياً بطعم الانتصارات العسكرية التي تحققت منذ تحرير "الفاو". قبل القاءه خطابه كان قد تم الإعلان عن قيام القوات العراقية بإستعادة معظم المناطق الجبلية في المنطقة الكردية ومن بينها آخر المواقع التي كان يحتفظ بها الإيرانيون أو التي كانت تحت سيطرة المقاتلين من

الأحزاب الكردية العراقية المتحالفين معهم. كانت المرة الأولى التي توزع علينا وزارة الإعلام نسخة من الخطاب قبل القاءه مساء نفس اليوم على أساس بثه متزامناً مع موعد اذاعته. كانت كل كلمة في الخطاب تهدف الى التركيز على معاني انتصار العراق العسكري في الحرب ولكنه كمن يدرك تماماً ان الإنتصار الناجز لم يكن في متناول اليد. بعد ان أكد على رغبة العراق في السلام الدائم والشامل مع إيران واضعاً ما أسماه خمسة شروط لذلك وهي وقف اطلاق النار والعودة الى الحدود الدولية وتبادل لأسرى الحرب والتوقيع على معاهدة سلام وعدم التدخل في الشؤون الداخلية وأخيراً العمل من اجل تحقيق السلام والأمن في المنطقة. في نفس الليلة كانت رسالة من الرئيس الإيراني "علي خامنئي" تسلم الى الأمين العام للأمم المتحدة "خافير بيرز دي كويلار" يعلن فيها قبول إيران بقرار مجلس الأمن رقم 598 الذي يدعو الى وضع نهاية للحرب بعد عام من صدوره في 20 تموز/ يوليو 1987 واثّر اجتماعات مكثفة للقادة الإيرانيين استطاعوا في النهاية اقناع "الخميني" بقبول القرار. ولم يكن بالإمكان تصديق الخطوة الإيرانية دون ان يخرج "الخميني" بنفسه على الملأ يوم 20 تموز/ يوليو 1988 لكي يعلن بنفسه قراره بالموافقة على القرار الأممي

شارحاً ذلك بأنه كان أشبه بتجرعه كأس السم، لكنه برره بأنه تم لمصلحة الثورة الإسلامية. في كلمته تلك قال "الخميني": "لقد كنا مصممين على نشر نفوذ الإسلام في العالم والتقليص من سيطرة الذين يريدون تفتيت العالم وإذا كان عبيد الولايات المتحدة يصفون ذلك بأنه توسعية فإننا لا نخشاهم ونرحب بما يقولون".

بعد ان استمع العراقيون الى خطاب "صدام" وبعده بأيام خطاب "الخميني" كان لسان حال أغلبهم ان لم يكن جميعهم هو لماذا اذاً كانت هذه الحرب اللعينة التي حصدت كل هذه الآلاف المؤلفة من أبناءهم ومن الإيرانيين ودمرت بلديهما، غير انها كانت مجرد همسات بعضها لم ينطلق حتى من صدور أصحابها. ومع ذلك حين أعلن في 8 آب/ أغسطس 1988 قرار "مجلس الأمن" الذي يضع الترتيبات النهائية لبدء وقف اطلاق النار وقبلها البلدان أحس العراقيون بأن نهاية الحرب أصبحت أخيراً حقيقة أكيدة فانطلقوا في إحتفالات من المؤكد ان العراق لم يشهد لها مثيلاً من قبل. استمرت الإحتفالات بضعة أيام كان العراقيون يخرجون فيها الى الشوارع والميادين يوزعون الحلوى والمرطبات ويرقصون ويغنون في بهجة ونشوة لم يمارسوها منذ سنين طويلة. وكما هي العادة في مثل هذه

المناسبات كان إطلاق النار من الرشاشات والمسدسات شيئاً عادياً
تعبيراً عن الفرح حتى ان العشرات من الأشخاص ماتوا بينما جرح
آلاف آخرين في إطلاق الرصاص الطائش الذي كان ينطلق من
البيوت والشوارع. ولم يدع "صدام" المناسبة تمضي دون ان يستغلها
لنفسه حيث خرج مرات عديدة في سيارته مرتدياً الملابس العربية من
عقال وغترة وسط الناس ملوحاً بيديه من وراء زجاج سيارته المدرعة
بينما أقام بعد أيام إحتفالاً في "ساحة الإحتفالات الكبرى" انطلق فيه
بملابسه العسكرية على حصان أبيض في مشهد أثار الكثير من
السخرية أكثر من الإعجاب الذي كان يتوقعه. وسط هذه الإحتفالات
العفوية وفرحة الناس العارمة بنهاية الحرب كان أهالي الشهداء الذين
سقطوا في آتونها هم الأكثر حزناً وغماً على فلذات أكبادهم الذين
شعروا في تلك الأيام انهم قضوا لا لشيء الا لكي يمتطي الآن الفارس
"صدام" حصانه الأبيض ويعلن نصراً مشكوكاً فيه دفع أولادهم ثمناً
غالياً له.

*

على غير العادة صحت هذا اليوم 5 آيار/ مايو 1989 في وقت مبكر. كان هناك هاجس ما وغريب في داخلي يشير الى ان اليوم لن يكون عادياً وان شيئاً ما اما وقع فعلاً أو في طريقه للوقوع. عندما فتحت الراديو كان صوت قارئ القرآن يأتي من إذاعة بغداد في ساعة متأخرة نسبياً عن موعد إفتتاح الإذاعة الذي عادة ما يكون بآيات من القرآن الكريم. حين انتهى القارئ جاء صوت المذيع بعد الساعة السابعة صباحاً بثوان خاشعاً تغلفه تلك الصبغة من الحزن المتصنع الذي طالما ألفناه في مناسبات الحداد الرسمي ثم بدأ مباشرة الإعلان عن بدأ نشرة الأخبار دون المقدمة الموسيقية المعتادة وبعدها بدأ يقرأ بياناً رسمياً يعلن عن موت وزير الدفاع "الفريق الأول الركن عدنان خير الله" في حادث سقوط طائرة هليكوبتر عازياً الحادث الى سوء الأحوال الجوية. في الليلة السابقة ظل التلفزيون يعرض لساعات طوال شريطاً مصوراً عن رحلة لـ "صدام" مع عائلته في المنطق الكردية الشمالية وبصحتهم "عدنان" الذي كان يقود سيارة "لاندروفر" في بعض مراحل الرحلة بين الجبال بينما يندمج "صدام" وزوجته "ساجدة" أخت "عدنان" وأبنه "قصي" في مشاهد من الفرح والغبطة التي بدت الى حد كبير إستعراضية وهدفها فيما يبدو إظهار التفاف شمل العائلة حول

"صدام". اكتفى البيان بخبر موت "عدنان" في الحادث دون تفاصيل أخرى فأسرعت الى المكتب أبث الخبر كما هو ودون أية محاولة لتحليل ماذا يعني الإختفاء المفاجيء لوزير الدفاع الذي خرج لتوه من حرب طالت ثماني سنين وحصدت معها أرواح مئات الآلاف من العراقيين وتركت أضعاف ذلك من الجرحى والمعاقين بدنياً ونفسياً. كان الجو فعلاً سيئاً في الليلة السابقة وربما لم يستطع "عدنان" الذي قيل انه كان يقود الهليكوبتر بنفسه من التحكم بالطائرة ولكن في عراق "صدام" لن يصدق أحداً أية رواية من هذا النوع مهما كان الشخص قريباً من "صدام" ومهما كان حجم الدموع الغزيرة التي سيذرفها "صدام" بعد قليل حين تقام له الجنازة. كان "عدنان" بحكم منصبه أيضاً كنائب للقائد العام للقوات المسلحة وعضو القيادة القطرية أقوى شخصية في العراق بعد "صدام" وبسبب خلفيته العسكرية كجندي محترف فأن علاقاته بقيادة الجيش كانت حسنة الى حد كبير مما منحه موقعاً مؤثراً في صفوفه وخاصة اثناء الحرب التي احتاج فيها "صدام" ابن خاله ونسيبه كي يكون وسيطاً بينه وبين قادة الجيش الذين لا يسهل قيادهم. في السنوات الأخيرة وجد "عدنان" نفسه وسط حلقة من باقي أقارب "صدام" يهيمنون على الجيش بشكل أو بآخر. ف"علي حسن

المجيد" ابن عم صدام هو القائد الفعلي للمنطقة الشمالية حيث يآتمر الجيش بأمره و"حسين كامل المجيد" ابن عم "صدام" وزوج ابنته هو وزير "التصنيع العسكري" والمشرف على شؤون الحرس الجمهوري و"كامل ياسين" شقيق زوج أخت "صدام" نائب مسؤول المكتب العسكري" للحزب المهيم الفعلي على شؤون الجيش وآخرين غيرهم وجميعهم من غير العسكريين المحترفين الذين منحهم "صدام" رتباً عسكرية يسيطرون من خلالها على المفاتيح الرئيسية للقوات المسلحة. في ظل وضع كهذا كان "عدنان خير الله" مجرد وزير باستطاعة "صدام" ان يغل يديه بأية لحظة ان لم يكن قد قيدها فعلاً منذ إنتهاء الحرب. كانت الإشاعات تملأ بغداد عن تدهور العلاقات بل والخلافات بين "عدنان" وبين "علي حسين المجيد" و "حسين كامل" الذين ظل ينظر اليهما بأستخفاف بسبب ماضيهما العائلي المتواضع قياساً بعائلته ورتبهما المتدنية في الجيش قبل ان يأتي بهما "صدام" الى قيادته. لم تتكشف أسباب حادث سقوط طائرة "عدنان" غير ان اختفائه كان مؤشراً واضحاً على ان واحداً من أقوى منافسي صدام أزيح من الطريق مما سيمكنه من تشديد قبضتيه على السلطة مثلما ستمكنه من شق طريقه من جديد نحو المزيد من المغامرات والحروب.

واحدة من القصص التي راجت دائماً هو ان "خير الله طلفاح" أبو "عدنان" وخال "صدام" لم يكن فقط التكريتي الذي قاتل طيلة حياته كي يأتي بالتكرارة الى السلطة، بل كان أيضاً صانع الملوك الذي أوصل "صدام" الى قمة السلطة عبر المؤامرات والتدبيرات التي كان آخرها إجبار "البكر" على الإستقالة عام 1979 لكي يفسح المجال لأبن أخته مما أيقظ في صدر "صدام" الشكوك في امكانية ان يأتي الدور عليه يوماً ما تماماً كما فعل "طلفاح" الأب مع "البكر" قبل عشر سنوات. من الواضح ان بقاء "عدنان" في واجهة السلطة كان سيؤدي عاجلاً أم أجلاً الى الصدام بينه وبين "صدام" اما بسبب الميول التي أظهرها "صدام" في المرحلة الأخيرة لتركيز السلطة بيده ويد ولديه "عدي" و"قصي" وحاشيته من أولاد عمه أو لأسباب تتعلق بطريقة تفكير وأسلوب اداء كل منهما. كنت رأيت "عدنان" أول مرة عام 1974 اثناء عملي في وزارة الإعلام حين كان لا يزال رائداً في الجيش وجاء ليستفسر عن مجلات عسكرية أجنبية يريد الإشتراك بها واندعشت من ان واحداً من أفراد العصابة التي تتحكم في البلد يبحث عن مصادر عسكرية أجنبية ليلطع عليها وبدا حينها ودوداً ومؤدباً على خلاف والده المعروف بفضاضته وقسوته. وفي المرات القليلة التي شاهدته

فيها اثناء المعارك أو المؤتمرات الصحفية التي كان يعقدها أثناء الحرب بدا متزناً وعسكرياً محترفاً يبتعد عن ضجيج المبالغات والتهرج الذي كان يصنعه قائد مثل "ماهر عبد الرشيد" في لقاءاته الصحفية. لو بقي "عدنان" حياً وفي مركزه ربما تغير الكثير في طريقة اداء النظام السياسية داخل العراق وخارجه استناداً للخبرات التي اكتسبها طيلة الحرب كوزير للدفاع وكونه الأقرب الى "صدام" في إمكانية التأثير عليه والحد من اندفاعه ومغامراته. البعض يذهب الى القول بان عدنان كان الخطر الأكبر الذي أدركه "صدام" حالما انتهت الحرب فكان ان تعامل معه سريعاً.

*

منذ نهاية الحرب مع إيران والتي أعلنها "صدام" نصراً مدوياً ليس له هو فقط على عدوه اللدود "الخميني" بل للعرب جميعاً على أعدائهم الفرس المجوس والتساؤلات تدور حول المسارات التي سيختارها الرئيس العراقي في تحديد سياسته الخارجية وخاصة الإقليمية في ضوء عاملين: التغيرات السياسية والنفسية العميقة التي أحدثتها

الحرب في المنطقة وظهور بوادر نهاية الحرب الباردة وإنهيار المعسكر الشيوعي الذي استغله "صدام" طيلة هذه السنوات في اللعب على التوازنات الدولية في المنطقة. عربياً وخاصة في منطقة الخليج كانت هناك مشاعرة ملتبسة، بل ومتناقضة حيث سجلت نهاية الحرب مشاعر إرتياح نظرا للتهديدات والمخاطر التي كانت تمثلها الحرب عكسرياً وأمنياً وسياسياً على أنظمة المنطقة ومجتمعاتها غير انها اشترت في الوقت نفسه الى تحديات جديدة يفرضها بروز العراق كقوة إقليمية هائلة مسلحة بجيش جرار ومجرب ومدعوم بانتصار عسكري باهر على أكبر دولة في المنطقة. ولم يمهل "صدام" جيرانه العرب كثيراً حين خرج عليهم بمفاجأة من العيار الثقيل حين طرح مشروع انشاء "مجلس التعاون العربي" كمنظمة جديدة في إطار العمل العربي المشترك. وفي مجال ترتيب الأجواء في المنطقة قبل طرح الفكرة رسمياً راح "صدام" وأجهزة إعلامه يهيئون المنطقة ودولها نفسياً من خلال سيل من التصريحات والإفتتاحيات التي تؤكد على ضرورة التضامن العربي ضد العدوان ونبذ التهديدات كما تؤكد على فكرة ما سماه "صدام" تعدد الخيم في البيت العربي الواحد. ولم ينتهي سيل التطمينات اللفضية هذه حتى اجتمع زعماء كل من الأردن ومصر واليمن في قمة

رباعية في بغداد يوم 16 شباط/ فبراير 1989 لكي يعلنوا إنشاء "مجلس التعاون العربي" الذي ذكرت اتفاقية تأسيسه انه يهدف الى تحقيق التكامل الإقتصادي سعياً الى إقامة سوق عربية مشتركة بين الدول الأعضاء، لكنها شددت أيضاً على الجانب الأمني حين قالت في ديباجتها : "وانطلاقاً من حقيقة ان زيادة الأمن والسلام والإستقرار في المنطقة بأسرها تتطلب تعزيز الوعي العربي بوحدة الأمن القومي ووحدة متطلباته وشروطه وترسيخه بالتعاون العملي والتنسيق والتضامن" مما يكشف عن حقيقة الهدف العراقي من تشكيل المجلس. كان انضمام الأردن الى المجلس شيئاً طبيعياً نظراً لإنحيازه الواضح مع العراق طيلة فترة الحرب واعتماد اقتصاده الكلي على العراق وخاصة بالنسبة للنفط العراقي الذي أصبح يأتي أغلبه مجاناً اضافة طبعاً الى عامل العلاقات الأردنية السورية المتأزمة وكذلك حسابات ومصالح وأهداف اردنية متعددة ومتشابكة لم يكن من اليسير حل طلاسما في تلك الفترة. اما مصر وبالرغم من نمو العلاقات العسكرية والسياسية والإقتصادية بينها وبين العراق طيلة فترة الحرب الا انه لم يكن يسيراً ايضاً فهم دوافع إنضمامها الى المجلس الذي لم يكن سينظر اليه بالتأكيد بعين الإرتياح من قبل كل من سوريا ودول الخليج التي

تقيم معها علاقات ممتازة. فالعراق كان يحول سنوياً حوالي 3 مليار دولار أمريكي عن أجور ومرتببات أكثر من مليونين من العمالة المصرية لديه بالإضافة الى مشترياته العسكرية والتجارية. كما ان مصر كانت لاتزال خارج الجامعة العربية التي طردت منها عام 1978 بسبب زيارة الرئيس "أنور السادات" للقدس وتوقيعه الصلح مع إسرائيل وربما كانت تريد ان تنفذ من جديد الى النظام العربي عبر عراق صدام. لكن كل ذلك لم يكن مبرراً واضحاً للدخول في مغامرة لم تكن مضمونة النتائج سيكشف عن بعض ملابساتها الرئيس "حسني مبارك" فيما بعد. اما بالنسبة لليمن الشمالي فقد جاء تشكيل المجلس في الوقت الذي كانت تسعى فيه الى الوحدة مع "اليمن الجنوبي" وتحاول تفادي الضغوط التي شكلتها "المملكة العربية السعودية" لمنع الوحدة إضافة الى حاجة اليمن الى الدعم الإقتصادي الذي وعدت به اتفاقية المجلس. وعموماً فقد كان للدول الثلاث بعض المخاوف أو الهواجس تجاه "السعودية" ودول "مجلس التعاون الخليجي" التي ربما شكلت مبرراً آخرّاً للإنضمام الى هذا التكتل الذي عمل "صدام" على اقامته بإصرار وقوة. عندما أتيح لمجموعة من الصحفيين من الدول المشاركة والمراسلين، وفي حدث نادر في العراق، حضور احدى

جلسات القمة الرباعية في "قصر المؤتمرات" حانت لي فرصة ان أرى "صدام" عن قرب واتمعن في وجهه محاولاً استغلال الوقت القصير لإستقراء شخصية هذا المخلوق الذي بدا أمامي مثيراً للرعب أكثر من أية مشاعر أخرى كان من المتوقع ان يثيرها في مشاهديه. في كلمته الى القمة قال "صدام" من بين أشياء أخرى "اننا في العراق نؤمن بان التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى بوجه عام وبين العرب بصورة خاصة من شأنه ان ينخر جسد الأمة ويباعد بين أبنائها بعد ان يخلق الفرقة والعداوة والضعينة والبغضاء بينهم." وفي اشارات ربما لم تفهم دلالاتها من قبل مستمعيه حينها أو ربما فهموها بالشكل الذي يحلو لهم أضاف "صدام" : "على كل من كانت ثروته أكبر ان يتذكر كل هذا ويتذكر ان واجبه القومي يجعله مطالباً أكثر من سواه بمساعدة أشقاءه العرب من غير منة." بعد انتهاء الجلسة انتهزت فرصة تجمع بعض الصحفيين المصريين والأردنيين حول "صدام" لكي اقترب منه أكثر فطرحته عليه سؤالاً جاء على خاطري فجأة عن الهدف من إقامة المجلس. نظر الي بعينين ثاقبتين ثم ألقى علي محاضرة عن ضرورة التضامن والتعاون بين العرب ثم عرج على ان المجلس سيكون أداة لتحقيق التكامل الإقتصادي. ولكن هل كان حقاً ذلك هو هدف "صدام"

من الدعوة لإنشاء المجلس الذي تتكون دوله من حوالي 80 مليون نسمة تحيط إحاطة السوار بالمعصم بـ"المملكة العربية السعودية" ودول الخليج التي تمتلك أغلب موارد النفط واحتايطاته العالمية؟ لو نظر أي أحد في الغرب يومها الى الخارطة واسترجع قليلاً من تاريخ المنطقة لأدرك على الفور مالذي كان يريده "صدام" ويخطط اليه. ولقد انتظر الرئيس المصري "حسني مبارك" أربعة عشر عاماً لكي يكشف في كانون الثاني عام 2003 بان "صدام" كان قد فاتحه اثناء المشاورات التي سبقت القمة برغبته في توحيد أجهزة المخابرات في بلدان المجلس اضافة الى تعاون عسكري بينها يشمل إرسال بعض الوحدات العسكرية المصرية الى العراق. حينها، قال "مبارك" انه رفض الفكرة الا انه لم يتيقن من أهدافها الا بعد غزو "الكويت" بعد عام واحد حين أدرك ان تلبية طلب "صدام" كان سيعني توريث "مصر" في غزو "الكويت"، بشكل أو بآخر، بمجرد وجود قطعات عسكرية لها في العراق، أو بالأقل جعلها تغض النظر عن ذلك.

*

في 9 تشرين ثاني/ نوفمبر 1989 سقط "سور برلين" في هبة شعبية عارمة من الألمان على طرفي الجدار لتحطيم الهيكل الذي ظل على مدى حوالي ثلاثة عقود رمزاً لا لتقسيم ألمانيا أو حتى أوروبا، بل لتقسيم العالم برمته الى معسكرين وعالمين. حين سارور "برلين" بعد ذلك بست سنوات سأحرص على زيارة السور الذي لم يتبق منه الا جزء صغير وسأحتفظ بقطعة منه معي أنظر اليها كل يوم بانتظار سقوط صدام. كان نظام "صدام" لسنوات طويلة يعيش مثله مثل معظم الأنظمة الشمولية في العالم الثالث على تناقضات الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي الرأسمالي والشرقي الشيوعي لكن بدء تفكك المنظومة الشيوعية الذي بدأ مع سياسات "الغلاسنوت" و"البرسترويكا" التي أطلقها الزعيم السوفيتي "ميخائيل غورباتشيف" وتوجت بسقوط الجدار أفقد "صدام" لعبة الحليف الإستراتيجي الذي كان يجده في معسكر موسكو وكشف عورات كثيرة للنظام. على المستوى الأيديولوجي تعرى النظام تماماً حيث أنهارت الشمولية كفكرة ونظام وثقافة وانتصرت فكرة الحرية والديمقراطية والتعددية وعلى المستوى السياسي أصبح النظام من غير حليف يرتكن اليه للحصول على

الدعم والسلاح حيث يقود النظام الدولي الجديد كما بدأ يطلق عليه الرئيس الأمريكي "جورج بوش" الأب (1989-1993) قطب واحد هو أمريكا التي لن يستطيع "صدام" بعد الآن مواجهتها معتمداً على لعبة التوازنات بين القطبين. كان "صدام" يرى إنهاء الإتحاد السوفيتي والمعسكر الشيوعي ويشعر بالقلق والخوف من قوة المثال الذي يشكله هذا الإنهيار لكنه مع ذلك لم يستطع ان يفهم ويستوعب النتائج التي يمكن ان يتركها خلو الساحة الدولية من أي لاعب أساسي أمام الولايات المتحدة زعيمة الغرب التي خرجت توها منتصرة في أهم حروبها في التاريخ، الحرب الباردة. فقد أمر "صدام" مثلاً عرض فلم الفيديو عن اعتقال ومحاكمة وإعدام الديكتاتور الروماني "نيكولاي شاوشيسكو" على أعضاء "حزب البعث" بهدف تذكيرهم انهم جميعاً في مركب واحد معه وبمصيرهم الذي ينتظرهم اذا ما أرخوا قبضتهم على الدولة والمجتمع. لكنه في الوقت ذاته فشل في إدراك ان اختفاء الإتحاد السوفيتي يعني ان الدائرة ستدور عليه وعلى أمثاله عاجلاً أم آجلاً، بل انه تمادى الى الحد الذي ربما يكون قد تصور فيه انه القطب الآخر الذي حل محل الإتحاد السوفيتي الآن وعلى أمريكا ان تتعامل معه على هذا الأساس. في 28 شباط/ فبراير 1990 قررت

الحكومة الأمريكية إلغاء أئتمانات القروض الأمريكية البالغة حوالي 500 مليون دولار للعراق مذكرة اياه بان عليه ان يختار بينها وبين طريق مواجهتها. في مكان آخر غير عراق "صدام" كان يمكن ان يكون ذلك درساً بليغاً عن كيفية التصرف في العالم الجديد الذي تقوده أمريكا وتسعى فيه الى فرض هيمنتها عليه. لكن في عراق صدام الخارج "منتصراً" من حرب الثماني سنوات كان الخيار واضحاً وأكيداً، البحث عن أم المعارك لخوضها مع أمريكا.

(2)

"كنا جميعاً مقتنعين باننا ندافع عن
وجودنا، ولم أكن وحدي التي خدعت، بل
وقعنا كلنا في ذلك الشرك ومعنا دول كبرى
وساسة أكبر خبرة مني، فقد خدع رجال
السياسة كما خدع رجل الشارع العادي."
(سعاد الصباح)

صباح 15 آذار/ مارس 1990 كانت سماء بغداد صافية وجوها
رائقاً حيث تستعد المدينة لإستقبال فصل الربيع الذي سيطر عليها بعد
أيام. لم أكن أنوي الذهاب اليوم الى الإجتماع الذي تعقده نقابة
الصحفيين فاجتماعات النقابة كلها متشابهة ومثيرة للضجر فهي
ليست الا منبراً للنفاق الذي تمارسه الزمرة الحزبية المهيمنة عليها مع
المنتفعين لكن هاجساً ما دفعني الى الذهاب الى قاعة "دائرة السينما
والمسرح" حيث يعقد الإجتماع خاصة وان اشاعات كانت قد راجت بان

"عدي صدام حسين" هو المرشح لمنصب نقيب الصحفيين مما جعل الموضوع يبدو مسلياً بقدر ما هو مأساوي في النتيجة المتوقعة. عندما بدأ وزير الإعلام "لطيف نصيف جاسم" كلمته كان الكثير من الصحفيين العراقيين قد غادر القاعة الى البهو الأمامي يتبادلون الحوارات الجانبية وربما همساً أيضاً القفشات حول ما يمكن ان يقوله الوزير المعروف بالحدة والشراسة، من جهة، وبالفجاجة والركاكة، من جهة ثانية. كنت في البهو عندما أطل علي زميلي في وكالة الأنباء الفرنسية "فاروق شكري" لكي ينبهني الى ان الوزير انتقل من الحديث التعبوي وهي مهمته المكلف بها والتي يحلو له ان يمارسها بولع وشهية في مثل هذه المناسبات الى الحديث عن الصحفي الإيراني الأصل "فرزاد بازوفت" الذي يعمل في جريدة "الأوبزرفر" اللندنية والذي كانت أجهزة المخابرات العراقية قد ألقت القبض عليه منذ أسابيع بتهمة التجسس لصالح المخابرات البريطانية. عندما دخلت القاعة كان الحماس قد أخذ مأخذه من "جاسم" بكيل التهم ضد "بازوفت" وبريطانيا والتي ظلت أجهزة إعلامه بترديدها منذ القاء القبض عليه ولكنه سرعان ما فجر بتعبيرات الصحافة قنبلة خبرية حينما أعلن عن تنفيذ حكم الإعدام بـ"بازوفت" صباح نفس اليوم وان جثته سترسل الى

لندن لاحقاً. وفي تحدٍ صارخ وشخصي موجه لرئيسة الوزراء البريطانية "مارغريت ثاتشر" من المؤكد انه كان بتوجيه من "صدام" أعلن "جاسم" بتفاخر "لقد أرادته حياً ولكننا سنرسله لها في صندوق خشبي." بلغة الصحافة كان ذلك اقتباساً أو قولاً مدوياً في أي خبر يمكن ان تنقله أسلاك الأثير. ما ان انتهى "جاسم" من كلمته حيث انتظرت قليلاً كي لا يفوتني شيء آخر قبل ان اسرع في المغادرة وخلال أقل من نصف ساعة كنت عائداً الى مكتب الوكالة مرسلأ الخبر وفي بضع دقائق أخرى كان الخبر يضرب الشرائط على ماكنات الإستلام في صحف واذاعات العالم متصدراً نشرات أخبارها. كان "بازوفت" قد اعتقل بالقرب من مصانع الأسلحة الكيماوية في "الإسكندرية" جنوب غربي "بغداد" مع ممرضة ايرلندية تعمل في بغداد وهو يحاول كما ادعت الأجهزة العراقية تصوير المنشآت المحظورة مما اعتبرته "بغداد" محاولة تجسس على المصانع العسكرية العراقية. ومنذ اعتقاله وعرض اعترافات له على شاشة التلفزيون العراقية يقر فيها انه جند من قبل المخابرات البريطانية للتجسس على العراق والعلاقات العراقية البريطانية تتدهور حتى وصلت الى مستوى متدني من التهديدات والشتائم يتبادلها مسؤولو البلدين، بل ان الأمر وصل

الى ان تشن "ثاتشر" حملة شخصية على "صدام" ذاته بإسلوب يتسم بالتجريح وكأنها تقصد ان تستفزه لكي يخطو الخطوة المرجوة ويرسل "بازوفت" الى المشنقة لكي تنال مبرراً لخطوات لاحقة ربما كانت تخطط لها. قصة "بازوفت" هذه بحد ذاتها كانت محيرة وتتسم ببعض الغرابة اذ ان الصحفي المذكور كان شاباً قليل الخبرة ويتسم بالمغامرة والإندفاع رأيته مرات قليلة قبلها وهو يزور جبهة الحرب العراقية الإيرانية مع صحفيين أجانب كانوا عادة ما يأتون لتغطية المعارك التي تدور على الجبهات. كان التساؤل الذي يرد بخاطري هو لماذا ترسل صحيفة بريطانية عريقة كـ "الاولبزرفر" صحفياً إيراني الأصل والمنشأ وشاباً يافعاً لا يمتلك الكثير من الخبرة للعراق لتغطية الحرب وكيف سيثق العراقيون به في الوقت الذي كانت السلطات العراقية تمنع أي جندي عراقي يشك في أصوله الإيرانية من الخدمة في هذه الجبهات خشية من عدم ولائهم أو نقلهم للمعلومات العسكرية للطرف الإيراني رغم ان ذلك كان مجرد شبهات من الصعب التحقق منها. ثم مالذي يدفع الصحيفة مرة اخرى ان تغامر بإرساله للعراق لكي يقوم بتحقيق عن المصانع العسكرية التي حصل فيها الانفجار والتي تخضع لحراسات ومراقبة مشددة. كان "بازوفت" قد أقنع الممرضة الإيرلندية

التي قادت السيارة بينما قام هو بإستطلاع المنطقة وربما أيضاً جمع عينات من ترابها بهدف القيام بتحليلها فيما بعد لتقرير نوعية المواد الكيميائية المصنعة هناك. هل كان مافعله "بازوفت" نزقاً وقلة خبرة يقوم بها صحفيون مغامرون يبحثون عن السبق الصحفي أم انها حالة تجسس أكيدة كما أصر العراقيون؟ في فترة لاحقة ذكر لي أحد الأصدقاء العراقيين الذي عمل في الدائرة الصحفية في سفارة العراق في لندن في تلك الفترة بان "بازوفت" كان "صديقا" لمحطة المخابرات العراقية في لندن وانهم ربما كانوا قد امدوه أحياناً بالمال كما سهلوا له الحصول على سمة الدخول كلما أراد السفر الى "بغداد". ما أوحى به كلام هذا الصديق هو ان "بازوفت" ربما تعاون أيضاً مع العراقيين في تزويدهم بمعلومات عن بريطانيا كما أوحى أيضاً انه ربما كان يوفر المعلومات لكل من يطلبها مقابل ثمن. وبغض النظر عن وضع "بازوفت" الذي راح سره معه في التابوت الذي بشر به "لطيف نصيف جاسم" رئيسة الوزراء البريطانية اليوم فان إعدامه وضع العراق على منعرج خطير في علاقاته ليس مع بريطانيا فقط بل مع الغرب عموماً والذي رأى في إعدام صحفي مهما تكن الأسباب عملاً همجياً لم تكن أي دولة متحضرة مستعدة لأن تقبله. المثير أيضاً في قصة "بازوفت"

ان "صدام" قد وقع اولاً وببساطة وغباء واضح في مصيدة كان يبدو انها تعد له فاعتقل "بازوفت" ثم سقط سريعاً في فخ الإستفزاز الذي مارسه "تاتشر" عليه فقرر إعدامه. كان "صدام" قد رفض مراراً وساطات دولية من شخصيات بعضها جاء اليه الى "بغداد" كرئيس "زامبيا" السابق "كنيث كاوندا" الذي نجح في اطلاق سراح الممرضة الإيرلندية لكنه أخفق في انقاذ "بازوفت". ما اكتشفته شخصياً أيضاً بعد الحرب كما نقل لي عن لسان صديق آخر كان رئيساً لفرع الإتحاد الوطني لطلبة العراق في بريطانيا أثناء الأزمة ان قيادين بعثيين من الذين كانوا يعيشون في بريطانيا كتبوا لـ "صدام" ينبهونه بعدم اعدام "بازوفت" ويحذرونه من انه فخ نصب له لتوريثه ودفعه لتأزيم الموقف من جهته. لكن "صدام" أثبت مرة أخرى انه ذلك الديكتاتور الذي لا يستوعب الدروس ولا يفقه ما يجري حوله ولا يستمع للنصائح.

*

في يوم 2 نيسان/ أبريل 1990 كان علي ان أحضر جلسة افتتاح مؤتمر لشخصيات إسلامية من بعض الدول العربية والإجنبية دعت اليه الحكومة العراقية للإعراب عن التضامن مع العراق ضد الحملة الغربية التي تصاعدت لهجتها بعد اعدام "بازوفت". كانت الصحف البريطانية والأمريكية قد بدأت تخرج كل يوم بأخبار وتقارير عن برامج التسليح العراقية بعضها ينقل لأول مرة تفاصيل مذهلة عن مواقع هذه المنشآت ونتاجها من الأسلحة الكيميائية والبايولوجية اضافة الى معلومات عن نشاطات البرنامج النووي في مابدا حملة منسقة لفضح هذه البرامج وتحريض المجتمع الدولي للضغط على العراق لتفكيك هذه البرامج. وسط هذه الحملة استقبلت وزارة الخارجية الأمريكية "جلال الطالباني" زعيم حزب "الإتحاد الوطني الكردستاني" في خطوة واضحة لإستفزاز "صدام" بينما شنت اذاعة "صوت امريكا" باللغة العربية هجوما لاذعاً على النظام العراقي بسبب اتهامات حول انتهاكات حقوق الإنسان. في ذلك الوقت هددت الإدارة الامريكية بوقف ضمانات القروض الزراعية التي كانت تقدمها واشنطن كمساعدة في استيراد العديد من السلع الغذائية التي يحتاجها العراق من السوق الأمريكية. كل ذلك زاد من حدة التوتر في العلاقات بين العراق والغرب وخاصة

الولايات المتحدة وحفز "صدام" بالرد بالهجوم اللاذع على واشنطن والدعوة الى سحب قواتها من منطقة الخليج بينما بدأت الصحف العراقية بشن حملات يومية خاصة ضد بريطانيا والولايات المتحدة وتتهمهما بتنفيذ مؤامرة هدفها القضاء على مسيرة التقدم العلمي والتكنولوجي في العراق في إشارة الى البرنامج النووي وبرامج التصنيع العسكري المختلفة. ما حدث قبل أيام من انعقاد المؤتمر الإسلامي نقل الأزمة الى مستوى مقلق حيث قامت سلطات الكمارك في مطار "هيثرو" في لندن بايقاف شحنة مرسلة الى "بغداد" والكشف بانها تحتوي على صواعق تفجير للأسلحة النووية مهربة من أمريكا. لم يكن مدرجاً على جدول الأعمال ان يحظر "صدام" ذلك المؤتمر كما لم يكن هناك ما يدل على أية استعدادات استثنائية على ذلك في القاعة الكبرى لمركز المؤتمرات، بل ان "عزت ابراهيم" نائب "صدام" بدأ فعلاً بإلقاء الكلمة الافتتاحية ثم أعقبه عدد من أعضاء الوفود الذين تباروا في الهجوم على الولايات المتحدة شعراً ونثراً. حينها بدأ عدد من حرس "صدام" ومرافقيه يظهرون في القاعة بدون أية مقدمات ثم ما لبث "صدام" نفسه ان دخلها مفاجئاً المشاركين بحضوره وجلسه على المنصة الرئيسية حيث دعاه فوراً رئيس الجلسة القيادي السوري في

"حركة الأخوان المسلمين" "معروف الدواليبي" لإلقاء كلمة وسط دوي من تصفيق الحاضرين. شرع "صدام" بالحديث فوراً عن المؤامرة الأمريكية الصهيونية ضد العراق وخاصة محاولات نزع سلاحه غير التقليدي وبرامج تصنيعه ولكن لم تمض الا دقائق حتى أمسك "صدام" بجهاز صغير كان وضع امامه قال انه شبيه بالصواعق الكهربائية التي تم ضبطها في مطار "هيثرو" وراح يسخر من الحكومتين البريطانية والأمريكية لما سماه بالضجة التي أثرت حول الصواعق التي قال انها مستوردة لأغراض علمية من قبل "الجامعة التكنولوجية". غير ان الحماس أخذ يدب شيئاً فشيئاً في خطبة "صدام" ومن مكاني في القاعة الكبيرة كنت أشاهد "صدام" الذي بدا في فورة من الغضب وأحس وهو لا يزال ممسكاً بالصاعق بين سبابة وإبهام يده على وشك ان يضغط عليه لكي يفجر القنبلة في القاعة والتي جاءت فعلاً على شكل تصريح قال فيه: "ان العراق سيستخدم الكيماوي المزدوج لحرق نصف إسرائيل" اذا ما هاجمته الدولة العبرية. لم يتوقف دوي التصفيق في القاعة التي اكتضت بأشخاص متنوعين في عمائم ولباسهم وجاءوا من بلدان بعيدة لدقائق عديدة بينما التمعت عينا "صدام" بالغضب وكأنه على وشك اصدار أوامره لتنفيذ تهديده. تسألت مع

نفسي حالما انتهى "صدام" من خطابه لماذا يقول "صدام" انه سيحرق نصف إسرائيل وليس كل إسرائيل وماذا يعني بذلك، ثم هل هو فعلاً قادر على تنفيذ تهديده وهل يعي نتائج التهديد وكيف سيستخدم ضده؟ عندما بعثت بالخبر أحسست اني أقف مرة جديدة على عتبة حدث آخر مثير، فمن ناحية، شعرت كصحفي بلحظات مثيرة تتعلق بمتعة العمل لأنني شاهد على صنع التاريخ، ومن ناحية ثانية، كنت أشعر بالقلق عما تخبئه الأيام القادمة لهذا البلد الذي يدفعه رئيسه مرة أخرى لكارثة جديدة. خلال الأيام التالية كنت ازيد التمعن في ما يجري وأرى ان غيوماً داكنة تتجمع في أفق العراق تتعدى مجرد كونها أزمة عابرة خاصة انها تأتي وسط تقارير تتواتر عن قيام الولايات المتحدة بتعزيز إمكانيات "القيادة الوسطى" التي انشأت منذ سنوات لتكون قوة أميركا الضاربة في الخليج والشرق الأوسط كما عين لها الجنرال "نورمان شوراسكوف" قائداً عاماً وبدأ يجري أول تمرين عسكري لهذه القوات كان العراق فيه العدو المفترض.

*

في ساعة متأخرة من مساء 11 نيسان/ أبريل 1990 اتصل بي "معن عريم" مدير العلاقات في وزارة الإعلام ليبلغني بضرورة الحضور الى مبنى الوزارة في الساعة الثامنة صباح اليوم التالي. تعددت الاسأل عن السبب اذ من تجاربي السابقة منذ عملي كمراسل صحفي كان من العبث البحث عن إجابة فالجواب يأتيك من صغار الموظفين عادة باننا لا ندري وانه طلب اليهم الإبلاغ فقط. لكن عموماً قدرت ان الأمر لا يخلوا من سبب واحد من اثنين فاما انهم غاضبون من موضوع ما كنت قد كتبتة وبثته الوكالة وهناك من لم يعجبه ويريد لومي وتقريري عليه أو ان هناك نشاطاً ما كمؤتمر صحفي أو رحلة تنظمها الوزارة الى مكان ما وعادة ما يحيطون هذه الأمور بسرية حتى اللحظة الأخيرة. في الصباح كنت في مبنى الوزارة وأخبرت ان أذهب الى حيث يتجمع المراسلون وكان ذلك بعد ذاته أمراً مريحاً أزال عني القلق من ان يكون الأمر لشأن يخص تقاريري الصحفية. حين ذهبت لاحظت انهم يجمعون المراسلين في صالة خاصة بالوزير "لطيف نصيف جاسم" وهي إشارة على ان الأمر لا بد وان يكون مهماً بأهمية المقام الذي نحن فيه. سرعان ما ظهر الوزير بنفسه الا انه بدا مشغولاً أكثر بترتيب شيء ما مع مساعديه أكثر من كونه مستعداً

للحديث الى المراسلين الذين زاد عددهم بعد ذلك. في مثل هذه الحالات تبدأ الأسئلة وفي غياب أي جواب تتحول الى لعبة التخمينات عما عسى ان يكون السبب وراء تجميعنا دون ابلاغنا بسبب واضح لذلك. لم يمض وقت طويل حتى ظهر عدد من ضباط القصر الجمهوري في القاعة مما أثار لدى المراسلين مزيجاً من القلق والإثارة وبعد حوار قصير بينهم وبين الوزير اقترب "جاسم" الى المراسلين وبكلمة بدت امراً اكثر مما هي طلباً أشار اليهم بالذهاب مع الضباط. لحظات تحول فيها القلق والإثارة الى أكثر من حيرة وتوجس وربما خوف. مالذي يجري لكن لا أحد الآن يجراً على السؤال ولا أحد يتبرع للتوضيح. عندما أشاروا الى كل ثلاثة منا ان يركبوا احدى سيارات المرسيديس السوداء التي كانت واقفة أمام مبنى الوزارة كان التوجس والخوف قد بدأ يخف لكن الحيرة ظلت في داخل كل مراسل لم يجراً لحد الآن على الإستفسار الى أين نحن ذاهبون. طبعاً كان من التهور والغباء ان يحاول أحدنا سؤال السائق عن وجهة القافلة من سيارات المرسيديس السوداء التي اخذت تنهب الأرض بعد ان انعطفت بعد قليل من بدأ الرحلة الى الشارع المؤدي الى المطار الدولي. أثار وصولنا الى قاعة الشرف الكبرى الكثير من الراحة النفسية حيث لم يكن أمامنا الا

الإفتراض بان ضيفاً كبيراً في طريقه الى الوصول واننا سنغطي وصوله. لكن الأمر بدا غريباً أيضاً اذا ان ذلك لم يحصل من قبل وعادة ما تتم مراسيم استقبال الرؤساء بشكل فيه الكثير من السرية والتحفظ. كنت أعبت بذاكراتي عليها تنجديني في تخمين الزائر عندما شاهدت السفارة الامريكية "أبريل غلاسبي" وحفنة من الدبلوماسيين الأمريكيين في جانب من الصالة. هل سيكون الرئيس "جورج بوش" هو الزائر المنتظر ونحن هنا لتغطية استقباله؟ سؤال ساذج لكنه كان يليق بلحظات العبث تلك. أخذوا السفارة والدبلوماسيين سريعاً الى مكان بعيد عن الصحفيين. لم تمض الا دقائق حتى طلبوا منا التوجه الى طائرة من طائرات "البوينغ 737" كانت جاثمة على أرض المدرج القريب حيث كانت السفارة وطاقمها قد أخذوا أماكنهم في مقاعد الدرجة الأولى. أخذنا أماكننا نحن المراسلين في مقاعد الطائرة والتي لم يمهلنا الطيار طويلاً قبل ان يشعل علامات ربط الأحزمة واطفاء السجائر وانطلق بنا دون ان يذكر كما هي العادة وجهة الطائرة. الآن بدا الأمر سوراليا ومثيراً للضحك عدا انك لا تستطيع فعلاً ان تطلق تلك الضحكة المكتومة في داخلك. ما ان أخذت الطائرة مسارها في الجو وهي محلقة حتى حاولت من خلال تتبعي لقرص الشمس ان

اتبين وجهتها فخمنت انها تطير باتجاه الشمال. قلت لزميل جلس بقربي اننا نتجه شمالاً فمازحني بقوله حسنا اذن انهم يتوجهون بنا الى المصايف الشمالية في رحلة للراحة والإستجمام ربما هدية من الحكومة. لكن ماذا عن السفيرة؟ سألته. قال مازحاً ثانية ان الرحلة لها ونحن فقط سنغطي نشاطاتها اثناء ذلك. سألت أحد المضيفين، متى نصل. أجابني بسرعة، الى أين؟ ايقنت ان المحاولة فاشلة واستسلمت الى اللاجدوى وانا أنظر عبر النافذة الى السماء القريبة من حولي. عندما بدأت الطائرة بالهبوط بعد أقل من ساعة لم يُلق الطيار بتعليمات الهبوط أو يذكر في أي مطار كانت طائرته تحط غير ان الأمر لم يحتج سوى الى دقائق حتى ادركت اننا في مطار الموصل الذي سبق ان نزلت به مرات عديدة. من المطار الى الحافلات التي كانت مستعدة على المدرج لأخذ المراسلين دون الدبلوماسيين الأمريكيين والى فندق "آشور/ اوبروي" ثم الى قاعة في بهو الفندق والتي أغلقت أبوابها علينا وعلى عدد من الحرس الذين صاحبونا في الرحلة. عادت الإثارة الى المشهد من جديد. من يجرأ على السؤال؟ مرت ساعة، ساعتين، ثلاث ولا احد يفتح باب القاعة أو يتبرع لك بمعلومة عما يجري ولماذا نحن هنا. فجأة تفتح الأبواب.

هلموا، قيل لنا وبسرعة. الى اين، الى ماذا؟ لا من مجيب. على السلم الواسع القريب كان هناك "طارق عزيز" ينزل ومعه مجموعة من الأشخاص الأجانب سرعان ما لمحت من بينهم الشخص الذي ينزل بجانبه والذي بدا لي انه السناتور الأمريكي "روبرت دول" زعيم الجمهوريين في الكونغرس. مثل كومبيوتر تسارعت في ذهني أحداث الأيام الأخيرة ذات الصلة بالتوترات بين العراق والولايات المتحدة وحاولت الربط سريعاً بين نقلنا الى الموصل بهذه الطريقة وبين ما أشاهده أمامي الآن وبين تلك الأحداث واستنتجت سريعاً اننا هنا لكي نغطي لقاء "صدام" مع وفد الكونغرس الذي يرأسه "دول". فجأة رأيت نفسي أمام "دول" وجها لوجه اسأله كيف كانت مباحثاته مع الرئيس "صدام حسين"؟ أجاب "دول" جواباً عاماً بان الولايات المتحدة تسعى لبناء علاقات جيدة مع العراق وانه سينقل الى الرئيس "بوش" ما سمعه من "صدام". ولكن مالذي سمعته من الرئيس، سألته. رسم "دول" ابتسامة خفيفة ومضى دون تعليق. بعد توديعه لـ "دول" على باب الفندق عاد "عزيز" الى الصحفيين وبدأ بامطارنا بتصريحات انصبت جميعها على ان هناك مؤامرة أمريكية صهيونية تريد إيقاف المسيرة العلمية للعراق وكان يعني بذلك الضغوط حول برامج التصنيع

العسكري والبرنامج النووي. سألتها ماذا بحثتم يا سيادة الوزير مع الوفد الأمريكي، لا جواب أيضاً غير إعادة الكلام بصيغ أخرى. في الطائرة التي عادت بنا الى بغداد بعد ذلك لم أجد بدا من المغامرة والتحدث مع أحد الدبلوماسيين الأمريكيين في بغداد الذي اعرفه وأسأله عما يجري وكيف وصل الوفد الى الموصل دون سابق اعلان. قال انها كانت مفاجأة لهم بقدر ما هي لنا نحن الصحفيين لكنه تحت الحاحي شرح لي كيف ان "دول" كان في القاهرة في اجتماع مع الرئيس المصري "حسني مبارك" قبل يوم حيث كان التوتر مع العراق واحتمال ان يفرض الكونغرس عقوبات على بغداد جزءاً من مواضيع النقاش حين اقترح "مبارك" على "دول" ماذا لو ذهب مع الوفد الى العراق واستمع من "صدام" شخصياً ما دام هو في المنطقة؟ وبعد مشاورات اجروها من خلال التلفون مع الرئيس "بوش" تم ترتيب الزيارة بهذه السرعة للقاء "صدام" الذي كان يقضي أياماً في قصره الجديد في الموصل المطل على الفندق. شجعتني كلام الدبلوماسي الذي لم يحضر المقابلة مع صدام ان اذهب مباشرة الى السفارة "غلاسبي" وان اسألها عن المباحثات وديبلوماسية متوقعة قالت المهم ان "دول" وباقي أعضاء الوفد طمأنوا الرئيس الا نوايا مسبقة لدى

الإدارة الجمهورية ضد العراق وانهم يحاولون ايجاد حلول لقضايا الخلاف. سألتها وهل بدا "صدام" مطمئناً؟ ابتسمت بطريقة وكأنها تقول يا ليت كنت استطيع ان افهم "صدام" أو ان أحزر ما الذي يفكر به لكنها قالت بالعربية هذه المرة: "ان شاء الله"، ولم تشأ ان تسترسل.

*

كان يوم 28 آيار/ مايو 1990 يوماً صاخباً في بغداد حيث ملوك ورؤساء من خمسة عشر بلداً عربياً ووزراء من بلدان أخرى لبوا دعوة "صدام" الى قمة عربية استثنائية دعا اليها الرئيس العراقي لمناقشة التهديدات التي يتعرض لها العراق. سوريا ولبنان قاطعتا القمة التي حضرها الرئيس مبارك في أول مشاركة مصرية في قمة عربية منذ طرد مصر من الجامعة العربية في قمة بغداد عام 1978. اخرجت القمة اعلامياً وسياسياً كي تكون عرساً لـ"صدام" بكل المقاييس اذ هاهم الرؤساء العرب يفدون الى بغداد ملبين ليس دعوة "صدام" للقمة فقط، بل وأيضاً ما بدا له وما صورته إعلامه وكأنه مشاركتهم "صدام" في معركته الجديدة وهذه المرة مع الغرب وإسرائيل وليس مع إيران.

في الجلسة الافتتاحية صفق له هذه المرة الزعماء العرب وهو يردد تهديداته لإسرائيل محذراً إياها بأنها اذا ضربت أي دولة عربية بأسلحة دمار شامل فسيرد عليها بسلاح دمار شامل أيضاً. كان الخطاب منقولاً على الهواء وفي المركز الصحفي للقمة الذي افتتح في "فندق الرشيد" أمام "قصر المؤتمرات" كانت تصريحات "صدام" النارية تنقل مباشرة عبر أجهزة التلفون والفاكس والتلكس التي وفرتها وزارة الإعلام بكثرة الى مكاتب وكالات الأنباء وعبرها الى الاذاعات ومحطات التلفزيون والصحف لكي تنقل للعالم تحدي "صدام" وتهديداته النارية. بعد ان انهى "صدام" كلامه عن إسرائيل والمؤامرة الغربية بدأ يتكلم عن شيء آخر أذهل السامعين خارج المؤتمر كما بدا ذلك الذهول على وجوه الوفود التي كانت تدور حولها عدسات الكاميرات التلفزيونية لما احتواه من تلميحات. من بين ما قاله: "الأفضل لنا كعرب هو تجنب الطمع والضغائن والدسائس والإيذاء والتضامن في السراء والضراء في ما بيننا وان نكون صفاً وان تكون إمكاناتنا حالة واحدة." ومع ان الزعماء العرب صفقوا لـ"صدام" أيضاً الا ان الذهول تفاقم حالما انزلوا أياديهم وربما سأل كل واحد منهم نفسه اذا ما كان قد أكل الطعم حتى قبل ان تبدأ القمة مناقشات جدول أعمالها. ما ان انتهت الجلسة

الأولى حتى بادرت الى من أعرفهم ممن كان حاضراً داخلها لكي أسأله عما جرى بعد انتهاء الجزء العلني من الجلسة. كان أحد أفضل مصادري داخل الجلسة صديق طلب منه ان يكون مترجماً للرئيس الجيبوتي "حسن جولييد" وبحكم انه كان يسجل ما يسمع فقد تمكن ان يدون تقريباً كل وقائع الجلسة كلمة كلمة كما أطلعني على مادونه في دفتر ملاحظاته. كان كل رؤساء الوفود الذين تكلموا يحاولون ان يلفطوا الأجواء بمداعبة نرجسية "صدام" وارضاء غروره، من ناحية، والوعد بالعمل على تخفيف حدة التوتر بينه وبين واشنطن، من ناحية ثانية. ذكرني ذلك بقمة بغداد الأولى قبل اثني عشر عاماً حين رأيت "صدام" وكان لا يزال نائباً للرئيس لكنه يرأس الوفد العراقي بينما كان الرئيس "أحمد حسن البكر" يرأس القمة، يواجه ضيوفه بتهديدات مبطنة مالم يوافقوا على قرار طرد "مصر" من الجامعة واستنتجت ان الحاضرين لابد وان وضعوا تلك الذكرى أمامهم وهم يحدثون "صدام" اليوم. المهم ان "صدام" حقق هدفه من القمة، أو هكذا تراءى له في أول جلسة لها اذ تمكن من وضع القادة العرب ودولهم خلفه في العربة التي يقودها بنفسه في المواجهة التي اختارها مع الغرب وحليفته الصهيونية. لم تكن القرارات التي ستصدر عن المؤتمر ما يهم صدام،

بل هو العرض الذي وفرته له القمة لكي يظهر أمام العرب والعالم بأنه زعيم العرب الذي لا يرد له طلب ويحسب له ألف حساب. لكن في ختام القمة أدرك "صدام" أنه لن يحصل من القمة على بيان ختامي يزكي ويبارك المواجهة التي يخوضها مع الغرب لذلك كان من الضروري قلب الطاولة على ضيوفه الذين بدوا له وكأنهم يريدون لجمه بدلاً من الإنضمام الى حربه الجديدة بعد أقل من سنتين على إنتهاء حربه مع إيران التي كانت قد أنهكتهم وشقت صفوفهم. في نهاية الجلسة الأخيرة للقمة وبعد قراءة البيان الختامي ضغط "صدام" على زر المايكرفون الذي أمامه وكان متوقعاً ان يقول كلمة قصيرة جداً بمثابة اختتام للقمة لكنه بدلاً عن ذلك أخذ بالحديث عن التضحيات التي قدمها العراق في حربه مع إيران من أجل العرب قاطبة ثم كيف ان بعض العرب قابل تضحيات العراقيين تلك ليس فقط بالجحود وعدم تقديم الدعم، بل ان البعض من العرب أخذ يزيد من انتاج النفط وضخه الى الأسواق العالمية مما سبب انخفاضاً هائلاً في الأسعار وبالتالي الحق الخسائر بالعراق الذي كان في حاجة لكل دولار يأتيه من النفط لسد احتياجاته لإعادة البناء. وفي تصعيد درامي في الكلمة التي كانت تبث على الهواء قال "صدام" ان تخفيض دولار واحد

في سعر البرميل يعني خسارة العراق لبليون دولار سنوياً. ثم في مشهد نادر الحدوث، مضى مهدداً وبكلمات قوية لكنها كانت تخرج من فمه بهدوء، بينما كاميرات التلفزيون العراقي تنتقل بين وجوه الوفود وخاصة الخليجية منها والتي بدا عليها الذهول، ليقول: "ان لصبر العراق حدوداً... وضرب الإغناق ولا ضرب الأرزاق". ولم يكتف "صدام" بالتلميح، بل ذهب الى التصريح فاختم كلمته بقوله: "لنقل ان الحرب تحصل أحياناً بالجنود ويحصل الإيذاء بالتفجيرات وبالقتل وبمحاولات الانقلاب وأحياناً بالإقتصاد.. لذا نرجوا من أخواننا الذين لا يقصدون الحرب... أعود لأتكم هذه المرة فقط ضمن حدود الكلام في اطار السيادة عن العراق فأقول ان الذين لا يقصدون شن الحرب على العراق .. اقول ان هذا نوع من الحرب على العراق.. وأقول اننا وصلنا الى حال لا نتحمل الضغط." مع كلمات "صدام" هذه كانت الكاميرا قد توقفت عند صورة الشيخ "جابر الأحمد" أمير الكويت وبها كانت القمة قد أوصلت رسالتها كاملة كما خطط لها "صدام". اما القرارات التي أُعلنت قبل دقائق والتي امتلئت بتعبيرات التضامن والتعاون العربي فقد تحولت بأسرع ما هو متوقع الى مجرد حبر على ورق.

*

لا حديث في الإعلام العراقي خلال الأسابيع الماضية الا عن المؤامرة الصهيونية الغربية التي تستهدف القضاء على البنية العلمية والصناعية للعراق وتركيعه. ورغم ان الجو التعبوي وثقافة الحشد التي درج عليه الإعلام العراقي منذ إستلام البعث للسلطة عام 1968 كانت تعتبر أمراً عادياً الا أن شيئاً ما بدا وكأن العراق على عتبة تطورات مثيرة. في الخارج كان العالم يفور بتطورات مذهلة تنهار فيها أنظمة وتتغير فيها الخرائط ويتشكل فيها العالم من جديد وفق صياغات جديدة. كان سور "برلين" قد سقط وبدأ المعسكر الشيوعي بالإنهيار، بل ان كبار المفكرين في الغرب وخاصة الولايات المتحدة بدؤوا يتكلمون عن نهاية التاريخ وهزيمة الشيوعية وبزوغ عصر البرالية. القيادة العراقية بدت في مسلكها العام قلقاً ومرتبكة وغير قادرة على التعاطي بشكل رصين مع الأحداث التي تدور حولها وفي العالم. فكرة المؤامرة هي المسيطرة على ذهنية القيادة العراقية والواضح انها تشعر بالتحدي لكنها غير مستعدة للمواجهة من خلال شروط اللعبة التي تفرضها تلك التحديات ولكن عبر تحديات ترميها مثل القفز في وجه الولايات المتحدة وحلفاءها الكثيرون ومنهم الدول العربية النفطية. تأتي عصبية القيادة العراقية أيضاً وسط تقارير صحفية عن خطة للجنرال

"شوارسكوف" تدعى "دفاع الجزيرة" وضعها للتصدي للعراق في حالة غزوه لبلدان خليجية. في يوم 15 تموز/ يوليو 1990 دعت بشكل مفاجئ الى مؤتمر صحفي لوزير الخارجية "طارق عزيز" في مبنى وزارة الإعلام. في صباح نفس اليوم طلعت جريدة "الثورة" بإفتتاحية صاخبة شنت فيها هجوماً لاذعاً على دولتين عربيتين لم تسمهما بالاسم قالت انهما يغرقان السوق بنفط رخيص مما يؤذي العراق. "عزيز" تكلم بعموميات عن المؤامرة التي يتعرض لها العراق وردد نفس اطروحات افترحية جريدة "الثورة" التي ربما كان هو كاتبها أصلاً. تقدمت من نهاية الطاولة حيث كنت أجلس قبل ان ينهي حديثه ويمضى وسأله بصوت عال من هما الدولتان المقصودتان وفوجئت انه اجاب دون تردد بانهما الكويت والإمارات العربية المتحدة. في نفس تلك اللحظة كان مندوب العراق لدى الجامعة العربية يتقدم بمذكرة بنفس المعنى الى "الشاذلي القليبي" الأمين العام للجامعة يتهم فيها الكويت بسرقة نفط العراق من حقول الرميثة الجنوبية. بعد ساعات من اذعة تهديدات "عزيز" كان السفير العراقي في واشنطن "محمد صادق المشاط" يقدم تطمينات الى "ديفيد ماك" مساعد وزير الخارجية بأن العراق لن يهاجم أي من جيرانه. اليوم بدا "صدام" يرسم خارطة صراعه

الجديد ويفرز أعدائه الجدد بوضوح- الولايات المتحدة الأمريكية ومعها بريطانيا اضافة الى إسرائيل ثم عرب النفط. كان "صدام" كمن يحفر قبره بيديه ولكنه قد يكون قبر العراق أيضاً.

*

في خطابه بمناسبة الذكرى الثانية والعشرين لإنقلاب 17 تموز/ يوليو مساء 16 / 7 / 1990 أخذ "صدام" تهدياته الى "أعداء العراق" خطوة أخرى أيعد وقال ان الفشل في إعادة حقوق العراق (يقصد تعديل أسعارالنفط) وحماية حقوقه يعني انه لا بد من عمل شيء ما للدفاع عن هذه الحقوق. وصف ذلك بانه "أسلوب وأدوات قتل واضعاف القدرة التي تحمي الكرامة والسيادة العربية" ومضى قائلاً " انه الأسلوب الجديد الذي ظهر من بين صفوف العرب والذي يستهدف قطع الأرزاق بعد ان تم تطويق الأسلوب الأول الذي كان ومنذ زمن بعيد يستهدف قطع الأعناق." لم يكن مثل هذا التهديد السافر ليمضي بالتأكيد دون تمعن ودراسة من قبل الأطراف المعنية وفي الواقع بعد ذلك التهديد بدا العالم كله معنياً بما يجري بين العراق وجيرانه. طبعاً كان السؤال الأول مالذي يقصده "صدام" بعمل شيء ما وهل ذلك مجرد ضغوط وتهويش أم ان الأمر سيتعدى الى ما هو أبعد من ذلك؟ شيء واحد بدا حقيقياً

لي وهو ان "صدام" اختار فعلاً ميدان صراعه القادم وهو جارته الجنوبية الصغيرة الكويت وليس إسرائيل التي هدد بحرق نصفها قبل ثلاثة شهور. وبقي السؤال الآخر هو شكل الصراع الذي سيختاره. في الذاكرة أيضاً ان حرب العراق مع إيران التي انتهت قبل سنتين بدأت بنفس الطريقة هجمات إعلامية وتحذيرات وتهديد ثم دوي الطلقات والقنابل على الحدود. وكان السؤال الأخير هو متى ستنتطلق المدافع؟

*

يوم 25 تموز/ يوليو 1990 التقى "صدام" مع السفارة الامريكية "ابريل غلاسبي". كانت السفارة على موعد مع "طارق عزيز" قبل يوم من سفرها لتمضية اجازتها السنوية بعد ان كانت تلقت من وزير الخارجية "جيمس بيكر" تعليمات لكي تستفسر من "عزيز" عن النوايا العراقية. فاجئها "عزيز" ماذا لو انهما معا ذهبا لمقابلة "صدام" في مكتبه في القصر الجمهوري. كانت "غلاسبي" ترتدي طاقماً أبيضاً يميل الى الأصفر وكأنها ذاهبة الى زيارة عائلية وكعادتها تعقد شعرها الذي يخطه الشيب الى الخلف وبدأت ضئيلة وهي تقف أمام "صدام" الذي

صافحها ثم دعاها للجلوس في المكتب الذي جلس فيه أيضاً "عزيز" وسكرتير "صدام" "حامد يوسف حمادي" ومرافقه المقدم "عبد حمود" والمترجم "سعدون الزبيدي". لقاء "صدام" مع "غلاسبي" جاء بعد فشل مفاوضات جرت بين نائب رئيس الوزراء "سعدون حمادي" ووزراء النفط في الكويت والإمارات والتي توسطت بها السعودية ودول أخرى. صيغة الخبر الذي اذاعه التلفزيون العراقي مساء اليوم تبين وكأن "غلاسبي" استدعيت ولم تطلب اللقاء مما يثير تساؤلات عما اذا كانت "واشنطن" مطمئنة من عدم تدهور الأوضاع في المنطقة. بعد غزو الكويت نشرت وسائل الاعلام العراقية ما قالت انه نص مقابلة "صدام" مع "غلاسبي" يكيل فيه الإتهامات للكويت بانها تقف وراء المشكلة كما يتهم الولايات المتحدة بالإنحياز للكويت التي يشرح للسفيرة الأمريكية انها جزء تاريخي اقتطع من أرض العراق. مما نشر أيضاً يتضح ان "غلاسبي" لم ترد على "صدام" سوى بعبارة فهم منها ان "ليس للولايات المتحدة سياسة معينة تجاه الخلافات الحدودية بين البلدين" وهو الأمر الذي فسر بعد ذلك بانه كان تهاوناً منها أعطى "صدام" الإنطباع بان الولايات المتحدة لن تمنع لو انه قام بغزو الكويت. لهجة الإعلام العراقي ضد الكويت أصبحت أكثر حدة وهناك

أنباء عن تحشدات عسكرية عراقية على الحدود الكويتية. نتيجة تحرياتي الخاصة يوم 21 تموز/ يوليو 1990 كان هناك حوالي فرقتين عسكريتين قرب الحدود إضافة الى فرق أخرى عند البصرة تم زيادتها بعد ذلك. هناك أيضاً حركة دبلوماسية وتحذيرات أمريكية ضد غزو الكويت منها رسالة من نائب وزير الخارجية "لورنس ايغلبريغر" في الوقت الذي تحذر المخابرات المركزية الأمريكية في 30 تموز/ يوليو 1990 ان الهجوم العراقي على الكويت أصبح وشيكاً. كذلك هناك زيارات يقوم بها مسؤولون عرب هذه الأيام لكل من العراق والكويت للوساطة لكن ليس هناك مايشير الى حلحلة أو نزع لفتيل الأزمة بينما كان بإمكان أي مراقب حصيف ان يرى ان هناك وميضاً متقدماً تحت الرماد. تجرأت وكتبت موضعاً عن أزمة مماثلة حصلت بين العراق والكويت عام 1961 عندما طالب رئيس الوزراء العراقي حينذاك "عبد الكريم قاسم" بالكويت واعتبرها جزءاً مسلوباً من الأرض العراقية. كان الموضوع نوعاً من القراءة في أحداث الماضي ولكنني كنت أريد ان أطرح السؤال هل يعيد التاريخ نفسه؟ لم اجد أي إعتراض أو شكوى من المسؤولين العراقيين على الموضوع ولكنني تلقيت استفسارات من العديد من السفارات العربية والأجنبية ومن مراسلين صحفيين خارج

العراق عما اذا كان الأمر سيصل الى هذا الحد فكان جوابي دائماً: ربما سيتعداه الى ما هو أكثر من تهديدات "قاسم".

من أهتم بالتقرير أيضاً السفير الكويتي في "بغداد" ابراهيم جاسم البحو" الذي طلبني بالتلفون عارضاً ان نتغدا سوية وغامرت بالقبول وطلبت منه اني ينتظرني في المكان الذي التقيته المرة الماضية تفادياً لما ستسمعه المخابرات التي كنت أعلم انهم يراقبون تلفوني وتلفونه. حين التقينا كان أول ما قاله هو ان الخارجية الكويتية طلبت منه ان يتأكد من الإحتمالات التي اثرتها في تقريري. أجبته انها كبيرة والمهم ليس التقرير الصحفي الذي كتبه بل الوقائع على الأرض والتحشديات التي تتم للقوات العراقية على الحدود. سألني هل سأكتب عن ذلك فأجبته بضحكة ثم قلت له لا فالحكمة في هذا العمل ليس كل ما يعرف يكتب او حتى يقال. فهم "البحو" المغزى من كلامي ولم أره بعدها الا بعد الغزو بأشهر وهو ينتظرني في بهو "فندق الرشيد" طالباً مني مساعدته في نقل رسالة الى الرئيس الفلسطيني "ياسر عرفات" كيف يساعد على أخراجه من العراق بعد ان أُعتبر مواطناً عراقياً.

*

بعد الساعة الخامسة بقليل من فجر يوم 2 آب/ أغسطس 1990
رن جرس التلفون في غرفة نومي وعندما يرن التلفون في هذه
الساعة فنادرأ ما يكون الخبر الذي يأتيك ساراً. على الطرف الآخر من
الخط كان صوت زميلي المحرر في مكتب الوكالة في نيقوسيا وبدون
مقدمات جائي صوته يقول ان هناك تقارير تشير الى دخول قوات
عراقية الى "الكويت" وربما هي الآن داخل العاصمة الكويتية نفسها.
رغم كل توقعاتي بإمكانية حدوث ذلك أذهلني ما سمعت فطيلة الأيام
القليلة الماضية كانت هناك وساطات عربية وبدأت الأمور وكأنها في
طريقها للحل خاصة وان اجتماعاً كان قد رتب له أمس في "السعودية"
بين وفد عراقي رأسه نائب "صدام" "عزت ابراهيم" ووفد كويتي برئاسة
ولي العهد "سعد العبد الله الصباح" في محاولة حل المشكلات بين
البلدين ودياً. التلفزيون العراقي الذي اذاع في ساعة متأخرة عودة
الوفد لم يعط أية تفاصيل غير ان لهجة الخبر لم تكن مطمئنة أو
مشجعة ومع ذلك ظننت حينها ان باب الدبلوماسية لم يغلق بعد.
فتحت الراديو على اذاعة بغداد، كان قارئ يتلو القرآن الكريم كما هي
العادة وحين انتهى من التلاوة بدأ المذيع يقرأ استعراضاً للبرامج وبدأ
كل شيء عادياً. غادرت البيت على الفور الى المكتب مدركاً ان ورائي

يوم طويل بل أياماً أطول. في الخارج كان الجو لا يزال ندياً حيث الشمس لم تزل ترسل أشعتها من الأفق الشرقي البعيد. المحلات لا تزال مغلقة والدوائر الحكومية لا يزال أمامها ربما ساعتين أو أكثر لكي تفتح أبوابها. غيرت طريقي باتجاه "علاوي الحلة" الميدان الذي يزدحم فيه عادة الجنود الذاهبون الى وحداتهم لكني لم أجد ما يشير الى شيء غير طبيعي. حتى وحدات الحرس الجمهوري التي مررت بها والتي تحرس مبنى الإذاعة والتلفزيون والقصر الجمهوري كانت تبدو في حالة طبيعية بينما كان الراديو لا يزال يبث برامجه الاعتيادية. رويداً رويداً كانت الشمس تشق طريقها نحو قلب السماء وكانت بغداد تصحو ومعها أهلها الذين بدأ العديد منهم يخرجون في طريقهم الى أعمالهم غير مدركين لما يجري من أحداث ربما ستغير مصيرهم بعد فترة قد لا تطول من الزمن. في المكتب أرسلت الى مقر الوكالة في قبرص عبر التلكس انطباعاتي ومشاهداتي عن الهدوء الذي يلف العاصمة العراقية وغياب أي خبر أو بيان أو تعليق حول الغزو الذي أخذت الإذاعات الأجنبية تورد أخباره من الكويت. قبل الثامنة بقليل قطع راديو بغداد برامجه وبدأ مذيع بقراءة بيان منسوب الى فئة من الضباط الكويتيين قامت بالثورة على نظام أسرة "ال صباح" وطالبت

بمساعدة عراقية فورية. كررت الإذاعة العراقية البيان عدة مرات قبل ان تلحقه ببيان آخر صادر هذه المرة من "مجلس قيادة الثورة" والذي يعلن تلبية العراق للنداء ثم بيان آخر يستدعي الإحتياط وبيان ثالث يستدعي وحدات "الجيش الشعبي" للخدمة. استمرت الإذاعة بإذاعة الأغاني وأناشيد حماسية وتعليقات تندد وتهاجم الأسرة الكويتية الحاكمة. أجواء الحرب سرعان ما تهيمن على شوارع بغداد والناس بدأوا يتجمعون حول أجهزة الراديو يسمعون بذهول وصمت ما تبثه الاذاعة من بيانات غير مستوعبين لحد الآن ما يجري. أنجزت بعض العمل قبل ان أنزل الى الشارع مرة اخرى. طلبت من صاحب محل البقالة المجاور ان يجهزني بأشياء عديدة من السلع الغذائية وبكميات كبيرة ابتداء من الدقيق والرز والسكر والشاي وحتى البطاريات والشموع. سألني مالذي يجري وهل أتوقع حرباً طويلة أم ماذا؟ قلت له لا أعرف ولكن البيت في حاجة لهذه المواد وأكتفيت بهذا ومضيت. كررت الأمر مع محل بقالة ثاني ولم يبق في السيارة مكان لشيء آخر فعدت الى المكتب. كانت الأخبار التي تأتيني من مقر الوكالة في "نيقوسيا" مثيرة فلم يتجاوز الوقت ظهر اليوم حتى كانت القوات العراقية قد فرضت سيطرتها على كل أرجاء "الكويت" وبدأ ان أغلب

أفراد العائلة الحاكمة والوزراء تركوا "الكويت" الى "السعودية" المجاورة. في "بغداد" ليس ثمة أخبار جديدة والإذاعة تردد نفس البيانات بينما المذيعون أخذوا يطلقون على اليوم "يوم النداء العظيم". في المساء كان الناس يلتفون حول أجهزة الراديو ولكن لسماع الإذاعات الأجنبية التي تلتقط عادة بشكل أفضل في ساعات الليل ويهاهم ما يسمعه من أخبار وتقارير وتعليقات وردود أفعال دولية بعضها شديد التنديد بما يسموه بالغزو العراقي لـ "الكويت". الناس تبدو منقسمة بين من يستذكر مطالبة العراق بـ "الكويت" من قبل "الملك غازي" و "عبد الكريم قاسم" ويعتقد بان "صدام" قد حقق الآن ما عجز غيره عن فعله وهو إسترداد "الكويت" وبين من يرى انها ورطة جديدة ساقهم اليها قائدهم. سألني قريب لي ماذا سيحدث بعد اليوم. قلت له لقد امتطى صاحبنا ظهر النمر. قال أشرح لي قلت علينا ان ننتظر قليلاً لكي نرى مالذي سيفعله النمر. قال ان جوابي لا يزال غامضاً قلت له ليس أكثر غموضاً من المجهول الذي أصبح ينتظرنا منذ اليوم.

*

في اليوم التالي للغزو 3 آب/ أغسطس 1990 كانت أجهزة وتنظيمات "حزب البعث" قد جندت كما هي العادة آلاف من أعضائها الذين انطلقوا في مسيرات تبارك قرار "صدام" (الحكيم) بالغزو والذي بدأ الإعلام العراقي يطلق عليه تعبير تلبية النداء ، أي الإستجابة لطلب الضباط الكويتيين بالتدخل. مسيرات كان التلفزيون العراقي ينقلها مباشرة على الهواء يقودها أعضاء في القيادة القطرية للحزب ووزراء للتعبير عن الدعم الشعبي لقرار "صدام" في الوقت الذي كانت ردود الأفعال العنيفة ضد الغزو العراقي تتاولى عالمياً وعربياً. من جانب آخر كان العراقيون قد بدأوا يفيقون من هول الصدمة ولكن على وقع سؤال أشد مرارة وهو ما الثمن الذي عليهم ان يدفعوه الآن لطيش قائدهم الذي جرهم هذه المرة الى مغامرة لن تكون خصمهم فيها دولة واحدة كما حصل قبل عشر سنوات مع إيران، بل ستكون معركتهم مع العالم كله وبقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. ليس فقط نداءات الدعوة الى الإلتحاق بالجيش أو التجنيد عنوة بالجيش الشعبي التي هزت مضاجع أسر بكاملها ظنت ان ويلات الحرب ولت الى الأبد، بل طوابير الناس التي بدأت تزدهم أمام المخابز واختفاء المواد الغذائية من الأسواق هي التي أقلقّت بال الناس الذين بدأوا يدركون سريعاً ان

ليس فراق الأحبة وسوقهم الى حرب جديدة هو ما يخشونه فقط، بل أيضاً ضنك العيش الذي بدا أكيداً عندما لوح العالم بفرض حظرٍ اقتصادي شاملٍ على العراق عقاباً له على الغزو. ولأن "صدام" أدرك سريعاً ان هذه المشاعر لابد وان تحفر لها مجرى في نفوس الناس أوعز بتوفير السلع التي كانت موجودة في الأسواق الكويتية ونقلها الى العراق كما أمر إعلامه بالحديث عن الخير الذي ينتظر العراقيين قريباً في اشارات موحية الى ثروة الكويت النفطية التي أصبحت الآن بين يديه.

*

في الخامس من آب/ أغسطس 1990 أي اليوم الثالث للغزو دعتنا وزارة الإعلام الى زيارة لـ "الكويت". كانت القيادة العراقية أعلنت في المساء السابق انها ستبدأ بسحب الجيش العراقي من الكويت هذا اليوم ولإثبات مصداقيتها فانها نظمت الرحلة لنا كي نرى بأم أعيننا الإنسحاب المزعوم. غادرنا "بغداد" في قافلة من السيارات استأجرناها نحن المراسلين ومع بزوغ الفجر كنا قد وصلنا الى "صفوان"، البلدة

الحدودية الصغيرة التي تحولت الى معسكر هائل لمختلف القوات التي كانت تنتشر بشكل بدا عشوائياً ومنفلتاً. في الشارع الرئيسي او الوحيد كانت حشود من البشر عسكريين ومدنيين تتجمع حول مواد تتكدرس أماهم تباينت بين إطارات للسيارات أو أجهزة راديو وكاسيت للسيارات أيضاً وأشياء أخرى بينما كان المدنيون الجنود يساومون حول أثمانها. من الواضح ان هذه المواد كانت مسروقة من "الكويت" وراح بي الخيال بسرعة الى تصور مشاهد غنائم الحروب وأسلاب الغزوات التي نقرأ عنها في التاريخ والتي كان المقاتلون يحرصون على الحصول عليها أكثر من حرصهم على تلبية دوافع الحرب التي يخوضونها. مع ذلك تعجبت كيف وصلت هذه المواد بهذه السرعة الى هذا المكان بينما الأزمة التي أشعلها الغزو لا زالت تستعر. في نقطة "العبدلي" الحدودية الكويتية يقول لنا مرافقنا من وزارة الإعلام ونحن نضع أول أقدامنا على الأرض الكويتية باننا أيضاً نصنع التاريخ في هذه اللحظة بالذات حيث اننا أول زائرين عراقيين ندخل الى "الكويت" دون جوازات سفر أو تأشيرة دخول. قلت لزميل كان يرافقنا ويفترض ان نكون آخر هؤلاء أيضاً طالما ان الجيش سينسحب من "الكويت" حسب البيان العراقي. في مبنى الدائرة الحدودية التي تظم مكاتب الجوازات والكمارك

والشرطة كان كل ما تبقى هو الجدران وكتل من الأوراق والسجلات ممزقة أو مبعثرة بينما اختفت أو اتلقت المكاتب وقطع الأثاث بل حتى أجهزة التبريد التي اقتلعت من الجدران وبقيت أماكنها فارغة. الغريب ان أضرار الكهرباء وحنفيات المياه هي أيضاً اختفت وكأنما الجنود الذين قاموا بذلك وجدوا انها أثمن ما سيصادفوه من من غنائم في غزوتهم، أو ربما لن يسعفهم الحظ أو الوقت في الحصول على حصتهم منها. نستأنف الرحلة نحو مدينة الكويت وفي الطريق نشاهد عربات عسكرية من الواضح انها تابعة للحرس الجمهوري وهي تسير بالإتجاه المعاكس أي نحو الحدود او التي كانت حدوداً قبل أيام ويصر مرافقونا بأن هذا هو الإنسحاب الذي أعلن عنه مساء أمس ولكن باتجاه سيرنا كانت قوات عديدة أخرى تسير ماضية نحو "الكويت" في الوقت الذي توقفت عربات ودبابات على جانب الطريق الذي نسلكه وكأنها تستعد للرحلة نحو الداخل الكويتي. المرافقون لا يجيبون عن هذا التناقض المحير. على جانبي الطريق الذي يتجاوز طوله 100 كيلومتراً كانت مئات، بل آلاف من سيارات الصالون المدنية متوقفة بعضها كان زجاجها مهشماً بينما بدا أغلبها منزوع الإطارات الأربعة ومنبطحاً بهيكلها على رمال الصحراء. عندما توقفنا قليلاً لمشاهدة البعض منها

كانت معظمها قد فقدت أجهزة الراديو والكاسيت وكماليات السيارة الأخرى. من أين جاؤا بهذا الوقت لكي يتنزعوا كل هذه الأشياء من آلاف السيارات هذه؟ عند مدخل مدينة "الجهراء" تبدأ نقاط التفتيش العراقية، يقول لنا أحد أفراد الجيش الشعبي الذي من الواضح انه مسؤول حزبي كبير بعد التدقيق في مهمتنا أهلاً بكم في المحافظة التاسعة عشر. بدا التعبير غريباً لأول وهلة ثم أصبح صاعقاً حين ادركت معناه واستفزني أكثر حين ربطت بينه وبين الكلام الذي قيل عن بدأ الانسحاب اليوم. تذكرت كيف استفزني تعبير "القادسية الثانية" قبل ثمان سنين حين أطلقها الإعلام العراقي على الحرب التي كانت اندلعت مع إيران. بعد مدخل "الجهراء" في "دوار العظام" وعند بنايتي "الكلية العسكرية" و"الحرس الوطني" الكويتي تبدا شواهد على ان معركة ما أو مقاومة قد دارت هنا الا ان الشوارع ظلت خالية والبيوت انعدمت فيها اي مؤشرات على الحياة أو الحركة الا ما ندر حيث نجد شخصاً ما ينظر من وراء ستار شباك بإستغراب ربما لمنظر رتل السيارات العراقية المدنية المارة. في داخل المدينة كان المنظر مثيراً فالشوارع خلت الا من الجنود العراقيين وأفراد الجيش الشعبي الذين أقاموا نقاطاً ودوريات بينما تجد بين الحين والآخر شباناً أسيويين يتجمعون أمام

دكان أو في مدخل عمارة وقد بدا عليهم الذهول. نزلنا من السيارة وسألت أحدهم بالإنكليزية ان كان يعرف ان هناك مطعماً مفتوحاً فقد كنا فعلاً نشعر بالجوع بعد ساعات طويلة من السير بالسيارة. ابستم ثم قال شيئاً بالعربية لم أدركه الا انني فهمت بانه يعني الا اتعب نفسي بالبحث غير ان شخصاً آخر تبرع ودلنا على بقالة يديرها أحد الباكستانيين كانت لا تزال مفتوحة بالقرب منهم. ما ان اقتربنا من المحل المنشود حتى أغلقها أحد الواقفين أمامه بوابته بوجهنا واختفى بالداخل. استأنفنا رحلتنا عبر شارع الخليج المطل على البحر حيث تكثف وجود الجنود العراقيين وخاصة عند مقر السفارة الأمريكية وبعدها القصور الأميرية التي بان أحدها وكأنه تعرض للحريق. في منطقة وسط المدينة التجارية وفي شارع "فهد السالم" هناك بعض محلات للصاغة والساعات والأجهزة الكهربائية انتزعت أبوابها بينما اختفت بضاعتها من أماكنها. في أحد هذه المحلات كان واضحاً ان قذيفة ربما استخدمت في فتح الخزانة الحديدية الكبيرة التي كانت تحتل إحدى زواياه. البنوك وحدها كانت لا تزال تحظى بالحماية حيث يقف الجنود أمام أبوابها بينما ظهرت معظم البنايات المحيطة وقد تعرضت لأعمال النهب والتخريب. في حولي وشارع البدع نفاجيء بسماع

اطلاق نار يتبرع احد المرافقين بالقول انها ربما رصاصات خرجت من بنادق الجنود خطأ غير اني اطلب من سائقنا ان يمضي بنا بعيداً خشية من ان تكون هناك صدامات مع المقاومة. في منطقة النكرة والروضة كان بعض الناس، اكتشفنا ان أغلبهم فلسطينيون، قد خرج ليشتري حاجياته من جمعية تعاونية كانت أبوابها مفتوحة. الصحفيون الذين معنا ينتهزون الفرصة لشراء بعض الحاجيات التي بقيت على الأرفف من مأكولات وغيرها. حين هموا بالدفع فوجئوا ان الكاشير يطالبهم بالدفع بالدينار الكويتي غير ان مسؤولاً ما في الجمعية بدا كويتيأً تقبل الأمر ووافق بان يدفعوا بالدينار العراقي. سألته مالذي دفعه الى ذلك أجابني لا شيء مهم بعد خراب البصرة. قلت له تعني خراب "الكويت"، لكنه انصرف سريعاً. سألنا مرافقينا ان كانوا قد رتبوا لنا مقابلة مع أعضاء في الحكومة الكويتية الجديدة فقالوا ان مهمتهم هي ان يرونا كيف ان القوات العراقية بدأت من الانسحاب من "الكويت" فعلاً وها هي المهمة قد انجزت. لم ينبس أحد من الصحفيين بأي كلمة فقد كان ما شاهدناه في "الكويت" دليلاً ساطعاً على عكس ذلك تماماً. في طريق العودة تتتابني مشاعر وأسئلة شتى فلا أجد إجابة ربما للإرهاق الشديد الذي انتابني من هذه

الرحلة الطويلة غير اني عند مشارف مدينة الناصرية العراقية كنت أرى زقورة أور الشهيرة واتذكر تلك القصيدة السومرية التي تقول : أور في داخلها موت/ وفي خارجها موت/ في داخلها نموت نحن من الجوع/ وفي خارجها نقتل نحن على أيدي العيلاميين.

*

يوم 7 آب/ أغسطس 1990 تم استدعاء مجموعة صغيرة من المراسلين وأنا من بينهم الى مكتب وزير الإعلام "لطيف نصيف جاسم". وكما هي العادة فان لا أحد يخبرنا بالسبب الذي دعا الوزير الى هذه الإستدعاء العاجل لكني شخصياً توجست خيفة من أن يكون التقرير الذي كتبته عن رحلة الكويت وراء ذلك خاصة وانه خلا من أي اشارة الى قيام القوات العراقية بالإنسحاب من الكويت كما طبل الإعلام الرسمي لكني استرجعت بان الموضوع برمته أصبح غير ذي صلة بسبب تغير الموقف العراقي سريعاً ورفض "صدام" لدعوات الإنسحاب مجدداً. عندما استقبلنا الوزير لاحظت انه يركز نظره علي بالرغم من حديثه كان عمومياً عن المؤامرة التي يتعرض لها العراق وضرورة التزام المراسلين بالسياسة المعروفة للدولة وتعليمات الوزارة. بعد

انتهائه من تلك المقدمة توجه بالحديث مباشرة اليّ وبلهجة مليئة بالتهديد والوعيد وبحركات من يده موحية بأكثر من ذلك قال ان ذلك الكلام موجه الي بالتحديد وأشار الى موضوع كنت قد كتبتة في اليوم السابق ذكرت فيه ان السلطات بدأت بتوزيع الأسلحة على مئات الآلاف من أفراد الجيش الشعبي استعداداً لأي هجوم محتمل. حاولت ان اناقشه بان الموضوع صحيح أولاً وقد تأكدت منه شخصياً ثم أنني لم أر فيه أية مشكلة وقبل أن أكمل كلامي نهض من مقعده وراح يلوح بسبابته نحوي وهو يقول ان فعلت أي شيء من هذا القبيل مستقبلاً فانه سيقطع رأسي ويلقى جثتي فوق الجسر القريب من مكتبه وبعدها سيرسل رأسي الى أمي. ثم ترك الغرفة ومضى بينما تركتني عبارته الأخيرة في مخاوف حقيقية خاصة وانها ذكرتني على الفور بعبارته التي اصبحت الآن مشهورة عن إرسال "بازوفت" في صندوق. شعرت برعب حقيقي ثم بدوران وبرغبة قوية على التقيؤ ثم بوحدة قاتلة حين لم يتقدم أحد من الزملاء الذين كانوا معي على اسنادي بل ولوا هاربين. فكرت بعد ذلك بترك عملي ولكني أدركت بان ذلك سيضعني امام النيران بدلاً من الخلاص منها وقررت الصمود.

في الثامن من آب/ اغسطس 1990 أعلن "مجلس قيادة الثورة" ضم الكويت رسمياً الى العراق واعلنها المحافظة التاسعة عشرة واعادة تسميتها بـ"محافظة النداء" منهياً أي امكانية للوساطة العربية أو الدولية لحل المشكلة. بعد أيام من ذلك نظمت وزارة الإعلام جولة ثانية لنا الى "الكويت" التي بدت هذه المرة هادئة عدا الطوابير الطويلة من مختلف أنواع السيارات والحافلات واللوريات التي كانت تغادرها وهي محملة بالبشر من مختلف الجنسيات إضافة الى متعلقاتهم والتي تواصل سيرها نحو الحدود العراقية في عملية خروج واضحة للعمال الأجانب من الكويت. في المقابل بدأ ظهور المئات من العراقيين في الأسواق الكويتية التي فتحت بعضها أبوابها وهم يشترون كل ما وقعت عليه أيديهم من بضائع كانت تفتقر اليها السوق العراقية التي حرمت منها سنوات طويلة، ليس من الكماليات فقط، بل من بعض السلع المعمرة والأساسية. على الجانب الآخر بدا ان هناك عملية نهب منظمة تجري بواسطة مسؤولين وأفراد حكوميين لدوائر ومؤسسات وبنوك وقصور أميرية. كانت سيارات النقل مع عمالها أو أفراد من

الجيش تحمل كل انواع البضائع والمواد بعضها بدا قديماً أو مستعملاً وبعضها الآخر كان لا يزال مغلفاً بغلافه الأصلي. أقنعت سائقنا ان ندخل الى مخازن "ميناء الشويخ" وهي مستودعات سارت فيها السيارة حوالي نصف ساعة لكبر حجمها قبل ان نخرج عائدين الى الطريق العام. كان هناك عراقيون لا يمكن تميز هوياتهم أو وظائفهم يشرفون على ملء لوريات اصطففت في تلك المستودعات ومن المؤكد انهم لم يكونوا أناساً عاديين يقومون بتلك المهمة لحسابهم الخاص. ما بدا هو عملية نهب منظمة تقوم بها جهات حكومية تسرع بنقل البضائع الى العراق ربما غير مصدقة انها يمكن ان تبقى فترة طويلة في هذا البلد.

*

لم يكد العراقيون يفيقون من مفاجأة احتلال قائدهم للكويت واعلانها محافظة عراقية حتى فاجأهم يوم السابع عشر من آب/أغسطس 1990 بإعلانه قبول مشاركة إيران للعراق في السيادة على "شط العرب". في هذا الجو السياسي والنفسي المضطرب وبينما يبحث

العراقيون عن أجوبة للأسئلة التي يثيرها إحتلال الكويت يأتي إعلان "صدام" عن إعادة قبوله بـ"معاهدة الجزائر" من خلال رسالة بعثها الى الرئيس الإيراني "هاشمي رفسنجاني" في بيان يذيعه التلفزيون العراقي على الملأ. كان "صدام" قد مزق الإتفاقية التي وقعها بنفسه مع شاه إيران في الجزائر عام 1975 في موقف إستعراضي مماثل بعد عام من الثورة الإسلامية وحرّم إيران من امتيازاتها التي حصلت عليها الأمر الذي ساهم باندلاع الحرب العراقية الإيرانية في أيلول/ سبتمبر عام 1980. كانت تبريرات "صدام" التي قدمها لـ"رافسنجاني" عن ضرورة الوقوف معا ضد الشيطان الأكبر العدو المشترك الآن للبلدين واهية وتعبّر عن الضعف والاستكانة ومن غير المتوقع ان تغري القيادة الإيرانية التي لا يمكن ان تلدغ من "صدام" مرة اخرى. لكن مهما يكن فان معنى ذلك ان إيران ستحقق بهذا القرار انتصاراً ساحقاً بإجبار "صدام" على إعادة اقراره بـ"معاهدة الجزائر" وعودة حصتها في "شط العرب" لكن دون دفع أي ثمن. العراقيون تساءلوا كيف يحتل "صدام" بلداً بدعوى انه أرض عراقية ويقدم كل الذرائع التاريخية لإثبات ذلك ثم يتنازل بسهولة عن ما ظل يردده سنوات من انها حقوق عراقية أصيلة في "شط العرب"؟ لن يقدم "صدام" ولا إعلامه تفسيراً لكل ذلك ربما

مقتنعاً بان العراقيين سيفهمون في النهاية منطقه البرغماتي بان ربح "الكويت" يعادل مئات المرات خسارة "شط العرب" وكلما زادت الشاحنات المحملة بالبضائع من الكويت سيزيد اقتناعهم بهذا المنطق. لكن الواقع كان يقول ان بإمكان "الخميني" الآن ان ينام مرتاحاً في قبره فهاهو "صدام" يشرب من نفس كأس السم الذي تجرعه قبله وهو يعلن هزيمته في الحرب مع إيران التي كان "شط العرب" ذريعتها الأولى.

*

الزيارة الثالثة لـ"الكويت" والتي نظمتها وزارة الإعلام للمراسلين يوم 21 تشرين الاول/ اكتوبر 1990 جاءت على ما يبدو على خلفية الضجة التي أثارت حول قيام العراقيين بنهب حاضنات الأطفال حديثي الولادة من المستشفيات الكويتية ونقلها الى بغداد. الإعلام الأمريكي أثار الكثير من الضجيج حول القضية بإعتبارها موضوعاً يمس الأطفال وحاول من خلالها ان يثير الرأي العام الدولي على "صدام" وعلى الإحتلال العراقي للكويت. احدى الوسائل التي لجأ اليها الكويتيون من خلال استخدام وكالة أمريكية للإعلام والعلاقات العامة

هو تنظيم مؤتمر صحفي ظهرت فيه بنت كويتية صغيرة وهي تتحدث بحرقه وألم عن مشاهداتها للعراقيين وهم ينهبون الحاضنات الخاصة بالأطفال الخدج او المبتسرين. (اتضح فيما بعد انها كانت ابنة السفير الكويتي في واشنطن ناصر الصباح وانها لعبت دورها في الحملة الإعلامية ضد العراق). أخذونا هذه المرة بالطائرة حيث كانت الخطوط الجوية العراقية قد فتحت خطأ مباشراً داخلياً الى "الكويت". نزلنا في مطار الكويت الدولي الذي بدا اشبه بكراج سيارات متروك من جراء الفوضى التي ضربت أطناها في ارجائه. اصطحبونا من المطار مباشرة الى احدى الدوائر التي اتخذها وكيل وزارة الصحة العراقية الدكتور "عبد الجبار العباسي" مقرا له. من هناك اصطحبنا "العباسي" الى "المستشفى الأميري" للولادة وهو مستشفى كبير ومتطور لكنه خلا من المريضات عدا عدد صغير منهن ومعظمهن من الخادومات الأجنيات. أخذنا "العباسي" مباشرة الى صالة امتلأت بالحاضنات كما زرنا مخزناً مرفقاً بالمستشفى كان هو الآخر يكتض بالحاضنات بينما كان وكيل الوزارة يصر على انهم لم ينقلوا ولا حاضنة واحدة الى العراق. بعد ذلك اخذونا الى "مستشفى الرازي" وهناك التقيت بدكتور كويتي قال ان اسمه "علي عبد الرحيم الهويل" ربما اتوا به لكي يكون

شاهداً من أهلها .سألته ما هو شعوره وهو يعمل الآن تحت سلطة الإحتلال؟ أجاب الرجل بكل تهذيب بأنه طبيب وهو يقوم بعمله الإنساني وفقاً لما يمليه عليه ضميره المهني، ولم يتحدث بموضوع آخر. قلت له قبل ان يمضي وهذا ما أفعله انا بالضبط هنا في بلد محتل اذ كلانا يؤرقنا ضميره المهني ونحن نؤدي مهمتنا وتمنيت ان يكون هناك من يفهم.

*

كانت احدى القضايا التي أثارت حملة إحتجاجات دولية اثناء الأزمة هي قضية إحتجاز الرهائن الغربيين الذين كانوا في "العراق" و"الكويت" اثناء الغزو حيث بدأت تقارير صحفية تتحدث عن سوء أوضاعهم بعد أشهر عديدة من احتجازهم كدروع بشرية في المنشآت الحيوية التي خشى العراق بانها قد تتعرض للهجمات من قبل قوات التحالف الذي اخذ يعزز مواقعه في منطقة الخليج. في يوم 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1990 أخذونا نحن مجموعة صغيرة من المراسلين في جولة لم يقولوا لنا الى أين بعد ان قسمونا الى عدة مجموعات كل

منها ركب بحافلة صغيرة وبصحبه عدد من رجال المخابرات والأمن الخاص بالتصنيع العسكري. توجهت مجموعتنا باتجاه منطقة "التاجي" شمال بغداد ثم أخذت السيارة طريقاً فرعياً الى الغرب وسط الصحراء. بعد نصف ساعة تقريباً دخلنا منطقة كانت محاطة بساتر ترابي مرتفع ما دخلنا الى المنطقة التي يحيط بها حتى واجهنا ساتراً آخر ثم سياج من الأسلاك الشائكة المحصنة بنقاط حراسة. بعد الدخول من بوابة كثيفة الحراسة نفاجيء بمجمع صناعي هائل ترتفع فيه مداخن من كل صوب لكن دون اية لوحات تشير الى أسم المصنع أو مهماته. لم تتجه السيارة الى المصنع بل قادنا مرافقونا الى منطقة منعزلة تجمعت فيها عدد من الكرافانات التي اصطفت بشكل منتظم بدت وكأنها كانت معسكراً أو مجمعاً سكنياً للشركة التي بنت المصنع. ما ان هبطنا من الحافلة حتى واجهنا عدداً من الأشخاص الذين بدوا من سماتهم أجانب كانوا يسرحون على جانبي مسبح صغير يتوسط الكرافانات. فوجؤا بهذا العدد من الزوار الذين يحملون أجهزة التسجيل وكراسات الملاحظات وبدأ بعضهم مرتاباً في الأمر. تقدمت بإتجاه أحدهم وحييته بالإنكليزية مقدما نفسي كصحفي أعمل في وكالة أنباء غربية كما عرضت عليه بطاقتي الصحفية وكارتي الخاص وشرحت له سبب

وجودنا هنا باعتبار ان العراقيين أرادوا ان يعطونا الفرصة للتعرف على أحوالهم بعد حوالي ثلاثة أشهر من أخذهم رهائن. شعرت بان الريبة التي كانت قد سيطرت عليه في البداية أخذت تتلاشى قليلاً وعندما سألته عن أسمه وجنسيته وعمله أجاب بانه "فرانك غراهام" بريطاني وكان يعمل في احدى مشاريع وزارة الكهرباء والماء في الكويت قبل الغزو. كان الرجل يتمتع بروح معنوية عالية رغم الأشهر التي قضاها فمأزحته بانه يبدو في حالة حسنة وكأنه ضيف كما تطلق عليهم الدعاية العراقية وليس رهينة أجنبي يابتسامة هازله على شفثيه، نعم ضيف ولكن مرغم على تقبل حسن الضيافة. سألته ان كان يعرف أين يُحتجز وما هو هذا الموقع ففاجئني بقوله انه مصنع بني أساساً لإنتاج الكلورين المستخدم في تصفية المياه ولكنه الآن يستخدم لانتاج مواد كيميائية ربما تستخدم في تصنيع الأسلحة. سألته كيف عرف ذلك ففاجئني مرة ثانية بان الشركة التي يعمل لديها هي التي بنت المصنع قبل سنين ثم اضاف لا تنسى باني مهندس كيميائي وأعرف بل أشم الروائح التي تتطاير من المصنع وبإمكاني ان أحزر ما هي. قبل ان ننهي زيارتنا سألته ان كان يعتقد ان "ثاتشر" سوف توافق على مطالب صدام لكي يطلق سراحهم ويعودا الى بلادهم

أجابني بانها امرأة بلا قلب وسوف لن يهتما ان نقتل جميعاً هنا على ان تتنازل لـ"صدام". في مكان آخر على مسافة نصف ساعة من الموقع الأول سُرنا له من طريق باتجاه "الفلوجة" كانت تتراى على جانبيه ومن بعيد أبنية لمصانع ومنشآت أخرى عديدة أخذونا الى مجموعة ثانية من الرهائن واجهت رهينة قال انه استرالي بنفس السؤال عما اذا كا يعرف طبيعة الموقع الذين يحتجزونهم فيه ففاجئني هو الآخر بانه مصنع لمحركات الصواريخ. سألته وكيف عرفت ذلك؟ ضحك ضحكة ذات مغزى ولم يجب. كانت مفارقة كبيرة فرغم عملي الصحفي منذ سنين لم تكن لدى أية فكرة عن هذه المواقع المترامية عبر الصحراء وما يمكن ان تنتجه لكن هؤلاء الأجانب الذين أخذوا رهائن يعرفون ما ينتجه كلاً منها. كيف يريد هذا النظام ان يحارب هؤلاء وهم الذي بنوا وجهزوا كل هذه المصانع ويعرفون كل مسمار دق فيها. ثم هل يستطيع "صدام" فعلا ان يحتفظ بهم حتى قيام الحرب والتي من المؤكد انها ستستهدف هذه المنشآت وغيرها بالتدمير والخراب.

*

تتعرّش كل المحاولات والوساطات الدولية لإيجاد مخرج للأزمة ازاء
اصرار "صدام" على رفض الإنسحاب من الكويت. شخصيات بارزة من
أمريكا وأوروبا واليابان والإتحاد السوفيتي تزور بغداد وتلتقي بصدام
فيكافئهم على توسلهم اليه باطلاق بعض الرهائن من بلدانهم لكنه
يرفض وساطاتهم ويسخر من تحذيراتهم. من بين الذي زاروا بغداد هذه
الفترة رئيس الوزراء الياباني الأسبق "يشيرو ناكاسوني" والذي يتمتع
بعلاقات عميقة مع الأمريكان من خلال عضويته في اللجنة الثلاثية
والذي يلتقي بـ"صدام" حاملاً منه تحذيرات جدية من الرئيس "جورج
بوش". بعد اجتماعه مع "صدام" في صباح 29 تشرين الثاني/ نوفمبر
1990 انتقل الى لقاء مع الزعيم الفلسطيني "ياسر عرفات" في دار
الضيافة التي يسكن فيها في منطقة "الجادرية". كنت حينها في الدار
كما هو شأني عندما اتردد عليها حين يكون "أبو عمار" في "بغداد".
جرى اللقاء بين "أبو عمار" و "ناكاسوني" في الصالة الواسعة التي في
دار الضيافة ووجدت نفسي وسط عدد من الأصدقاء من المسؤولين
الفلسطينيين والذين لم يطلبوا مني المغادرة. كانت المفاجأة حين قال
"ناكاسوني" بانه يريد من "أبو عمار" ان يذهب الى "صدام" ويعيد تأكيد

الرسالة التي كان قد أبلغه اياها. سأله "أبو عمار" ماهي الرسالة؟ نظر "ناكاسوني" الى الزعيم الفلسطيني وقال "عليه ان يفهم ان كلاً من بوش وثاتشر مصممان على الحرب واذا ما اندلعت الحرب فانهما مصممان ايضاً على تدمير العراق واعادته الى العصر ما قبل الصناعي." بالنسبة لي كانت تلك رسالة بحجم قنبلة نووية وسألت "ابو عمار" بعد انتهاء الإجتماع هل سينقل هذه الرسالة الى "صدام" لم يجبني ومضى الى مكتبه. غير ان أحد مساعديه أجابني على مسمع من منه "مالذي تقوله، هل تريد ان تورط الختیار؟". في المساء نقل التلفزيون خطاباً لـ"صدام" قال فيه ان العراقيين لا يخافون التهديدات الأمريكية ولا يخشون السلاح الأمريكي ومن بين ما ذكره ان بدوياً في الصحراء بإمكانه ان يحمل بكفه قليلاً من رمل الصحراء ويرميها على طائرة الشبح فيعطل مفعولها. قال اذا قامت الحرب فان الأمريكان الذين شبههم ببطل أفلام رامبو والذين ياكلون الهمبرغر والنستلة سيقاومون من قبل العراقيين بالطريقة التي ستجعل كل عربي ومسلم يفتخر بهم. مالذي لدى "صدام" ما يجعله واثقاً هكذا من النصر؟ أفكاري راحت بعيداً الى مصانع الأسلحة التي زرناها قبل أيام وقلت ربما هي ما يراهن عليه. لكنني عدت سريعاً الى رشدي وقارنت

بين كل ما يمتلكه أو ما يمكن ان يتوفر لديه لا يمكن ان يقارن بهذه الترسانة من الأسلحة المتطورة التي بدأت تتجمع على حدود "العراق" والتي ستجعلها فعلاً قادرة على إرجاع "العراق" الى العهد ما قبل الصناعي.

*

خلال الأسابيع الماضية كان المئات من الصحفيين من دول عديدة يتوافدون الى "بغداد". الجزء الكبير من المعركة التي يخوضها "العراق" مع أمريكا كان إعلامياً ونفسياً. لكن شأن المقارنة في الحرب المتوقعة ذاتها فان من الواضح ان هناك فرقاً شاسعاً في الأداء بين الجانبين، بل بدا الإعلام العراقي في مستوى أدنى مما يمكنه فيه من مواجهة أو مجارة الآلة الإعلامية الضخمة التي تتجمع على الجانب الآخر من ميدان الحرب. كان الإعلام العراقي يتوجه الى العالم مثلما يتوجه الى شعبه بخطاب تعبوي صارخ محبط ومهين لكل إنسان ذي عقل وقدرة على التفكير الحر. كانت مخرجاته في الواقع كابوساً دعائياً وفشلاً ذريعاً في تقديم أي حجة سياسية أو اخلاقية مقنعة لا بخطوة غزو الكويت ولا بأي سبب يدعو الى بقاء العراق محتلاً لهذا البلد ولا

بإمكانية الصمود في حرب ستقودها الولايات المتحدة لإخراجه منها. على المستوى الدولي كان العالم كله مقتنعاً بأن "العراق" معتدٍ وهو يضرب الآن بكل المحاولات لإنهاء الأزمة التي خلقها عرض الحائط ولا يحتاج الى تشويه سمعته أكثر مما تقوم به قيادته ذاتها في تحدي العالم. لم يكن بطبيعة الحال لـ"صدام" من مستشارين في الدعاية غير طاقمه التقليدي برئاسة وزير الإعلام "لطيف نصيف جاسم" والذي انضاف اليه "تاجي الحديثي" الذي جيء به كمدير عام للإعلام الخارجي حيث يدير الاثنان جهاز الدعاية في حرب يقول فيها العراق انه يواجه فيها جيوش أكثر من ثلاثين دولة لوحده. كان "جاسم" ابناً لعائلة ريفية تعيش في أطراف بغداد قضى جانباً كبيراً من حياته في صفوف "حزب البعث" بعد تخرجه من كلية العلوم بجامعة بغداد. كانت الفرصة قد واثته عندما عمل مع "صدام" في مكتب الفلاحين للحزب في أواسط الستينيات ثم انضم الى زمريته التي استولت على الحزب ونفذت انقلاب عام 1968. سريعاً سيصبح "جاسم" مديراً للإذاعة والتلفزيون ثم وزيراً للإصلاح الزراعي قبل ان يأتي به "صدام" وزيراً للثقافة والإعلام بعد استيلاءه على السلطة تماماً عام 1979. كان "جاسم" ابناً باراً لمدرسة "حزب البعث" التي تعتبر الإعلام والثقافة اداة

من أدوات دعاية الحزب الأديولوجية والسياسية ليس الا ولا يرى في نفسه الا أداة أيضاً تستخدم لاختضاع العاملين في هذا الحقل لتنفيذ توجيهات القيادة. لم يكن "جاسم" يرى في العاملين في هذا الحقل وحتى كبار البعثيين منهم الا وصولين وانتهازين ومنافقين وما كان يتعامل معهم الا بفجاجة وبذاءة وفي أحس الأحوال باستخفاف. في الوسط الثقافي والإعلامي يُروى الكثير عن حالات إزدراءه للعاملين فيه وخاصة الفنانين والفنانات وهي سلوكية ظلت ملازمة له حتى في أشد حالات استخدامه لهم في حملات التعبئة أثناء الحرب العراقية الإيرانية. ومن الأمثلة الشهيرة التي عاصرتها على ذلك هي تعيينه بطريقة فجأة ودون مقدمات لـ "معن عريم" وهو أحد الموظفين البسطاء يوماً ما مديراً عاماً للإعلام الخارجي بدلاً من "صلاح المختار". عندما أظهر الأخير بعض الميول الإستعراضية التي لم تعجب الوزير ما كان منه الا ان توجه واثناء إجتماع لكبار المسؤولين في الوزارة الى "صلاح المختار" بالقول انتظر لترى سأكلم الآن على التلفون حماراً وسيأتي كي يجلس مكانك وسيدير العمل أفضل منك وهو ما فعله في الحال. وبنفس الدرجة من الفجاجة كان يجيب "جاسم" على أسئلة الصحفيين في اللقاءات التي بدأ ينظمها لهم كل مساء تقريباً هذه

الأيام. في مرة من المرات وعندما سأله أحد الصحفيين الأجانب كيف سيتعاملون مع الطيارين الأميركيين أو الآخرين اذا ما سقطت طائراتهم في الأراضي العراقية ووقعوا أسرى حين تقع الحرب فأجابه على الفور سنقطعهم ارباً ارباً وسنأكلهم. اما "تاجي الحديثي" فقد كان وضعه غريباً في هذا الفريق اذ كان من عائلة بعثية اعدم "صدام" فيها بعض أفرادها ومنهم أخيه بينما سجن أخاً آخر لسنوات طويلة بتهم التآمر عليه. لم يكن "صدام" ليثق أبداً بأحد له هذه الخلفية المريبة مما أثار تساؤلات عديدة عن السبب الذي جعله يفعل ذلك وترك الجواب دائماً عرضة للتخمين والاستنتاجات. كان منظر "تاجي الحديثي" مثيراً للشفقة وهو يجلس ليدافع عن رئيسه أمام الصحفيين الأجانب الذين يعرف معظمهم بقصة اعدام أخيه مما يثير لديهم الإشمئزاز والتقزز قبل ان يثير التساؤلات عن مصداقية وأخلاقية ما يفعله وقبل البحث في دوافعه أو دوافع "صدام" في وضعه في هذا الموقع. لكن "تاجي الحديثي" كان يبدو سعيداً بما يفعله في تجميل صورة الرئيس الذي أعدم أخيه وكأنه يستجيب لهذه اللعبة السادية بإرادته. كان يذهب الى أقصى الحدود في تلك اللعبة السمجة ليس في ما يمارسه من غطرسة

وعجرفة في التعامل مع الصحفيين الأجانب بل في الوقاحة معهم أحياناً.

*

في يوم 7 كانون الثاني/يناير 1991 اقامت الجالية الفلسطينية في العراق احتفالاً بمناسبة "يوم الشهيد الفلسطيني". كان العد العكسي لليوم الذي حدده مجلس الأمن لإنسحاب العراق بموجب قرار المجلس رقم 678 وهو نهاية يوم الخامس عشر من الشهر نفسه بدأ يقترب. في بغداد كانت أعصاب الناس مشدودة مع تزايد احساسها بالقلق من موقف "صدام" الذي ظل متصلباً في الوقت الذي أصبحت كل المؤشرات تدل على ان الحرب أصبحت وشيكة ومحتمة. في الصباح يستقبل "صدام" مبعوثاً من الرئيس الفرنسي "فرنسوا ميتران" ربما في محاولة فرنسية أخيرة لتجنب الكارثة القادمة لكن نتيجة المباحثات لا تبدو مختلفة عن غيرها من الوساطات والمحاولات التي تجري منذ أسابيع. في الإحتفال الفلسطيني كان متوقعاً ان يخطب "ياسر عرفات" لكن وسط الضجيج الذي لف قاعة وزارة التربية ظهر رجال الحماية

الخاصة للحرس الجمهوري ثم سرعان ما أطل "صدام" بنفسه وأخذ مقعده في الصف الأمامي وسط هتافات المشاركين الفلسطينيين وتشجيعهم له. حين تحدث "أبو عمار" كان جل تركيزه على ما سمي يومها بمبادرة "صدام" للربط بين حل القضية الفلسطينية ونزع فتيل الأزمة التي تسبب بها في غزوه لـ"الكويت". وقبل ان يختتم "ياسر عرفات" خطابه توجه بكلامه الى "صدام"، أو فارس العرب كما اطلق عليه، وهو يقول له انهما سيدخلان القدس معا وسوية، صدام على حصانه الأبيض المشهور وهو من ورائه ثم يتبع قوله ذلك بآية من القرآن الكريم - وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة. كنت واقفاً على بعد خطوات قليلة من "صدام" أنظر الى عينيه كيف توقدت وهو يسمع كلمات "ياسر عرفات" الحماسية وتساءلت ان كان "صدام" قد اقتطع من وقته الثمين وسط هذا التوتر الذي يحيط بالعراق والعالم كله وحضر لهذه المناسبة لكي يسمع فقط هذا الكلام من الزعيم الفلسطيني والذي نقله التلفزيون العراقي بعد ذلك. عندما عدت الى المكتب تصفحت القرآن الكريم وحاولت ان أجِد تفسيراً للآية التي جاءت من "سورة الإسراء". التفسير المثير وجدته في ترجمة انكليزية للقرآن التي احتوت على هامش يذكر ان الآية هي إشارة الى السبي

البابلي لليهود ودخول "تبوخذنصر" الى الهيكل في القدس. مع ذلك عندما انتهيت من العمل مساء ذلك اليوم ذهبت الى دار الضيافة التي ينزل بها "ياسر عرفات" لكي أسئله عن تفسيره للآية التي استشهد بها ومن هم المقصودون بواو الجماعة في وليدخلوا. نظر الي ثم سألني بطريقته التي لا تخلو من الهزل "هل نسيت تاريخك؟ وسكت. قلت ساعدني على معرفته قال لي اذهب وأقرأ عن "تبوخذنصر" اليس هو العراقي الذي دخل الهيكل ثم ألم يكن "صلاح الدين الايوبي" عراقياً أيضاً؟ كنت أريد ان أسئله ومن سيدخله الآن لكني كنت أعرف الإجابة سلفاً، فقد قالها في الإحتفال.

*

صباح 8 كانون الثاني/ يناير 1991 كنا في طريقنا مرة أخرى الى "الكويت". طائرة الخطوط الجوية العراقية كانت ممتلئة بالمسافرين من بينهم ضباط كبار ومدنيين يدعون أنهم تجار في طريقهم لشراء البضائع من "الكويت". سألت أحدهم وهل بقيت هناك بضائع في الكويت للشراء؟ قال ان عليهم ان يلحقوا لشراء ما تبقى قبل اندلاع الحرب. وجدت الى جانبي في مقعد الطائرة شخص كويتي قال انه كان

في زيارة لأخيه الأسير في أحد المعتقلات في الموصل فحاولت استدراجه للكلام. قدمت له نفسي مع كرتي الشخصي وبطاقتي الصحفية لأزيل أية هواجس لديه الا ان الرجل تكلم عن الكبة الموصلية والقيمر العربي والرز العنبر حيث اشترى كميات معه من كل ذلك لكنه تحاشى الكلام عن الإحتلال. لم يكن الأمر غريباً لي فقد جربت في المرات السابقة التي زرت فيها الكويت ان أفتح نقاشاً مع الكويتيين لكنني وجدت دائماً صداً للكلام حول أي شيء ما دام من يكلمهم عراقياً وكنت في الواقع أعذرهم وأسأل نفسي هل كان موقفي سيختلف لو كنت مكانهم وكان بلدي محتلاً، بل مغتصباً. هذه المرة هبطت الطائرة في قاعدة علي السالم الجوية في جوف الصحراء الكويتية. كان المنظر من شباك الطائرة يبدو وكان القاعدة على جبهة الحرب بسبب العدد الهائل من الدبابات والآليات العسكرية التي انتشرت في محيطه والتي اتخذت موقعها وكأنها مستعدة للمعركة. نفس المنظر تكرر على طول الطريق الى مدينة الكويت التي بدت وكأنها مدينة أشباح خالية من البشر لولا سيارات الجيش العراقي والجنود المنتشرين في كل مكان. على طول الساحل كانت خنادق جديدة قد حفرت ولم نشاهدها في المرات السابقة غير ان الجنود

العراقيين كانوا مسترخين خارجها يتمتعون بشمس الشتاء الدافئة وهدوء البحر من أمامهم. ترى هل كان فعلاً هذا هو شعورهم أم أنهم يدركون مالذي تخبئه الأيام القليلة لهم فراحوا يغالبون خوفهم بالتأمل في البحر والتفكير كيف سيتعاملون مع الحرب القادمة. انزلونا هذه المرة في فندق "حياة ريجنسي" الذي يقع على شاطئ البحر. فندق ضخم جداً ولكنه خالٍ تماماً من النزلاء بينما كان عدد صغير من العاملين العرب من جنسيات مختلفة يديرون صالاته. طلبت من موظف الإستقبال اللبناني ان يعطيني غرفة تطل على البحر الا انه أجابني بان كل الغرف المظلة على البحر محجوزة. سألته ان كانوا ينتظرون أفواجاً سياحية أم انعقاد مؤتمر ما. بدا انه لم يستسغ الملحة. قضينا وقتاً قصيراً قبل ان يشير الينا مرافقونا الى تحركنا في جولة ظهر ان هدفها دحض بعض التقارير الإعلامية عن تردي الأوضاع الأمنية والمعيشية في "الكويت" وسوء الخدمات الصحية. بعد انتهاء الجولة التي شملت لقاءات مع مسؤولين عراقيين يديرون بعض القطاعات أخذونا الى مقر وزارة الإعلام الكويتية التي تحولت الآن الى مقر لفرع لوزارة الإعلام العراقية حيث استقبلنا "مؤيد سعيد" مدير الآثار العراقية والذي كان يشرف على نقل الآثار والوثائق

الكويتية التاريخية الى بغداد. سألته عن المكتب الذي كان يستخدمه والذي كان لا يزال يحتفظ بمكتبة عامرة ببعض الكتب فاجابني بانه مكتب "محمد الرميحي" رئيس تحرير مجلة العربي تلك المجلة التي اعتبرتها دائما واحدة من مصادر ثقافتي ومعرفتي خلال سنوات طويلة. شعرت كمن دخل الى بيت أحد دون استئذان. في المساء ذهبت لوحدي الى "شارع السالمية". كنت أريد ان اتحدث مع كويتيين وأعرف منهم كيف يعيشون وما الذي يشعرون به في هذه الأيام العصيبة. بعض المحلات في أسواق جانبية كانت لا زالت مفتوحة وأغلبها يديرها فلسطينيون. كانت مفارقة غريبة لأن أغلب الكويتيين الذين رأيتهم وحاولت ان أحاورهم كانوا ينظرون الي بنظرات كانت شبيه بتلك التي نراها أحيانا من بعض الفلسطينيين تجاه محتليهم الإسرائيليين. سألت احد الباعة الفلسطينيين بعد ان ذكر لي انه من سكان الضفة الغربية الذين جاؤا للعمل هنا بعد الإحتلال عن مشاعره وهو يرى العراقيين وهل يذكرونه بالمحتلين الإسرائيليين اللذين تركهم هناك. صمت لبرهة ثم قال لا أدري وأضاف بعدها بانه لم يفكر بذلك قبل الآن وبعدها توقف قليلاً وقال لكن العراقيين ليسوا يهوداً ثم اننا جميعاً عرب ومسلمين. في الصباح كنا على متن الطائرة عائدين الى بغداد. نظرت

من شباك الطائرة وهي في بداية تحليقها فشاهدت مرة ثانية تلك التحصينات الهائلة للقوات العراقية المنتشرة في أطراف القاعدة وفي عمق الصحراء. هل بإمكان "صدام" ان يسحب كل هذه القطعات وغيرها من "الكويت" في ما تبقى من الوقت للإنذار الموجه اليه؟ لم أجد الا جواباً واحداً فقط: الحرب قادمة لا محالة.

*

توقف العد العكسي للحرب اليوم 13 كانون الثاني/ يناير 1991 الذي بدا متسارعاً منذ يوم الخميس الماضي 9 كانون الثاني/ يناير بعد فشل الإجتماع الذي عقده "طارق عزيز" مع وزير الخارجية الامريكي "جميس بيكر" في "جنيف". سبب التوقف كان الزيارة التي بدأها الأمين العام للأمم المتحدة "خافير دي كويلار" مساء أمس في محاولة بدت هي الأخيرة والحاسمة لمنع الحرب من ان تقع. الإعلام الرسمي استبق الزيارة بالقول انها ليست الا محاولة لذر الرماد في العيون وبأنها الذريعة التي ستستخدم لشن العدوان وبذلك اتضح مقدماً الطريقة التي ستعامل بها القيادة العراقية مع مهمة "دي كويلار".

ومع ذلك ظلت الزيارة من وجهة نظر فرق الصحافة الدولية التي اكتضت بها فنادق بغداد حدثاً مدوياً تسعى الى معرفة ولو جزء بسيط من تفاصيله. في الصباح التقى الدبلوماسي الدولي بـ"ياسر عرفات" محاولاً ربما ان يستشف منه مزاج الرئيس العراقي اذ لم يكن من المعقول انه يعول عليه في أمر ما بعد ان فشلت جهود كبار الوسطاء الدوليين. بعد لقائه مع "دي كويلار" دعى "ابو عمار" الى مؤتمر صحفي في مقره والذي تقاطر اليه عدد كبير من الصحفيين الذين ركزوا اهتمامهم على مهمة "دي كويلار" التي كانت برأيهم الحد بين تاريخيين الا ان "عرفات" لم يشف غليلهم وتكلم بعموميات. غير انه عندما حاول أحد الصحفيين الإلتفاف حول السؤال مباشرة عن مهمة الأمين العام للأمم المتحدة فسأله اذا ماكان يعتقد الآن ان الحرب أصبحت واقعة لا محالة بعد انتهاء الإنذار أجاب "ياسر عرفات" بحماس لا ..لا... لا أعتقد ذلك. دهشت للثقة العالية التي أظهرها "عرفات" وتساءلت معي نفسي ان كان يعلم شيئاً لا نعلمه نحن أم ان "دي كويلار" أبلغه شيئاً ما. بعد المؤتمر الصحفي استأذنت "عرفات" للحديث معه فأخذني من يدي وادخلني مكتبه. قلت له يا "ابو عمار" قد تكون انت رئيس دولة فلسطين والقائد العام للقوات الفلسطينية

بينما لا ترتقي خبرتي ومعلوماتي العسكرية الى أكثر مما لدى أي شخص انهى خدمته الإلزامية في الجيش ولكني مجبر على ان أقول لك ان كل مشاهدته في "الكويت" اثناء زيارتي قبل أيام وما لدي من معلومات انه لا يبدو ان هناك خطة للإنسحاب العراقي من "الكويت" اليوم كما يتطلب قرار مجلس الأمن وبالتالي لا احتمال لمنع الحرب فهل أنت واثق مما قلته. عاد "عرفات" وأصر على انه لن تكون هناك حرب دون ان يتكلم عن اية تفاصيل. في طريق خروجي سئلت السفير الفلسطيني "عزام الاحمد" عما اذا كان الأمر نبؤة من "أبو عمار" أم تخمين أم انه يعرف أشياء لا نعرفها نحن ؟ قال "عزام" لا علم له بذلك ولا يعلم أساساً لماذا أطلق "أبو عمار" لاءاته تلك وما هي حساباته. في مساء ذلك اليوم غادر "أبو عمار" بغداد بطريق البر الى عمان وكان ذلك بالنسبة لي جواباً على السؤال الذي طرحته على "عزام". فلو كان "ياسر عرفات" يعتقد فعلاً ان الحرب غير واقعة فلماذا يغادر بغداد التي قضى فيها معظم الأسابيع الماضية قرب حليفه "صدام" مشجعاً له وحثاً على تلك المغامرة اليائسة. في نفس الوقت كان "دي كويلار" يقضي وقته في قصر دجلة للضيافة على الجهة الأخرى من نهر دجلة مقابل القصر الجمهوري ينتظر استقبال "صدام" له. كنت أمتلك رقم

تلفون "قصر دجلة" وبقيت طيلة الفترة التي ظل فيها "دي كويلار" منتظراً على اتصال مع سكرتيه الصحفي "فرانسواز غولياني" الذي ظل هو أيضاً يفيدني بوضع "دي كويلار" وهو ينتظر في صالة تطل عبر النهر على قصر "صدام" الذي كان أنهى لقاءً مع وفد من "الحزب الاشتراكي الياباني" ثم اخذ غداءه وآوى الى فراشه لقيولة متجاهلاً الأمين العام للأمم المتحدة الذي جاء في مسعى لحل أخطر أزمة تواجه العام بانتظاره مثلما تجاهل 18 قراراً أصدره "مجلس الأمن" الدولي منذ بدء الأزمة. كنت انقل كل نصف ساعة أخبار انتظار "دي كويلار"، وهو في دار الاستراحة بالانتظار. أخبار لا تمس مهمته ولكن العالم كان بانتظارها : الآن بدأ غداءه، بعد ذلك قدم له وللوفد المرافق الشاي ثم خرج الى الشرفة التي تطل على دجلة، أو أي معلومة عادية كنت أحصل عليها من "غولياني" فاستلم اثرها مكالمات من مراسلي الإعلام الدولي الذين يتوسلون بان أدلهم على مكانه أو امنحهم رقم تلفون اقامته. كنت في الحقيقة ارسل (الا أخبار) لكني كنت متأكداً باني أنقل في تلك الساعات الحاسمة أهم أخبار ينتظرها العالم كله بقلق وخوف. وبعد حوالي ست ساعات وفي اخر مكالمة مع "غولياني" أخبرني بان رئيسه يتهاى الآن للذهاب لمقابلة "صدام" وانهم سيغادرون

بعد ذلك مباشرة الى المطار للعودة. وخلال ساعتين ونصف قضاها في محاولة اقناع "صدام" بقبول قرار مجلس الأمن والإعلان عن الانسحاب من الكويت لم يحصل الدبلوماسي البيروي المحنك الا على محاضرة من "صدام" من تلك التي كان يليقها على ضيوفه. في المطار وعلى سلم الطائرة التي كانت تقله الى باريس صرخ مصور للتلفزيون البريطاني بي بي سي بسؤال وجهه الى "دي كويلار" هل هي الحرب أم السلام ياسيدي؟ وبوجه متجهم استدار "دي كويلار" وبالإنكليزية قال: "لا أعلم، من يعلم؟" ثم صعد السلم بخطى وثيدة دون ان يستدير نحو بغداد التي ربما كان يعلم جيداً أنها كانت في تلك الساعات تودع أيام السلام الأخيرة. في تلك اللحظات كان "صدام" يتوجه الى قصر المؤتمرات للقاء مع مسؤولي أجهزة اعلامه لكي يوجههم الى الطريقة التي سيديرون فيها معركة العقول والقلوب في الحرب التي كان يدرك انها أصبحت الآن حقيقة مؤكدة. كان أهم ما ركز عليه "صدام" في كلامه الى مسؤولي آله الإعلامية هو الا انسحاب هناك من الكويت وان عليهم الا يصدقوا اي كلام بهذا الخصوص حتى لو كان تسجيلاً بصوته هو شخصياً يذاع من الإذاعة يتحدث فيه عن الانسحاب من الكويت. قال لهم ان ذلك سيكون

بالتأكيد خدعة من خدع الحرب يحوكها الأمريكان هدفها اشارة البلبلة في صفوف الشعب والقوات المسلحة.

*

صباح 14 كانون الثاني/يناير 1991 استيقظت مبكراً وفي الواقع لم انم ليلتها الا ساعات قليلة بعد أمسية مثيرة كان الهاجس الوحيد فيها هو سؤال مالذي تخبأه الساعات القادمة. لم يحتاج الأمر الى أية إجابة، الإجابة كنت أشاهدها في عيون الناس الذين بدؤوا يغادرون بغداد مستخدمين كل وسائل النقل المتوفرة حتى ان مدينة الملاين الأربعة بدت شبه فارغة من أهلها الذين يملؤها عادة بالضجيج والحركة. في حوالي الساعة العاشرة عقد "المجلس الوطني" اجتماعاً كان واضحاً ان الهدف منه هو إستعراضي لإظهار التفاف ممثلي الشعب حول "صدام" وأي قرار أو موقف سيتخذه. ما ان دخلنا نحن مجموعة الصحفيين الى قاعة المجلس حتى بدا الأعضاء رجالاً ونساء بمختلف الأعمار، وزراء واساتذة جامعيون، عربا بالمشاديش والعقال وأكرادا بالشراويل، رجال دين سنة وشيعة بالعمائم البيضاء والخضراء

كلهم وقفوا أمام الكاميرات وهم يهتفون بـ"الروح بالدم نفديك يا صدام".
ما ان بدأ رئيس المجلس "سعدي مهدي صالح" الجلسة حتى تبارى
الأعضاء واحداً بعد الآخر يدعون للجهاد ضد الأمريكان الكفرة. عضو
المجلس الشيخ "عبد الوهاب الهيتي" امام جامع في الرمادي وقف
بصوته الجهوري وكأنه يلقي خطبة الجمعة يهدر أمام الميكروفون
بانه وأعضاء المجلس، بل كل العراقيين مستعدون للإستشهاد في
الحرب اذا ما قامت وانهم سينالون الجنة جزاء لهم على ذلك. بعد ان
صوتوا على قرار بتأييد أي خطوة ستتخذها القيادة تركوا المجلس
وغادر كل منهم في سيارته "التبوتا" صالون موديل 1990 مسرعاً
وسعيداً بانه ألقى عن كاهله هما وأوكل الى "صدام" مهمة تقرير
مصير العراق في هذه اللحظات الرهيبة. في المساء طلبت من الأولاد
وأمرهم ان يحزموا بعض أمتعتهم وبعض المواد التموينية وخرجت بهم
الى "كربلاء" حيث قررنا ان يقضوا الأيام القادمة هناك على ان أعود
انا الى عملي.

*

صباح 15 كانون الثاني/يناير 1991 كان مشمساً على نحو غير عادي مثيراً دفناً ناعماً في هذا اليوم الشتائي البارد والمرعب حيث لم يكن بيننا وبين انتهاء الإنذار الا اقل من 24 ساعة. بغداد خاوية تماماً من ناسها الا ما في ندر. هذه المدينة التي ولدت فيها وترعرت في شوارعها ومشيت في دروبها كل سنوات عمري بدت موحشة وكأنها مقبرة هجرها حتى أمواتها. حتى الصحفيون الأجانب الذين كان معظمهم ينتظر فرصة عمره في تغطية بداية الحرب والبقاء في بغداد غادر معظمهم بعدما تلقوا رسائل من مؤسساتهم بان الحرب الآن أصبحت على الأبواب وأقرب مما كان يظن وتصر على مغادرتهم فوراً. ومع ذلك بقي عدد محدود من الصحفيين الأمريكيان والبريطانيين وغيرهم اما من محبي المغامرة واما من الباحثين عن فرص. في "فندق الرشيد" أخبرني "سعدون الجنابي" مسؤول الصحافة الأجنبية بان رئيس المجلس الوطني في مكتبه وهو مستعد لإستقبال الصحفيين. عندما وصلت الى بناية المجلس كانت فارغة الا من عدد صغير من الحراس وعدد أصغر من الموظفين كان القلق والوجوم مخيماً عليهم. عندما وصلت الى مكتب "سعدي مهدي صالح" وجدت لديه مجموعة صغيرة من الصحفيين الأجانب وهو يتحدث معهم عن الهزيمة التي

تنتظر الأمريكان اذا ما تجرؤا وشنوا عدوانهم على العراق. كلمات وشعارات نسمعها كل يوم منذ بداية الأزمة يرددها دون حماس وبفتور حتى كان واضحاً لمن يسمعه ان الرجل غير متيقن مما يقوله. فجأة بدر في ذهني سؤال طرحته عليه: من سيقود الحرب اذا وقعت؟ والواقع كنت أتوقع بما سيجيبني ولكني كنت أريده ان يقول هو ذلك بنفسه لكي أخرج بخبر اليوم الذي كنت أبحث عنه من هذه المقابلة بعيداً عن الشعارات التي كان يحفظها ويردها. أجابني بشيء من الإستخفاف بسؤالي: طبعاً السيد الرئيس القائد حفظه الله ورعاه هو الذي سيقود المعركة القادمة، مضيافاً وسيلقنهم شر هزيمة ان شاء الله. قلت في نفسي ذلك يكفي شكرته وغادرت مسرعاً الى مكتبي حيث أرسلت خبراً يقول ان "صدام" يستعد لقيادة قواته في الحرب التي ستنتهي مهلة تفاديها بعد ساعات قليلة. وفي خلال دقائق كانت اذاعات وتلفزيونات العالم كلها تردد بان "صدام" هو القائد العراقي الذي سيتولى قيادة القوات العراقية في الحرب التي كانت تفصلنا عن انطلاق طلقتها الأولى مجرد ساعات. عند غروب شمس هذا النهار كان معظم سكان بغداد قد غادروها الى المدن الباقية والأرياف في أكبر هجرة عكسية شهدتها المدينة في تاريخها الحديث. في المساء

كان الظلام يخيم على بغداد بينما ظلت شوارعها مقفرة تماماً الا من نقاط تفتيش اقيمت على عجل في بعض الأماكن. بعد ان ارسلت آخر خبر عن المدينة التي تنتظر حرباً شعواء بعد ساعات قليلة وفي حوالي الساعة العاشرة والنصف قررنا أنا وزميلي الهندي "ديليب كنگولي" الذي جاء لمساعدتي خلال هذه الفترة ومصورنا الإسباني "دومينيك مولارد" ان نذهب لنتعشى سمكاً مسكوفاً على ضفاف نهر "دجلة" في شارع "أبو نؤاس" هذا اذا وجدنا محلاً لا يزال مفتوحاً في هذه الليلة. قال "كنكولي" الذي قضى معظم ايامه في بغداد يأكل المسكوف انها ربما ستكون المرة الأخيرة اذ من سيضمن مالذي سيحدث بعدها عندما تبدأ القنابل تدك هذه المدينة بمن فيها. الغريب انا وجدنا فعلاً ان احد المطاعم لا يزال مفتوحاً في ذلك الوقت المرعب وبدأ رجلان كانا يخدمان فيه تجهيز سكرة كبيرة ووضعها على النار للشوي بينما وفرا بعض المشروبات والخبز والسلطة. كان موقع المطعم الذي لم يكن غير سقيفة من سعف النخيل وحوض فيه السمك وحفرة للنار وبعض العدة الأخرى فريداً مقابل القصر الجمهوري وهو ما كان هدفنا منذ البداية في البحث عن مكان نحاول ان نبقي فيه لأخر وقت ممكن فقد يتسنى لنا مشاهدة القنابل والصواريخ وهي

تسقط على بغداد اذ لابد ان يكون القصر الجمهوري هو أول هدف لها. سألت احد الرجلين في المطعم ما ذا تظن سيحصل الليلة ربما بعد ساعة من الآن؟ نظر أولاً الينا باستغراب وسأل من نحن فقلت له اننا صحفيون. وجَلَّ الرجل عندما سمع الكلمة ثم أجاب بحماس ان الأمريكان جبناء وهم مجرد صبية يشربون البيرة ويأكلون الشيكولاتا ولن يتجرؤا على شن الحرب وحتى لو شنوها فان العراقيين سوف يهزمونهم شر هزيمة. قلت له بجرأة لم أعرف كيف واثتني بان تلك هي مقولة "صدام" وهو قالها قبل أيام في التلفزيون ولكن ما رأيك انت في الموضوع. أجابني بان ما يقوله الرئيس هو الصحيح دائماً. عندما سألته ماذا لو ان احدى الطائرات الأمريكية التي ستغير الليلة ستسقط احدى قنابلها على مطعمه هذا خطأ؟ أجابني: ان ذلك لن يحدث لأن العراقيين لن يدعوا الطائرات الأمريكية تصل الى هنا أبداً غير انه بدا غير مقتنع بما يقوله. تعدت الساعة الثانية عشرة ولم يحصل ما كان متوقعا وبدأت اتساءل مالذي يحدث الآن على جبهتي الصراع. عشرات الأسئلة بدأت تتزاحم في ذهني ومن بينها سؤال اكثر الحاحاً هل فعلها "صدام" ووافق في اللحظة الأخيرة على الإنسحاب من "الكويت" الا ان الجواب ظل هو هو..لقد فات الأوان ليس الآن ولكن منذ أيام حيث

ضيع صدام فرصته الأخيرة والآن ما عاد أمامه الا ان ينتظر الصواريخ وهي تنهمر والجيش وهي تزحف.بعد الواحدة طلب منا الرجل الذي كان يدير المطعم ان نرحل ربما لأن سيارات شرطة النجدة كانت لا تنقطع عن المرور بأضويتها الحمراء والرزقاء في الشارع المطل على قصر الرئاسة وخشي ان يدخل رجال الشرطة مطعمه ويشاهدونا فيه. اوصلت الزميلين الى "فندق الرشيد" حيث كانا يقيمان فوجدت في مدخله عدد من الصحفيين الأمريكيان والبريطانيين الذين تدافعوا يسألونني عن الوضع في المدينة التي منعهم رجال الأمن من النزول اليها بعد الغروب. انا بدوري سألتهم ان كانوا يعرفون شيئاً ولماذا لم تبدأ الحرب حتى الان. بادرت "ماري كولفن" من "الصاندي تايمز" اللندنية الى المزاح فقالت يبدو انك على عجل وتريد ان تتخلص من "صدام" سريعاً انتظر قليلاً فسوف تسمع "البنغ بانغ" (الصوت المدوي) عن قريب. في البيت شعرت وكأن اليوم الذي مضى قبل ساعتين كان أطول يوم عشته في حياتي. رغم الإرهاق الشديد لكني لم أشعر برغبتي للنوم عندما جلبت غطاء وتغطيت به وانا جالس على أريكة في الصالة بينما تركت المذياع على "صوت اميركا" ومذيعيها يقرأون نشرات الأخبار والتقارير بينما يتبارى محللون في كلام بلا معنى بارد

كبرد هذه الليلة اللعينة دون ما يفيد بان الحرب قد بدأت. راودني سؤال هل يجلس أي واحد من هؤلاء الذين يثرثرون الآن كما أجلس انا وغيري من ملايين العراقيين وهم يتربعون اذا ما كانت قبلة أو صاروخ ستنزل على سطح منزله أو منزل عزيز اليه فتقتله وتحيل بيته الى تراب؟ لا أحد غيرنا في هذا العالم نحن العراقيين يتربع موتته في هذه اللحظات. هل لو سقط الآن صاروخ سيعلم أهلي الذين لجؤا الى ملاذ آمن في "كربلاء" بما جرى لي؟ ثم من قال انه ملاذ آمن وماذا لو سقط الصاروخ على رؤسهم كيف لي سأعرف؟ أسئلة مرعبة كثيرة حاولت ان اتفادها. سؤال أخير هل بإمكانني النوم الآن وليحدث ما يحدث فقد تعودنا نحن العراقيين منذ زمن طويل على الإنذارات الأخيرة والضربات القادمة والحروب التي تشن علينا او نشنها دون انذارات. لكن ما جدوى النوم دون أحلام هنية يستحبل ان تأتي في هذه الليلة اللعينة التي بدأت تصبح أطول من اليوم الذي سبقها. في الثانية وأربع دقائق رعدت السماء في الخارج بدوي انفجارات أخذت معه جدران البيت وأبوابه وشبابيكه تهتز. دقائق والسماء تبرق بينما الأرض تهتز وأصوات الانفجارات تتعالى من أماكن تبدو قريبة جداً حتى شعرت وكأن البيت سيسقط علي في أية لحظة. أسرع الى

اطفاء الأنوار في البيت تماماً مثلما تعلمنا من الحروب السابقة فساد
ظلام دامس وفي تلك اللحظة تقطع "صوت أمريكا" برنامجها لتذيع
تصريحاً من "مارتن فيتزوتر" المتحدث باسم الرئيس الأمريكي "جورج
بوش" يعلن بدأ حرب تحرير "الكويت". الآن أسرع إلى التلفون لكي
اتصل بـ"كنكولي" الذي اتفقت معه أن يبقى إلى جانب غرفة التلّكس
في الفندق لكي يبعث إلى الوكالة نبأً بدأ الحرب حالما نسمع بنزول
أول صاروخ. بعدما تأكدت أنه فعل ذلك حاولت الإتصال بالأهل لكي
أطمأنهم واطمأن أنا بدوري لكن الحرارة كانت قد اختفت وخمنت بأن
أحدى القنابل لا بد وانها أصابت مركز الإتصالات. هذه هي اذن أول
بؤادر العودة إلى العصر ما قبل الصناعي التي حذروا "صدام" منها
لكن لا بأس فالمهم الآن نعود إلى عصر ما قبل التاريخ. الآن أصبح
بالإمكان سماع دوي الطائرات وهي تلقي حمولتها وأصوات المضادات
العراقية وهي ترد عليها بالطلقات التي حولت السماء إلى كتل من
النار بينما تستمر الصواريخ تهطل على بغداد دون توقف. لا بد أنهم
يقصفون "مصفى الدورة" النفطية القريبة وقواعد الدفاع الجوي
المحيطة بها ثم إن مقرات الحرس الجمهوري والمعسكرات الأخرى
ليست بعيدة ولا بد أنها هي أيضاً تتعرض الآن لضربات الصواريخ

والطائرات. بعد حوالي ساعتين يأتي صوت الرئيس "بوش" نفسه يعلن أسبابه لخوض الحرب بعد ان استنفذت كل الجهود الدبلوماسية لإقناع "صدام" بالانسحاب من الكويت التي قال ان هدفه تحريرها. في نفس الوقت تتوقف الانفجارات ويسود صمت ثقيل. مع أول ضياء من النهار أطل برأسي الى الشارع لكي أرى ان كانت البيوت من حولي لا زالت قائمة في مكانها ومن بعيد كانت أعمدة الدخان تتصاعد حتى انها بدت تتلاحم مع نتف الغيوم التي تحوم في سماء المدينة. لا ادري كيف غفيت ولكنني وجدت نفسي بعد عدة ساعات نائماً فوق نفس الأريكة التي كنت مضطجعا عليها عندما بدأت الحرب... نعم الآن يمكن ان نقول ان الحرب بدأت ويبقى السؤال كيف ستنتهي.

*

هذا اليوم 16 كانون الثاني/يناير 1991 لابد ان يكون يوماً تاريخياً عصيباً آخر من بين تواريخ عصيبة عديدة مرت على بغداد منذ ان بدأ "أبو جعفر المنصور" ببنائها عام 145 هجرية وجعلها عاصمة لحكمه وبعد ذلك لامبراطورية عاشت أربعة قرون. الساعات

الطوال التي استمر فيها القصف حولها الى مدينة أشباح تتصاعد من كل جوانبها أعمدة النار والدخان وعدا ذلك فليس فيها من دلائل الحياة الا صفارات الإنذار تضرب بين الحين والآخر لتعلن عن بدأ غارة أو انتهائها ورجال الدفاع الجوي الذين نصبوا مدافعهم فوق سطوح الأبنية وهم يطلقونها بين الفينة والأخرى صوب أهداف لا يراها احد. في حوالي الثامنة صباحاً اشتد القصف مرة اخرى وتوالت الانفجارات التي بدا بعضها على أهداف في وسط المدينة. في طريقي الى "فندق الرشيد" شاهدت بعض الأهداف التي ضربتها الطائرات أو الصواريخ الأمريكية والتي كان من بينها "مصفى الدورة" ومحطة توليد الطاقة الكهربائية القريبة منها ومركز الإتصالات التلفونية الدولي في السنك ومقرات الحرس الجمهوري والقصر الجمهوري ذاته وعندما اقتربت أكثر كانت الطائرات الامريكية قد سبقتنني الى ضرب دار الإذاعة والتلفزيون في الصالحية. في "فندق الرشيد" اكتشفت ان العديد من الصحفيين الأجانب الذين كانوا قد قرروا البقاء في بغداد قد غادروها الى عمان في الصباح الباكر ومن بينهم زميلي في الوكالة "كنكولي" وزميله المصور ربما بعد ما شاهدوه من رعب القنابل والصواريخ المتساقطة على المدينة ليلة أمس. لم يبق في الفندق الذي حولته الآن وزارة

الإعلام الى مركز صحفي لها الا حفة صغيرة من الصحفيين الأميركيين والبريطانيين وصحفي اسباني واحد. كان جو الفندق مثيراً حقاً حيث التوتر باد على تصرفات موظفي وزارة الإعلام ورجال المخابرات الذين بدأوا يتعامل مع الصحفيين بينما نصب العديد من فرق التلفزيون الأمريكية والبريطانية أجهزة البث عبر الأقمار الاصطناعية في حديقة الفندق وبدأوا يبثون منها تقاريرهم من هناك بعد ان انقطعت كافة خطوط الإتصال الأرضي ليس مع العالم الخارجي فقط بل داخل بغداد ذاتها. استغربت جداً من وجود هذه الأجهزة التي كان طبيعياً ان تفكر بإرسالها أية مؤسسة إعلامية كبرى تخطط للعمل في مثل هذه الظروف ولكن السؤال كيف سمح لها العراقيون وهم الذين يصادرون حتى ماكينة الطباعة العادية قبل ان يحصلوا على ترخيص بذلك. تذكرت كيف احتد وأرغى وأزبد وزير الإعلام "لطيف نصيف جاسم" عندما سألته قبل الحرب بأيام عما اذا كانوا قد خططوا لمثل هذا الإحتمال ووفروا البدائل للإتصالات. كان الوزير يرتعب من أي سؤال يتعلق بهل أنتم مستعدون لحرب مع أمريكا. ولاني لم أكن أمتلك أية وسيلة اتصال فقد رجوت من مراسلي "بي.بي.سي" ان يسمحوا لي باملاء تقرير عن التطورات الأخيرة الى مكتب الوكالة الإقليمي في

"قبرص" ولم يترددوا في ذلك. اخبرت "تيك لودينكتن" مدير مكتب الوكالة الإقليمي بالوضع الآن وبصعوبة الإتصال وتركت له مسألة التفكير في توفير وسيلة ما للعمل. في تلك اللحظات التي اعقبت اتصالي مع "لودينكتن" جلست لوحدي على سياج الممر في حديقة الفندق وتحت شمس تخرق نتف الغيوم المحلقة فوق سماء المدينة لكنها لازلت تبعث أشعتها الدافئة وشعرت بشيء من الراحة ربما لأول مرة منذ أيام طويلة. فها هي الحرب تأتي أخيراً وأنا غير قادر على تغطية أحداثها بسبب عدم وجود وسيلة الإتصالات. فكرت في الأمر ملياً لكنني لم أصل الى نتيجة. كنت أعلم بان تغطية حرب كهذه هي مهنيّاً فرصة العمر التي لا تعوض بالنسبة لأي صحفي يعمل على مستوى عالمي وهؤلاء الصحفيين الذين بقوا في بغداد قرروا ذلك بمحض ارادتهم لأنهم يعرفون مالذي سيعنيه ذلك يوماً ما حين تنتهي الحرب ويكونون قد حصلوا على الشهرة وربما أيضاً على الجوائز وحيث سيكتبون الكتب التي يظهرون فيها بطولات زائفة. قررت ان أمنح نفسي وقتاً للتفكير الجدي في هذا الأمر فانا لم أكن مثلهم أبحث عن المجد بل مجرد صحفي وجدت نفسي في هذه المعمة ورأيت ان أقوم بواجبي المهني قدر استطاعتي ثم ان الحقيقة هي اني لن

استطيع منافستهم لأسباب شتى مهما اجتهدت في ذلك فبالتالي انا عراقي وهم "خواجهات" على رأي المصريين ومهما سيكون ادائي من الناحية المهنية فأنهم سيحصلون على الشهرة بحكم هويتهم. إضافة الى ذلك وهو الأهم بالنسبة لي كنت منذ أدركت بفطرتي ان الحرب قادمة لامحالة سئلت نفسي ان كان علي الإستمرار في هذا العمل وفي وكالة أمريكية في الوقت الذي ستدخل فيها بلادي الحرب مع أمريكا. كنت فكرت في موضوع تقديم استقالتي من عملي في الوكالة ملياً قبل أسابيع من الحرب وطرحت الأمر على بعض المسؤولين في وزارة الإعلام بشكل شخصي وليس رسمي الا انهم أبلوغوني بان الوزير قد يسيء فهم دوافعي ويعتبر الأمر احتجاجاً على تدخلات الوزارة وقد يغضبه ذلك. أصبح اتخاذ قرار سريع بهذا الشأن مسألة أصعب بعد بدأ الحرب ولذلك قررت ان استغل مسألة عدم توفر وسيلة اتصال لأختلي بنفسي فترة وأرى مالذي يمكن ان أقرره بعد ذلك. بعد الظهر تركت "فندق الرشيد" وقررت ان أذهب الى "كربلاء" حيث تركت اسرتي الصغيرة عند عائلتي الكبيرة. في الطريق كانت الطائرات الأمريكية والحليفة معها تُغير على أهداف معظمها منشآت التصنيع العسكري ومعسكرات الجيش أو قواعد الدفاع الجوي بينما ظلت مدافع المقاومة

الأرضية تهدر الا أن المشهد بدا لي سريالياً. لم أكن أعرف كيف اتصرف، هل اقف واركن سيارتي في مكان ولربما سيأتيني شيء من حمم هذه النار التي تشتعل من حولي أو هل أستمر في السير ولربما لن تكون النتيجة مغايرة بسبب كثرة الأهداف التي كانت تضرب على جانبي الطريق خلال وقت الرحلة التي تضاعفت الى حوالي ساعتين. عندما وصلت الى "كربلاء" كانت المدينة برمتها قد تحولت الى معسكر كبير للملاجئين يفترشون الشوارع والأزقة المحيطة بالمرقدين وفي البيت كان أفراد العائلة الذين اجتمعوا من كل حذب وصبوب هاربين من جحيم بغداد في حالة من القلق الشديد اذ وجدت ان شأن "كربلاء" كان كشأن باقي المدن العراقية التي أصبحت معزولة تماماً عن أية وسيلة اتصال مع "بغداد" أو باقي أنحاء العراق. الا ان المشهد داخل البيت كان مثيراً فعشرات الرجال والنساء والأطفال انحشروا في أرجاءه حيث بدا أشبه بمخيم للاجئين. وحين حل الظلام على البيت وكانت "كربلاء" قد عانت هي أيضاً من قطع التيار الكهربائي عنها لم يكن هناك بد من الإستعانة بالشموع والفوانيس التي اجتمع الجميع حولها في باحة الدار يستمعون الى الأخبار التي كانت تبثها الإذاعات العالمية عن الحرب عبر راديووات الترانزتر. ولأول مرة كنت أسمع حوارات سياسية

ساخنة فيها شيء من حرية الرأي والتحليل لم أرى أو اسمع بها من قبل حتى بين أفراد عائلة واحدة. كانت عقدة لسان الكثيرين قد حلت وبدأ البعض يلوم "صدام" على مغامرة احتلال "الكويت" التي اوصلت البلد الى ما هو عليه. البعض كان متحفظاً بينما انتبه بعض الكبار الا ان مثل هذا الحديث لا يجوز أمام الصغار غير مدركين ان أولئك الصغار لم يعودوا منذ هذا اليوم صغاراً فقد أجبرتهم الحرب حتى منذ يومها الأول على التخلي عن البراءة وادراك قسوة الواقع الذي يعيشونه مع آبائهم وامهاتهم، بل بشاعة الحياة التي يحيونها. قبيل منتصف الليل كانت أصوات الانفجارات تدوي من بعيد مختلطة بأزيز الطائرات المغيرة على بعض المعسكرات ومستودعات الأسلحة القريبة من المدينة. الآن يدرك الجميع ان لا موضع في العراق، وحتى مدنه المقدسة، كان في مأمن وان كل العراق أصبح جبهة الحرب اللعينة هذه.

*

بعد أسبوع من بداية الحرب أصبح واضحاً ان استراتيجية
الأمريكان تعتمد على استخدام الطيران وصواريخ "كروز" التي تطلق
من السفن في حرب إستنزاف طويلة هدفها تدمير القوة العسكرية
العراقية تماماً اما لإجبار "صدام" على الخضوع والإسحاب من
"الكويت" أو تهيئة الظروف اللازمة للغزو البري لإتمام ذلك الهدف
عسكرياً ان واصل عناده. قررت العودة الى بغداد والى "فندق الرشيد"
يوم 23 كانون الثاني/ يناير 1991 لأرى إمكانية العمل من هناك.
مسؤولو وزارة الإعلام اخبروني حالما شاهدوني ان الوزير قد قلب
الدنيا بحثاً عني. في تلك الأثناء ظهر مسؤول المركز الصحفي
"سعدون الجنابي" الذي بادرني: "أين كنت لقد دُخنا بالبحث عنك؟
أجبتة ببرود: " خير انشاء الله؟ سألني بإستنكار: "الست مراسلاً لوكالة
أنباء أمريكية؟ من ينقل أخبارنا الى الأمريكان اذا اختفيت؟ لكن كيف
أعمل وليس لدي وسيلة إتصال؟ لم أجد جواباً لكن أحدهم نقل لي وهو
يأخذني جانباً بان الوزير هدد بأنه سيعدمني في حديقة الفندق ان لم
استأنف العمل فوراً. لم أرد ان أضيع وقتاً في نقاش عقيم فقد كنت
أدرك مغزى الحاحهم فذهبت الى فريق "بي.بي.سي" وطلبت مساعدتهم
على العمل بإستخدام جهاز التلفون بالإقمار الصناعية الذي بحوزتهم

كي أكلم مكتب الوكالة الرئيسي فوافقوا على الفور. حين كلمتهم وجدتهم في قلق بشأني وشرحت لهم الموقف فاخبروني انهم بصدد ارسال جهاز تلفون مماثل كما أعلموني بانهم سيتفقون مع الـ "بي. بي. سي" على توفير الخدمة في هذه الأثناء لقاء مقابل ريثما يصل الجهاز الخاص بي.

بينما كنت في مكتب الـ "بي. بي. سي" في الطابق السابع من الفندق اشتد القصف الصاروخي على "بغداد". كنت أشاهد من شباك الغرفة أعمدة الدخان وهي تتصاعد من مختلف الأماكن في المدينة بينما أصوات الانفجارات تتوالى وفجأة ظهر جسم أمامي من مسافة قريبة وبدا أشبه بطائرة صغيرة تحوم فوق المنطقة المحيطة بالفندق والتي تظم أيضاً منطقة القصر الجمهوري وعدة مؤسسات عسكرية وحزبية ورسمية. بين التساؤل والإرتباك والفرع شاهدت اطلاقات تنطلق من المدافع المضادة للجو المنصوبة على تلال صناعية تم اقامتها في "منتزه الوزراء" المقابل باتجاه الجسم الطائر الذي كان نفس اتجاه الفندق. ارتميت بسرعة على الأرض لكي اتفادى إمكانية ان تصيب الطلقات التي بدأت تمطر باتجاه السماء حين سمعت انفجاراً مدوياً هز الفندق وادى الى تطاير الشبابيك وتكسير الزجاج.

وجدت الزملاء الصحفيين البريطانيين وقد قفزوا باتجاه الباب وسرعان ما لحقت بهم نزولاً على سلم الطوارئ باتجاه ملجأ الفندق في طابق تحت الأرض. كانت الدقائق التي مرت بمثابة ساعات قبل أن نصل الى الملجأ الذي احتشد به من تمكن من الوصول اليه من النزلاء وكلهم من الصحفيين الأجانب وموظفي وزارة الإعلام والمخابرات الذين كانوا يراقبون عملنا. وجدت بعض الخدوش البسيطة على يدي ورأسي لكني لم أشعر بوجود جروح عميقة في أي مكان آخر وكان ذلك بفضل انبطاحي السريع على طريقة الجنود والتي تعلمتها اثناء خدمتي في الجيش. ساعدني بعض الزملاء على تنظيف الخدوش بما توفر من المناديل الورقية كما تأكدوا من عدم وجود جروح تحت شعر الرأس وقبل مضي وقت ليس بالقصير قررت ومعني بعض الصحفيين الآخرين الخروج من الملجأ. كان هيكل الفندق سليماً ولم يبدو انه اصيب بضربة مباشرة الا ان العديد من الأبواب والشبابيك والواجهات الزجاجية كانت قد تساقطت مما أثار إستغرابي لأن الانفجار كان قريباً جداً من الفندق رغم انه لم يكن بقوة الانفجارات التي تعودنا عليها الآن وأصبحنا نميز بين ما هو صاروخ "كروز" وبين ما تذفه الطائرات من أنواع القنابل. دفعني فضولي للخروج لكي أتبين بعيني ما حدث. كان

الناس الذين بدأوا يتجمعون في منطقة ملاصقة للفندق يتحدثون عن اسقاط طائرة وانفجارها لكن الغريب ان الطائرة التي تحدثوا عنها كانت قد سقطت على بعد عشرات الأمتار من موقع الانفجار مما أثار حيرتي أكثر ودفعتني الى الإتجاه الى الحفرة التي أحدثها الانفجار والتي سرعان ما تبين لي انها تحتضن رأساً حربياً اتضح انه لم ينفجر بعد. ابتعدت بسرعة عن موقع الحفرة كما حذرت بعض رجال الشرطة الذين جاؤا الى المنطقة من عدم العبث بالرأس الحربي لأنه لم ينفجر. على بعد عشرات من الأمتار كان الجسم الذي رأيته يحوم من قبل وقد تكوم على رصيف الشارع المحاذي للفندق ولم يكن الا جسماً لصاروخ "كروز". عدت بذاكرتي الى المعلومات التي أعرفها عن الصاروخ "كروز" والذي يطير مستخدماً أجهزة الكمبيوتر التي تتصل بالأقمار الاصطناعية لتحديد هدفه ولم أجد تفسيراً لما حدث سوى ان الصاروخ او العقل الإلكتروني الذي يقوده ضل طريقه وهو ما يحدث أحياناً رغم التوجيه الدقيق له وعندما يضل طريقه فانه يبطيء من سرعته لكي يدقق مرة ثانية في مكان الهدف. والواضح انه في تلك اللحظة والتي كنت أراقبه فيها وهو يحوم بالقرب من الفندق تمكن احد الرماة في تلة المدافع المضادة للجو من اصطياد الصاروخ وعند ذلك وكما هو

مبرمج في عقله الألكتروني فان الصاروخ لا يطلق الرأس الحربي بل يسقطه دون تفجير طالما انه لن يسقط على الهدف المرام. لو كان الرأس الحربي الذي يزن حوالي خمسمائة كيلو غرام قد انفجر هناك لكان الفندق وكل من فيه تحولوا الى كومة من التراب. حمدت الله على ذلك.

*

فجر يوم 7 شباط/ فبراير 1991 صحونا على عويل وجلبة في شارعنا يمزق السكون الذي خلفه توقف القصف الجوي لفترة قصيرة. ما ان خرجت من باب الحديقة الخارجي حتى انتصب أمامي تابوت ملفوف بالعلم العراقي مضطجع على سطح تاكسي ويقف امام بيت جارتنا أم على والتي وقفت هي وبنتيها يولولون بينما بدأ جيران آخرون يتجمعون حول المشهد الذي بدا مستعادا من أيام الحرب العراقية الإيرانية. سرعان ما اتضح ان التابوت هو لزوج البنت الكبرى الضابط الذي استلم قبل أيام قليلة سيارة جديدة ونوطا للشجاعة قيل ان "صدام" منحهما له بعد ان اسقطت وحدة صواريخ أرض جو يقودها

أحدى الطائرات الأمريكية في أول يوم للحرب. هذا اذن يوم آخر أصبحت فيه الحرب إلنا أقرب مما كنا نزن. أمس كانت حصيلته من القتل بين المدنيين كبيرة جدا. في الناصرية ضربت الطائرات المغيرة جسرا فقتلت 150 شخصاً كانوا يعبرونه بينهم أطفال ونساء. في المساء ضربت الطائرات جسر الجمهورية وعندما ذهبت لمشاهدته هذا الصباح كان تدميره كاملاً تقريباً حيث سقطت معظم هياكله ولم يتبق منه سوى الأعمدة المغروسة في قاع النهر. طالما أحببت هذا الجسر الذي لم أنسى يوم افتتحه "الملك فيصل الثاني" عام 1957 وسماه "جسر الملكة عالية" تيمناً بأسم أمه حيث كنت من بين أطفال المدارس التي أخذونا نرحب بالملك. صاروخ آخر ربما أخطأ الجسر وضرب "سينما الرصافي" أمام ساحة "حديقة الأمة" القريبة فدمرها مع عدد كبير من الدكاكين والمنازل المجاورة. المنظر يدفع الى الاعتقاد الى انها حرب مدن هدفها نقل جبهة القتال الى قلب العاصمة "بغداد". ولكن السؤال ظل فيما اذا كان هناك هدف آخر الا وهو إشعار العراقيين بما عليهم ان يفعلوه اذا هم ارادوا انتهاء الحرب قبل ان تأتي الطائرات والصواريخ على بقية مدنهم.

لم يكن فجر يوم 13 شباط/ فبراير 1991 يَغُرُّ بعد ليلة مرعبة امتزج فيها البرد القارس بالظلام الدامس وبدوي القنابل حتى صحونا على طرق عنيف على باب الدار الخارجي. كما فعلنا في الليالي الماضية كنا نحن العائلة قد تجمعا في فراش واحد وضعناه في زاوية من البيت اعتقدنا انها ستوفر حماية أفضل لو سقط فوقنا صاروخ أو قنبلة. الولدان الصغيران ظلا ملتصقين بي طيلة الليلة ربما كان ذلك يزيدهما دفئاً أو يمتص خوفهما الذي كان يزداد مع أزيز الطائرات المغيرة والصواريخ المتساقطة. الطرقات على الباب في هذا الوقت وفي مثل هذه الظروف ليست شيئاً مريحاً ان لم يكن مرعباً. عندما مددت برأسي من شباك المطبخ المقابل للباب لمحت وسط نور بدا انه مسلط من مصابيح سيارة أحد الجيران وهو يشير الي بان أخرج في الوقت الذي بدا ان بعض الجيران احتشدوا في الشارع. خلال أيام الحرب كان الأمر عادياً ان يتواجد الجيران في الشارع في تلك الأوقات اما للدردشة مع بعضهم او للحراسة خشية قدوم لصوص يسرقون البيوت الفارغة من سكانها. ما ان خرجت اليهم حتى بادرنى أحدهم وهو ضابط شرطة

نجدة بالسؤال ان كنت علمت أين وقع أحد تلك الصواريخ المرعبة التي دكت المدينة قبل وقت قصير. من أين لي ان أدري؟ أجبت بإستغراب. قال انه عاد لتوه من مكان سقوط الصاروخ على "ملجأ العامرية" حيث قضى معظم الوقت ينقل الجرحى والموتى الذين سقطوا بالضربة الصروخية للملجأ. شعرت انه يبلغني بذلك لإثارة اهتمامي وفضولي الصحفي أكثر من أي سبب آخر. لم أضيع الكثير من الوقت حتى ارتديت ملابسني وقفزت الى داخل سيارتي في طريقي الى مكان الملجأ الذي أعرفه جيداً. عندما وصلت الى هناك بعد حوالي نصف ساعة كان المشهد أكثر فضاعة مما توقعت او مما سبق وان رأيت أثناء الحرب مع إيران من مشاهد الموت والدمار. كان عمال الإنقاذ لا يزالون في الموقع بينما انتشرت جثث محروقة أغلبها لنساء وأطفال خارج الملجأ الذي ظل يتصاعد منه الدخان. كان العديد من الناس يحاولون ان يتعرفوا على أصحاب الجثث التي كان معظمها متفحماً ومقطوع الأوصال بينما ارتفعت الأصوات بالعيول والصراخ. بعد جولة قصيرة أحصيت فيها عدداً من الجثث وتكلمت اثناءها مع مسؤولي الدفاع المدني أسرع الى "فندق الرشيد" لكي أبث الخبر الى مكتب الوكالة في "نيقوسيا". المحررة الأمريكية المناوبة يبدو انها غير

مصدقة أو غير مقتنعة وأنا أملها الخبر على التلفون. تسأل هل انا شخصياً من شاهد الملجأ المحترق أم ان الإعلام العراقي هو الذي اذاع ذلك الخبر وهل انا متأكد من انه ملجأ لحماية المدنيين؟ يستفزني السؤال لكني أدرك انها حرب شرسة لا يقتصر الصراع فيها على ميدان القتال وان الحرب الإعلامية والسايكولوجية أشد ضراوة من القنابل والرصاص. سمعت زميلي "جيرمي باون" مراسل تلفزيون "بي.بي.سي" الذي نقلت له تفاصيل ما رأيت يرد بامتعاض على سؤال مشابه من محرر الأخبار في المحطة الرئيسية في لندن فيرد عليه "جيرمي" بانفعال فأرتحت لأنني شعرت بان سؤال المحررة لدينا لم يكن موجهاً لي لأنني عراقي وربما شكت في روايتي للخبر. لقد كان قصف "ملجأ العامرية" حدثاً بشعاً ومأساوياً لكنه كان ساعتها أكبر من تصوراتنا جميعاً ولأن الضحايا كانوا يسقطون في كل مكان من العراق يومها فسرعان مالفه النسيان وضاع في زحمة أخبار الحرب الأخرى. غير ان أسئلة عديدة حول ظروف الحادث ظلت دون إجابة حول لماذا استهدفت الطائرات الامريكية الملجأ تلك الليلة، وهل كان "صدام" يختبئ هناك فعلاً كما قيل وهل كان هو هدفاً من العملية؟ وهل كان قتل كل هؤلاء البشر ثمناً مستحقاً لأي هدف؟ حينها ظننت انها أسئلة

ربما سيجيب عنها من لديه الإجابة في وقت ما او انها لربما ستنتهي الى ادراج النسيان مثلها مثل العديد من الأسئلة المتعلقة بهذه الحرب.

*

ما ان أعلن الرئيس "بوش" وقف إطلاق النار فجر يوم 28 شباط/فبراير 1991 حتى بدأ سكان بغداد باطلاق العيارات النارية بالهواء. خرج الرجال والشبان من كل بيت وفي كل شارع وفوق الأسطح يحملون بنادق الكلاشنكوف والمسدسات وهم يطلقونها في الهواء يودعون أصوات القنابل والصواريخ التي كانت تنهمر حتى قبل ساعات قليلة بالرصاص. كانت آخر طلعة جوية للطائرات الأمريكية التي شاهدها هي تلك التي استهدفت مبنى القيادة القومية لحزب البعث وتمثال "ميشيل عفلق" الذي يرتمي الآن منبطحاً في حديقة المبنى ولا بد ان ذلك كان رسالة ما يوجهها الطيارون الامريكيون الى "صدام". في الصباح الباكر افتتح مذيع اذاعة بغداد البرامج بصوته المدوي وهو يقول "هنا بغداد صوت العزة والكرامة" وظل يكرر تلك العبارة مرات عديدة قبل ان يطلع نفس المذيع بعد دقائق ليعلن قبول العراق بكل قرارات "مجلس الأمن" ومن بينها قرار 622 الذي يطالب العراق اعتبار

قراره بالحاق "الكويت" به باطلاً وغير شرعي. بعد ساعات يخرج "صدام" على العراقيين وهو يقرأ بنفسه (كان ذلك مطلباً أمريكياً) قرار "مجلس قيادة الثورة" بقبول وقف اطلاق النار بالشروط التي أعلنها "بوش" غير انه انهى كلمته بقوله "ان القسطنطينية لم تفتح بمعركة واحدة"، أي بعبارة أخرى انه كان يريد القول بان معركته مع أمريكا لم تنته وانها كسبت معركة ولكنها لم تكسب الحرب مما يذكرني بما قاله "جمال عبد الناصر" حين انهزم في حرب الأيام الستة مع اسرائيل عام 1967.

*

بدأت الأخبار تتواتر يوم 3 آذار/ مارس 1991 عن اضطرابات وتحركات وتمردات شعبية في المدن والقصبات في المحافظات الوسطى والجنوبية والتي بدأت تتساقط بيد منتفضين بينما يفر المسؤولون الحكوميون والحزبيون منها. الإعلام الرسمي يتكتم على ما يحدث لكن كان واضحاً ان هناك بوادر انتفاضة شعبية في هذه المناطق اندلعت وسط التذمر الذي كان يغلي في نفوس العراقيين والذين كانوا ينتظرون فرصتهم للثورة. في بغداد كانت الأجواء متوترة أيضاً ولأول مرة تنزل أعداد كبيرة من قوات الطوارئ الخاصة بالحرس

الجمهوري وتسيطر على التقاطعات الرئيسية في المدينة كما تطوق
أحياء "مدينة صدام" و"الشعلة" و"الكاظمية". أعضاء حزب البعث الذين
اختفوا طيلة أيام الحرب يظهرون مجدداً وهم يحملون أسلحتهم
يجوبون الشوارع والأزقة. في موقف الحافلات الرئيسي في "علاوي
الحلة" كان عدد الناس الذين يتوافدون من المحافظات الجنوبية يتعاضم
مع كل ساعة تمضي والجميع يتحدث عن إنتفاضة أو ثورة يقوم بها
الأهالي ضد المؤسسات الحكومية والأمنية والحزبية التي أحرقت بينما
تجري عمليات قتل تأرية للمسؤولين فيها أو من بقي منهم ولم ينفذ
بجلده. قصص بعضها مرعبة في تفاصيلها تعيد الى الأذهان فصول
إضطرابات واعمال عنف ليست منسية من تاريخ العراق وتطرح
تساؤلات عما اذا كان قد كتب على هذا البلد ان يدون تاريخه دائماً
بالدم.

*

من الواضح ومن خلال ما بدأت تنشره أجهزة الإعلام الرسمية
اليوم 16 آذار/ مارس 1991 ان النظام استطاع القضاء على

الانتفاضة والتي بدأوا يطلقون عليها "صفحة الغدر والخيانة" كما يطلقون على المشاركين فيها تعبير الغوغاء. الصحف الحكومية تتهم إيران بأنها خلف الانتفاضة كما تشير الى المشاركين فيها باعتبارهم من الحرس الثوري الإيراني. من الواضح ان النظام استعاد المبادرة وأخذت أجهزته الحكومية تعود الى العمل كما بدأت بعض مظاهر الحياة تعود الى بغداد ومعظم المحلات أخذت تعيد فتح أبوابها على الرغم من انقطاع الكهرباء وعدم وجود وسائل مواصلات بينما تصل المياه بصورة متقطعة الى بعض الأحياء. الناس عادوا كذلك الى عاداتهم القديمة يتهايمسون بما يسمعون به أو أحيانا يفكرون بصوت عالٍ بعد ان اتاحت لهم أيام الحرب بعض الحرية في الكلام. أقرب تشبيه الى ما حدث هو ما سمعته من أحدهم من ان العراقيين بعد هذه الحرب الغريبة كان كمن خرج من دار سينما بعد ان شاهد فلم رعب فيه كل عناصر الإثارة يجمع كل شيء من الحرب الى المغامرات الى الفانتازيا والخيال العلمي وكل فرد في حيرة من أمر هذا الشريط الذي بدا بلا نهاية. السؤال الذي ظل يتردد عند أغلبهم هو لماذا اختار مخرج هذا الفلم هذه النهاية المفتوحة وهل هناك جزء ثان على طريقة بعض الأفلام الامريكية ومتى سيعرض؟ حقاً لماذا حصل الذي حصل،

وكيف ان الحرب تنتهي بهذا الشكل السريالي بعد ان دمر العراق ثم يتم القضاء على الإنتفاضة ببشاعة وتخلف وراءها آلاف القتلى بينما "صدام" باق في كرسيه وكأنه لم يكن نفسه من أشعل هذا الفتيل ورفض اطفاءه.

*

ليالي "بغداد" قاتمة وما ان يسدل الليل ستاره على المدينة المنكوبة حتى تخيم وحشة قاتلة على الشوارع والبيوت التي ينطوي أهلها على همومهم التي بدت سحيقة كتاريخ بلدهم. ساعدنا المولد الكهربائي الصغير الذي تبرع به فريق البي.بي.سي قبل ان يرحل في تبديد بعض الظلام في كل ليلة وتوفير إمكانية مشاهدة التلفزيون الذي عاد الى العمل منذ أيام. كانت مفاجأة كبيرة عندما عرض التلفزيون في نشرته الاخبارية مساء اليوم 19 آذار/ مارس 1991 صوراً لـ"صدام" وهو يستقبل "آية الله ابو القاسم الخوئي". الصور المعروضة توضح ان "صدام" يستقبل "الخوئي" في مكتبه حيث جلس كما هي عادته منتفخاً وخلفه العلم العراقي وهو يوجه الحديث الى "الخوئي"

بينما بدا الرجل رغم جسمه الضئيل وقوراً بما يليق بمركزه وبما يذكر بمشاهد كثيرة مشابهه جاءت في كتب التاريخ عن لقاءات كهذه بين طغاة متجبرين ورجال علم وفكر وفضيلة. يبدأ الشريط بـ"صدام" وهو يسأل "الخوئي" بطريقة جلفة وخالية من أي تقدير لمقام الرجل الكبير: "كيف الحال؟" فيرد "الخوئي" بوقار وبصوت هادئ وثابت النبرة: "انا قريب من الموت والموت قريب مني" عبارة قصيرة وبسيطة لكنها تختصر ببلاغاتها كل الحكاية التي لم يكن لـ"صدام" ولا لوزير إعلامه او مستشاريه ان يفهموها او يعوا رسالتها الى كل من يشاهد هذا الموقف ذلك انها ستسجل في كتب التاريخ بانها المرة الثانية التي ينطق بهذه العبارة في موقف مثل هذا. كانت المرة الأولى حين نطق بها "الإمام موسى بن جعفر" (الكاظم) ، الإمام السابع لدى الشيعة، أمام الخليفة العباسي "هارون الرشيد" في ظروف مشابهة قبل حوالي 1200 سنة حين جيء به مخفورا من السجن كي يطلب العفو والرضا من "الرشيد". جيء بـ"الخوئي" وولده كدليل على نهاية الإنتفاضة والقضاء عليها، أي للقول لأولئك المنتفضين بان هاكم أنظروا الى زعيمكم الروحي وهو في حضرة الرئيس يقدم له السمع والطاعة بينما يرسل "الخوئي" عبر تلك العبارة البليغة رسالة لجمهور أنصاره مفادها

بانني لا اقف هذا الموقف الا أسيراً كما وقف جدي "الامام الكاظم" من قبل. من المؤكد ان تلك الدقائق القليلة التي استغرقها عرض الشريط كانت مفردة في دلالاتها ولكنها أثارت لدي سؤالاً وهو ماذا لو كان انعكس الأمر وانتصرت الانتفاضة: مالذي كان سيقوله "صدام" لو أخذ أسيراً امام "الخوئي"؟ او ماذا لو ان الرئيس الأمريكي "بوش" كان أصر على جلب "صدام" امامه في وضع كهذا كشرط لوقف اطلاق النار في الحرب التي انتهت الآن؟

*

وكأني لم أقطع الطريق بين "بغداد" و"كربلاء" من قبل مئات المرات بدت المسافة بين المدينتين هذا اليوم 21 آذار/ مارس 1991 غير مألوفاً لدى وكأن هذه الكيلومترات المائة كانت جزءاً من جبهة حرب وضعت أوزارها لتوها. مشاهد تعيد الى ذاكرتي تلك التي كنت أشاهدها في جبهات الحرب العراقية الإيرانية حيث المزارع المحروقة والبيوت التي طالها الخراب والتدمير دليلاً على معارك ضارية جرت في الأيام الماضية بينما انتشرت مئات الدبابات وراجمات الصواريخ وقطع

المدفعية على طول الطريق موجهة فوهاتها نحو المدن الصغيرة والقرى والحقول بينما جلس جنود الحرس الجمهوري فوقها أبراجها بكامل استعدادهم وكأنهم يتوقعون هجوماً بعد قليل. عشرات من نقاط التفتيش استوقفنا جنودها قبل ان يسمحوا لنا بالعبور بعد حديث مقتضب بينهم وبين مرافقينا من رجال المخابرات الذين حلوا محل مرافقي وزارة الإعلام التي استدعت مجموعة من أربعة صحفيين عراقيين هم اضافة الي مراسلي وكالة الانباء الفرنسية وروترز واحدى الصحف اليابانية وكذلك صحفي أردني يعمل في وكالة تلفزيونية لزيارة كربلاء التي تم اعادة السيطرة عليها قبل أيام. بعد عبورنا جسر المسيب تطالعنا آثار حرب حقيقية ربما جرت هنا حيث آلاف من أشجار النخيل والشجيرات الأخرى التي اذكراها شامخة على جانبي الطريق بدت متفحمة أو سقطت في مكانها بينما انهارت البيوت القريبة منها أو انها لم تسلم من تدمير الدبابات التي كانت لا تزال ترابض قريبة منها. سؤال واجهني أين كانت هذه الدبابات وهؤلاء الرجال في الحرب التي انهزموا فيها أية هزيمة وهل كان بإمكانهم ان يقاتلوا الأمريكان في الكويت مثلما قاتلوا هنا. ما ان تطل "كربلاء" حتى يكون المشهد أكثر رعباً وتقززاً. خالطني إحساس بانها ليست المدينة

المقدسة التي عرفتھا جيداً بل بدت لي مثل عروس شاردة بلباس عرسھا الممزقة بعد ان انتهك عفافھا مغتصب ليلة زفافھا. في وسط المدينة لم يكن هناك بيت أو عمارة سلمت من الدمار بينما عملت بعض الجرافات على إزالة الأنقاض من الشوارع والأزقة التي تحولت الى أكوام من الحجارة وقطع الكونكريت. عدد قليل من الناس كان قد عاد الى المدينة معظمهم منهمك في البحث بين الأنقاض عن آثار لبيوتهم أو محلاتهم عليهم يعثرون على ما نجا من ممتلكاتهم من التدمير. عندما اقتربنا من مرقدی "الامام الحسين" وأخيه "العباس" كان أفراد من "لواء الضفادع البشرية" التابع للحرس الجمهوري يأخذون مواقعهم على سوري المرقدين بينما أغلقت أبوابهما الخشبية الكبيرة بإحكام. بعض القذائف كان قد أصاب الكثير من معالم المرقدين ومن بينها القبتين والمنائر الذهبية المحيطة بهما. حين حاولت الدخول الى مرقد "العباس" صاح بي أحد الجنود من فوق السور بانه ممنوع الإقتراب غير انه كان بإمكانی ان أرى من بين الثقوب الكبيرة التي أصابت الباب الخشبي الكبير آثار الدمار الذي أصاب واجهة المرقد المذهب في الوقت الذي ظلت آثار دماء غزيرة ربما لم تجف تماماً بعد تغطي باحة المرقد. عندما توجهت الى "شارع العباس" كانت

جثت عديدة منتفخة ولم تتعفن بعد لا تزال تنتشر في الشارع بينما غطاها الذباب والأوساخ ولم يحاول أحداً رفعها من المكان. في "المستشفى الحسيني" كانت راحة الموت تفوح في أرجائه حتى قبل الدخول الى الردهات التي امتلأت بجثث من غير الواضح لماذا لم يتم دفنها بعد. أرجاء المدينة الأخرى وأحيائها البعيدة ظلت خالية من السكان الذين غادروها ولم يعد أغلبهم اليها بعد. الشعارات التي كتبها المنتفضون على الجدران لازالت باقية في مكانها ومعظمها يندد بالنظام ويبارك لثورة إسلامية شيعية ويشيد ببعض رجال الدين وبزعماء تنظيمات شيعية. من بين الشعارات التي خطت وسجلتها في مفكرتي "ماكو ولي الا علي ونريد حاكم جعفري" وشعارت أخرى تعلن "محمد باقر الحكيم" "رئيس المجلس الأعلى للثورة الاسلامية" زعيماً وبـ"الخميني" قائداً. سجلت في مفكرتي أيضاً ان "كربلاء" تبدو في وضعها هذا كأنها خرجت من زلزال وكانت أقرب مشاهد جاءت الى ذاكرتي هي تلك التي نشرت عن مدينة "درسدن" الألمانية بعد خروجها من الحرب العالمية الثانية. غير ان الفرق بين الاثنين كان شاسعاً خاصة وانها لم تكن حرباً عالمية تلك التي جرت هنا كما ان من أحل الدمار هنا واستباح هذه المدينة المقدسة لم يكن أجنبياً بل عراقيون

ومسلمون. من المؤكد ان الإنتفاضة كتحرك جماهيري كانت عملاً عفويا، فالشعوب كما قال مرة الزعيم الكوبي "فيدل كاسترو" مثل البراكين عندما تنفجر فانها تنفجر لوحدها وهذا ما حصل وما لم يقلل من شأنها أبداً. يومها لم يتسن لي الحصول على تفاصيل كثيرة عن الانتفاضة لكن ما اطلعت عليه بعد ذلك أكد على هذه الحقيقة التي أعطتها أهميتها التاريخية كحركة احتجاج ثوري ضد الدكتاتورية والتسلط من قبل شعب أهين وأذل طيلة اكثر من عقدين من الزمن ودفع الى آتون الحروب والمغامرات التي استنزفت حياة ابناءه وموارده وطاقاته. كان بإمكان الإنتفاضة ان تنجح في إسقاط النظام وانهاء ظلمه وطغيانه لولا عوامل بعضها خارجي وأهمها رفض الولايات المتحدة دعمها ومعارضتها من قبل دول المنطقة والآخر يتعلق بضعف بنية الإنتفاضة ذاتها بسبب عفويتها وانعدام القيادة المجربة لها وسيطرة الشعارات الدينية على خطابها والتي حرمتها سريعاً من التأييد الواسع لها في المناطق الجنوبية، إضافة الى أساليب الإنتقام الوحشية والتصفيات الدموية التي لجأت اليها بعض العناصر المنتفضة. في طريق العودة الى بغداد ظل السؤال في داخلي عماذا سأكتب عن هذه الرحلة وعن مشاهداتي خلالها وهل سيكون بإمكانني

حقاً ان انقل كل ما رأيته بصدق وموضوعية دون ان يضغني ذلك مرة أخرى في وجه التتين. من الناحية الصحفية تلك كانت واحدة من أعظم الفرص التي ينتظرها أي صحفي وهو ان يكتب من موقع الحدث عن ما آلت اليه انتفاضة لم يعرف العالم عنها الشيء الكثير وعما خلفته من دمار اضافة الى أثارها السياسية على البلد الذي لايزال محط أنظار العالم. لكن ذلك كان خارج حساباتي تماماً وما قررته هو ان الجأ الى تكتيك وصفي ايحائي يمكن ان يعطي القارئ ولو فكرة بسيطة عما آلت اليه الأمور دون تفاصيل كثيرة أو تحليل لما جرى. تلك كانت طريقتي التي اعتقدت انها ستنجح في المرور عبر تدقيق الرقيب الذي سيقراً التقرير قبل نشره. عندما انتهيت من كتابة تقريرتي وعرضته على "سعدون الجنابي" المسؤول عن المراسلين والذي كان يعمل كرقب طلب اجراء بعض التعديلات وشطب بعض العبارات مثل اشارتي الى بعض تلك الشعارات التي خطت على الجدران والتي محوتها فعلاً دون نقاش طويل. بعثت بالتقرير بعد موافقته عليه عبر الكمبيوتر وتلفون الأقمار الاصطناعية الذي شحنته لي الوكالة والذي كنت قد بدأت باستخدامه منذ فترة. بعد دقائق فوجئت بمسؤول آخر من الوزارة وهو "عدي صبحي" يأتي لكي يطلب الإطلاع على التقرير

ويأمر بعدم بثه لأنه سيء حسب تعبيره ثم مضى وأتى بمدير الإعلام الخارجي "تاجي الحديثي" الذي طلب هو أيضاً بدوره الإطلاع على التقرير والذي ما ان انتهى منه حتى أمر بسحبه فوراً وعدم بثه. ما فعلته فوراً انني كلمت مكتب الوكالة في "قبرص" وطلبت من غرفة التحرير "قتله"، وتعير "قتل" في المهنة يعني مسحه تماماً من منظومة الخزن في الكمبيوتر كي لا يبقى له أثر. الساعات التي تلت ذلك قضيتها في نقاش مع "تاجي الحديثي" الذي أصر على املائي ما يجب ان أكتبه في التقرير والذي كان يدور حول ضرورة ان يتضمن أي تقرير اكتبه نصاً واضحاً على ان الطائرات الأميركية هي التي دمرت المدينة وان الغوغاء، أي رجال الإنتفاضة، هم الذين عبثوا بها ونهبوها وان حراس الثورة الإيرانيين شاركوا في كل ذلك. كان نقاشي يتركز على ان بإمكانه ان يقول هو او أي مسؤول عراقي آخر ذلك كتصريحات ولن يكون هناك مشكلة بالنسبة ان انسبها اليه. لكنه وبشكل غريب كان يصر على ان أكتب انا كل ذلك استناداً الى مشاهداتي الشخصية أو ان أعزوها الى السكان المحليين من أهالي "كربلاء". بقيت اجادله ان كيف يريدني ان أفعل ذلك وهو لم يحصل فلا أحد من أهالي المدينة قال لي ذلك. كما جادلت أيضاً ان الأحداث

بدأت بعد وقف اطلاق النار مما يعني ان الطائرات الامريكية كانت قد توقفت تماماً عن القصف وان ذكري لذلك سيكون أمراً مثيراً لسخرية القراء هذا بافتراض ان محري الوكالة سينشرون التقرير. حاججته أيضاً بان لا أحد في هذا العالم سيصدق بان من عبث بالمدينة هم سكانها بعد ان كان قد شاهد أفلاماً صورت داخل المدينة قبل دخول الجيش وبثتها التلفزيونات العالمية. قلت له ان ما يريدني ان أكتبه سيبدو بلا أية مصداقية، بل شيء مثير للسخرية وسيقضي عليّ كصحفي. لم يصل النقاش الى أية نتيجة ووجدت نفسي محشوراً في زاوية ضيقة لم يكن أمامي خيار آخر الا ان أرفض اي محاولة لاملأني شيئاً مما يريده وخرجت تاركاً اياه وطاقمه في غضب ورغبة واضحة لا يذائي. لم تمض الا ساعات قليلة وفي ظل ظلام دامس كان يسود بغداد التي كان الكهرباء لا يزال مقطوعاً عنها طرق باب بيتي أحد موظفي وزارة الإعلام كي يسلمني رسالة رسمية كانت أمراً من وزير الإعلام ولكنه ممضي من قبل "عدي صبحي" بسحب اعتمادي ومنعي من العمل كمراسل للوكالة. كان ذلك بمثابة رخصة لإجراءات أخرى ادركت انها آتية لا ريب في ذلك وأيقنت حينها اني أصبحت لقمة سائغة في فم التنين.

(3)

"هو الذي رأى كل شيء فغني بذكره يا بلادي،
وهو الذي عرف جميع الأشياء وأفاد من عبرها،
وهو الحكيم العارف بكل شيء . لقد أبصر الأسرار
وكشف عن الخفايا المكتومة، وجاء بأنباء
الطوفان."

(ملحمة كلكامش)

بعد سحب إعمادي لم يبق هناك أي مبرر لدي للبقاء في العراق
خاصة وان وضعي الشخصي والأمني بل حياتي نفسها أضحت معرضة
لخطر جدي وحقيقي لم يكن هناك بد من الرحيل عن بلدي العراق . في
ساعة مبكرة من يوم 16 آيار/ مايو 1991 كنت قد بدأت الرحلة عبر
الطريق الصحراوي الطويل والموحش الذي يربط العراق بـ"الأردن" باتجاه
العاصمة "عمان" في سيارة "جي.ام.سي" أرسلها مكتب الوكالة في
"عمان". ما زاد من وحشة الدرب هو القلق الذي ظل ينتابني طيلة

الرحلة عما اذا كان أسمى قد وضع على قائمة المنع خلال هذه الأيام. حين وقفت على شباك مكتب الجوازات في "طريبيل" دارت في رأسي أسئلة وأفكار وتوقعات كثيرة وانا أسلم جوازي لضابط كان وجهه عبوساً وهو يركز عيناه بنظرة ثاقبة وفاحصة نحوي بينما يقلب بيده صفحات دفتر كبير كان واضحاً انه يضم الأسماء الممنوعة من السفر. حين أعاد لي الجواز مع ختم المغادرة عليه شعرت وكأن أطنان من القلق والهموم قد انزاحت من عواھلي وكدت أطيّر وانا اقفز الى السيارة داعياً السائق ان ينطلق بنا دون اي تأخير. في عمان كان واضحاً ان الأجواء لاتزال ملتبسة ومتوترة في بلد بدا وكأنه لا يزال يعاني من تبعات حرب خسرھا هو أيضاً، أو هكذا كان الشعور بين معظم الأردنيين وخاصة بين من هم من أصول فلسطينية منهم. كنت أتوقع ذلك في بلد وقف ملكه ووقفت حكومته وشعبه مع "صدام" حتى اللحظة الأخيرة بشكل فاق كل التوقعات. في البداية أثار إستغرابي هذا التأييد اللامعقول، بل الأعمى لـ"صدام" الذي يرفع الأردنيون صورته أين ما اذهب فكنت أسألهم كيف ذلك وهو قائد مهزوم خذل شعبه والأمة العربية مرتين خلال عقد واحد وأوصلهما الى هذا الحضيض الذي لن تخرج منه أبداً. كنت أسألهم ماذا كانوا سيفعلون لو انه هزم

الولايات المتحدة أو دمر "إسرائيل" وحرر "فلسطين"؟ كان جوابهم دائماً يأتي بنظرة مستغربة وأحياناً بكلام غاضب مستشهدين بأنه يكفي ان "صدام" هو القائد العربي الوحيد الذي تحدى أمريكا والذي ضرب "إسرائيل" بالصواريخ. ولكن عندما ترد أيضاً بسؤال عن كم كيلو متراً مربعاً من أرض "فلسطين" حررها "صدام" بهذه الصواريخ لن تجد جواباً طبعاً. غير ان جواباً آخر كان يظهر لي دون ان يتبرع أحداً باعطائه. كان الأردن يستلم نفطاً عراقياً يقدر ثمنه بمئات الملايين من الدولارات سنوياً مجاناً وكان "الأردن" قد أصبح المنفذ الوحيد للتجارة العراقية وكانت القصور والفلل والعمارات تبنى في كل مناطق "عمان" الراقية بأموال عراقية. سريعاً ما شعرت بغربة عميقة وحاجة للخروج من جو لم يكن بوسعي ان أصفه الا بالإنحطاط ومن بين أناس يبدون مصابين بشيزوفرينيا جماعية. في "قبرص" التي رحلت اليها بعدئذ كان العديد من القبارصة يبدون مثل هذا الحماس حتى ان سائق التاكسي اليوناني توقف بي في الطريق من مطار "لارنكا" الى "نيقوسيا: عندما علم اني عراقي وأصر على تقبيلي مبدئاً الإعجاب بشجاعتنا نحن العراقيين في الوقوف ضد أمريكا وتحديها. عندما سألته لماذا هو يشعر بذلك الفخر كان جوابه انه عضو في حزب

"ايكيل" الشيوعي وانه عاش طفولته في مصر ويحب العرب وانه يتمنى هزيمة الإمبريالية الأمريكية. قلت له ولكنها لم تنهزم يا صديقي بل نحن الذين انهزمنا. قال "معلش" بالعامية المصرية مضيئاً بالانكليزية "المرّة القادمة" منتقلاً مرة ثانية الى العربية: "ان شاء الله". من "قبرص" اتيح لي زيارة بعض الدول العربية خلال الأشهر التي قضيتها هناك وكنت دائماً أرى واستمع الى ناس يرددون كلاماً مشابهاً الا ان أكثر ما استوقفني هو منظر رجل يماني كان يحمل صورة كبيرة لـ"صدام" بجانب علم عراقي ويطوف بهما شوارع "صنعاء" مع جهاز كاسيت يردد أغاني او أشعار تمجد الرئيس العراقي المهزوم. لم أحاول الكلام معه حتى في المرات العديدة الأخرى التي زرت صنعاء فيها ورأيت لا يزال على حاله تلك. لكن الرجل بمنظره الرث وهو يسير وسط أحياء "صنعاء" القديمة وبيوتها الفقيرة المتهاككة كان مثيراً حقاً للشفقة وبدا مثل "صدام" رمزاً آخر من رموز الأمة العربية.

*

ما ان استتبت الأمور للنظام بعد القضاء الدموي على الإنتفاضة حتى بدأت أجهزته القمعية المختلفة بحملات شرسة لإجتثاث أي نوع ممكن من المعارضة في مهدها وبضربات استباقية كان نصيب المحافظات الوسطى والجنوبية منها كبيراً ولأسباب لم يخفها حتى النظام نفسه. من مكتب الوكالة في "نيقوسيا" كنت أراقب التطورات داخل العراق محاولاً تحليلها فأصل في كل مرة الى نتيجة واحدة وهي ان النظام الذي اندحر في كل معاركه الخارجية وهزم مشروعه القومي الأمبراطوري في المنطقة قد أدار بدفة حروبه الى الداخل حيث بدأ بشن المعارك الشرسة على الشعب الأعزل. لكن تلك الحرب ستبدو حربه الأخيرة التي سيبدأ بعدها حفر قبره بيده. في 13 حزيران/ يونيو 1991 طلبت الولايات المتحدة من الأمين العام للأمم المتحدة النظر بانتهاكات جسيمة ترتكبها الحكومة العراقية ضد الشيعة في الجنوب وخاصة في الأهوار. منذ أسابيع والأخبار تأتيني من خلال الأصدقاء والمعارف الذين يخرجون من العراق عن بدأ أعمال تجفيف الأهوار الجنوبية وهي أخبار كانت مثيرة للقلق حقاً سواء لتبعاتها الإنسانية التي تؤدي الى تشريد السكان من مناطق استقطنوها هم وأباؤهم وأجدادهم منذ قرون. كانت تلك العمليات ستؤدي الى تغيير بيئة

المنطقة ونظامها الايكولوجي الذي يمتد الى خارج اطارها الجغرافي الى معظم مناطق الجنوب. كنت زرت "هور الحمار" وهو أكبر هذه الأهوار وأكثرها اتساعاً في نيسان، أبريل عام 1978 مع فريق من تلفزيون "بي.بي.سي" لتصوير برنامج عنها ودهشت حينها لطبيعتها الخلابة على الرغم من الطابع البدائي وظروف المعيشة الصعبة فيها. ما اثارني أيضاً ما وجدته من طيبة أهلها ورقتهم وكرمهم في الوقت الذي كانوا يعيشون فيه شصف العيش في منطقة أهملت تماماً واكتنفها النسيان. من القصص التي تذكرتها وانا أتابع عمليات التدمير الوحشي لهذه المنطقة التي أطلق عليها العالم أسم "جنة عدن" هو ان الناس الذين استقبلونا في منطقة نائية في جوف "هور الحمار" طلبوا مني ان أنقل رسالة أملوها علي الى "صدام" الذي كان زار منطقة قريبة منهم منذ أسابيع وأمر بمدّها بشبكات الكهرباء وأهدى بعض عوائلهم أجهزة تلفزيونات يطالبونه بان يمد خطوط الكهرباء الى مناطقهم أيضاً. كنت نقلت الرسالة فعلاً الى مسؤولي وزارة الإعلام لكي ينقلوها الى "صدام" ولكني الآن أفكر فيما اذا كان نفس أولئك الناس لا يزالون في قراهم بعد ان جفت المياه التي كانت تعوم فوقها بيوتهم المبنية من قصب يستخرج من الهور نفسه. أثناء الحرب مع

إيران كنا نزور مناطق الأهوار المحاذية لإيران والتي كانت في كل مرة أذهب إليها أجدها اما انها فقدت الكثير من مياهها أو تحولت الى سواتر ترابية شقت فيها الطرق التي تستخدمها دبابات وسيارات الجيش بينما نصبت على حوافها مدافع الميدان الثقيلة. كان كل ذلك تخريباً متعمداً للأهوار لكن ظل بإمكان "صدام" ان يدعي دائماً انه يلجأ اليه دفاعاً عن العراق ومنعاً لإيران من ان تتمدد الا ان ما يفعله الآن هو نوع من من أعمال التدمير الشامل للطبيعة والتطهير العرقي لسكانها. ومنذ ان بدأت بنشر بعض التقارير الصحفية عما يحصل في الأهوار بدا وكأن العالم يصحو على أثار جريمة منظمة كما بدأت ردود الأفعال تتوالي وخاصة عندما أظهرت صور التقطت بالأقمار الاصطناعية فيما بعد حجم الدمار الذي الحق بالمنطقة التي تتجاوز مساحتها 17 الف كيلو متراً مربعاً. كنت أشعر بالحزن الشديد لما يجري ولكني كنت ادرك بان ما يقوم به "صدام" في الأهوار هو نموذج لما يمكن ان يقوم به في المستقبل. شعرت أيضاً بسعادة بالغة عندما رأيت جرائم هذا النظام تنكشف للعالم أجمع بعد نشر تلك التقارير. ومع ذلك لم يتورع نظام "صدام" واستمر في سياسة تجفيف الأهوار حتى انها أدت في بضع سنوات الى تدمير اكثر من 60 بالمائة منها

واحالتها الى أراضي صحراوية قاحلة. والواقع ان اصرار "صدام" على معاقبة أهل الأهوار تعود الى ذهنيته الشوفينية والفاشية الممغنة في عدائها للناس هناك والتي تجلت في سلسلة المقالات التي كتبها في جريدة "الثورة" عقب الإنتفاضة مباشرة رغم انه لم يضع اسمه تحتها. في الحلقة الثالثة من هذه المقالات والتي نشرت يوم 5 نيسان/ أبريل 1991 تحت عنوان "التعصب الشيعي، فساد أخلاق أهل الأهوار" كتب "صدام" "ان هذا الطراز من الناس يمكن رؤية جانب من سلوكهم المقزز للنفس حتى في حياتهم الإعتيادية الجنسية بينهم أو حتى عندما يلاحظ ابن بغداد نماذج منهم تبحث بين نفايات العاصمة أو على مداخلها في الطرق الخارجية ليس عن الغذاء وانما عن أشياء مثل الملاعق والسكاكين وشوكات الأكل وما الى ذلك." ويمضي المقال لكي يقول "واذا ما عرفنا كل هذا وغيره كثير وعرفنا ان بعض هذا الصنف من الناس في أهوار العراق هم من أصول جاءت مع الجاموس الذي استورده القائد العربي "محمد بن القاسم" من الهند وعرفنا ان من أبرز عاداتهم سرقة ممتلكات الخصم عندما يتخاصمون وحرق دار القصب التابعة لمن يغتاضون منه." وسواء كان كاتب المقالات هذه هو "صدام" كما هو واضح من اسلوب كتابتها أم لا فان

الكم الهائل من السباب والشتائم التي احتوتها مقالات نشرتها جريدة
الحزب الحاكم ضد أهل الأهوار كان مؤشراً على أن "صدام" يبيت
ضدهم انتقاماً لا يمكن إلا أن يكون شنيعاً.

*

لم تكد حرب الخليج الثانية أو ما سميت من قبل أمريكا بـ "عاصفة
الصحراء" لتنتهي يوم 28 شباط / فبراير 1991 حتى خرج الرئيس
"بوش" بعد ستة أيام ليعلن في يوم 6 آذار/ مارس 1991 وفي خطاب
أمام الكونغرس عن أن الولايات المتحدة عازمة على تسوية النزاع
العربي الإسرائيلي كما وعد قبل الحرب وقام فوراً بإرسال وزير
خارجيته "جيمس بيكر" للمنطقة للترتيب لمؤتمر دولي للسلام في
الشرق الأوسط. بعد ثمانية جولات مكوكية لـ "بيكر" في المنطقة تمكنت
واشنطن من الدعوة للمؤتمر والذي أفتتح في العاصمة الاسبانية
"مدريد" يوم 30 تشرين الأول/ أكتوبر 1991 بحضور وفود عربية
واسرائيلية. كان مؤتمر مدريد الثمرة الأخرى لحرب الخليج حيث عقد
على خلفية هزيمة عسكرية كبرى الحقت بأكبر جيش عربي وهزيمة
أكبر طالت نفوس العرب جميعاً أنظمة وحكومات وشعوباً وهيأتهم

للدخول الى مفاوضات سلام حامية مع "إسرائيل" لا يمتلكون أية أوراق قوية للمساومة عليها. كان "صدام" قد رفع منذ بداية أزمة غزوه لـ"الكويت" شعار الربط بين القضية الفلسطينية وغزوه لجارته الجنوبية وطرح في المراحل الأولى فكرة مقايضة الانسحاب من "الكويت" مقابل فكرة غامضة عن حل القضية الفلسطينية. ومن يتابع بدقة طريقة تعامل نظام البعث في العراق مع القضية الفلسطينية حتى قبل ان يتولى "صدام" الرئاسة يلاحظ ان هذا النظام انشغل بهذه القضية أكثر مما اهتم بها أي نظام عربي آخر. كانت القضية الفلسطينية قد أصبحت جزءاً مهماً من سياسته وتكتيكاته اليومية ولكن ليس بالتأكيد في إطار البحث عن حل عادل وواقعي للمأساة الفلسطينية بل لإتخاذها ذريعة لتبرير كل سياساته الداخلية والإقليمية والدولية. ومن يتمعن جيداً في سجل نظام "صدام" بشأن القضية الفلسطينية فلن يجد الا ممارسات تمعن في كراهية واحتقار الفلسطينيين بقدر كراهيته وامتهانه لشعبه ذاته. كانت فكرة الربط بين احتلال "الكويت" وتسوية القضية لفلسطينة وفق شروط "صدام" تهدف حسب التكتيك العراقي الى احراج الولايات المتحدة من خلال طرح مبادرة حل سياسي واجبارها على القبول بالتفاوض حول الكويت بدل الحرب، من جهة، وكسب

الرأي العام العربي وخاصة الفلسطيني، من جهة ثانية، من خلال وضع "الكويت" مقابل "فلسطين". وفي الواقع كان التكتيك الذي اتبعه "صدام" في هذه المرحلة يعني محاولة اختطاف كاملة للقضية الفلسطينية مستنداً في ذلك على الدعم الذي وفره عرفات والفلسطينيون عموماً إضافة الى إستعداد رأه متوفراً لدى قطاعات كبيرة من الرأي العام العربي للقبول بقيادة العراق الصدامي الذي كان يمتلك حينها أكبر جيش عربي تحدى به أكبر قوة عسكرية عالمية من الممكن ان يستخدمه لاحقاً لتحدي إسرائيل وهزيمتها في ميدان الحرب. عموماً فان الفلسطينيين، أو بالأقل "عرفات" وبعض مؤيدي العراق في القيادة الفلسطينية بدوا معجبين بمثل بفكرة الربط حتى ان "عرفات" راهن بشكل مثير للعجب حتى اللحظة الأخيرة (مثلما ظهر في مؤتمره الصحفي الاخير في "بغداد" يوم 15 كانون الثاني/ يناير 1991) على عدم إندلاع الحرب وحل المشكلة سلمياً وكان ذلك بالتأكيد استنتاج خاطيء سببه سوء الحسابات أو سوء المعلومات أو لربما دوافع أخرى. لكن بغض النظر عن وجهة نظر إدارة "بوش" في التكتيك العراقي فانها لابد وان وجدت في الظرف الذي خلقته نهاية حرب الخليج مناسباً جداً لإطلاق مبادرة سلمية تتيح لها الفرصة لإظهار

جدية تمسكها بحل النزاع العربي الإسرائيلي الذي رتع منه "صدام" وغيره من الزعامات العربية طويلاً. كان بدء مفاوضات السلام بين الوفود العربية وإسرائيل نقطة تحول كبيرة في حياتي الصحفية مثلما كانت نقطة تحول كبرى في حياة المنطقة عموماً. فبعد أشهر قليلة من بدأ المفاوضات عُرضَ عليَّ الانتقال للعمل مراسلاً للوكالة في "تونس" لتغطية أخبار "منظمة التحرير الفلسطينية" والمفاوضات التي كان رئيس المنظمة "ياسر عرفات" ولجنتها التنفيذية يوجهون الوفد الفلسطيني من مقر المنظمة هناك. ولم أتردد لحظة واحدة على قبول العرض على الرغم من إدراكي اني لن أكون الآن بعيداً عن العراق جغرافياً آلاف الأميال بل وابتعادي أيضاً عن متابعة الملف العراقي عن كثب. كان ترشيحي للذهاب الى "تونس" قائماً على أساس خبرتي السابقة وتعاملي مع القيادات الفلسطينية ومن ضمنها "عرفات" اثناء تواجد القيادة الفلسطينية بشكل مستمر في بغداد خلال السنوات السابقة والتي تحولت في فترة ما الى مقر ثاني لمنظمة التحرير ربما بسبب العلاقات الوثيقة بين "صدام" و"عرفات". ما ان وطأت قدمي "تونس" وبدأت العمل حتى أدركت كم كان معظم الفلسطينيين قيادات وكوادر مفتونيين بـ"صدام" وبحديث القوة العسكرية التي يمثلها العراق

على الرغم من الهزيمة الماحقة التي كانت الحقت بالنظام العراقي في الحرب والتي أدت بالفلسطينيين في النهاية الى الذهاب الى مفاوضات "مدريد" والتي كانت حين وصولي الى "تونس" قد وصلت الى طريق مسدود. ومع ذلك فان ما أدركته منذ اللحظة الأولى وهو ما أكد استنتاجات قديمة معروفة ان علاقات المنظمة بالعراق شائكة ومعقدة ومتناقضة. أدركت منذ البداية ان بعض قادة المنظمة كانوا يخشون من محاولات اغتيالات قد تقوم بها مجموعات مدعومة من النظام العراقي الذي قام في مرات عديدة بإغتيال شخصيات فلسطينية كان آخرها إغتيال "صلاح خلف" (ابو اياد) قبل الحرب بأيام قليلة بسبب موقفه المعارض لغزو "الكويت". كنت التقيت بـ"صلاح خلف" في غرفته في "فندق الرشيد" في "بغداد" بعد مقابلته الشهيرة مع "صدام" مباشرة وحدثني عما جرى بينه وبين "صدام" اثر نصحه اياه بالانسحاب من "الكويت" وأتذكر بأني حذرته من مغبة ما سيجري بعدما اثار غضبه. ومع ذلك كنت أرى مثل هذ التوجس ينعكس في تصرفات بعض القيادات الفلسطينية تجاهي في الأيام الأولى بعيد وصولي الى "تونس"، لا شيء سوى لأنني عراقي. لكن سرعان ما زالت تلك الهواجس بعد ذلك وأصبحت معظم مكاتب المنظمة وبيوت قادتها ومن

ضمنها مقر "عرفات" في "يوغرطة" وحتى بيته مفتوحة أمامي ليلاً ونهاراً. كان عالم "منظمة التحرير الفلسطينية" عالم مثير في تفاصيله الداخلية ومغائراً تماماً عما في أذهان الناس المتعاطفين مع القضية الفلسطينية، وخاصة العرب الذين رسم معظمهم صورة للثورة الفلسطينية مختلفة تماماً تتفق أكثر مع الأحلام والتمنيات والتوقعات، وربما أيضاً مع الأوهام ولكنها بعيدة جداً عن الحقيقة التي بدت تتكشف لي يوماً بعد يوماً. كانت تلك ربما أخطر فترة تعيشها القيادة الفلسطينية التي وصلت الى مرحلة كان عليها ان تقطف ثمار عملها خلال الثلاثين عاماً الأخيرة بكل انتصاراتها القليلة والمتواضعة وهزائمها الكثيرة والمدمرة والتي أوصلتها الى هذه المرحلة. كنت أعمل ليل نهار منخرطاً تماماً في شأن المفاوضات العلنية منها والسرية التي كانت تجري ولكني كنت كلما أمعنت في الأمر أجد ان ثمار كل هذه السنين من العمل الفلسطيني لن يكون الا الدخول في نفق، ليس بطبيعة الحال ذلك النفق الأسطوري الذي يحلو لـ "عرفات" رؤية الضوء في آخره، بل عن ممر إجباري واحد لا خيار ثان لهم فيه سوى دخوله دون معرفة إمكانية أو أوان الخروج منه. وضع لخصه يوماً لي "فاروق قدومي" رئيس الدائرة السياسية للمنظمة بقوله "إذا قبلناه

غرقنا واذا رجعنا عنه غرقنا أيضاً." في يوم 13 أيلول/ سبتمبر 1993 كنت في بيت "بسام أبو شريف" مستشار "عرفات" مع مجموعة من الفلسطينيين الذين يحتلفون بالمناسبة نراقب على شاشة "سي.ان.ان" رئيس منظمة التحرير الفلسطينية وهو يوقع "اتفاق أوسلو" مع رئيس الوزراء الاسرائيلي "اسحق رابين" في حديقة "البيت الأبيض" في "واشنطن". كانت لحظات مؤثرة بكل معنى الكلمة لمن حولي ولي انا أيضاً لكنها أخذتني بعيداً الى "بغداد" فتساءلت مالذي سيقوله "صدام" الآن وهو يرى صديقه والذي وعده قبل أقل من سنتين ان يدخل المسجد الأقصى في القدس "معاً وسوية" لكنه يضع يده الآن في يد "رابين" المترددة أملاً ان تفتح له هذه المصافحة الطريق نحو "القدس".

ايقظني من لحظات السؤال تلك صوت "ابو شريف" وهو يجلس باشاً وهاشاً على توقيع "عرفات" مضيفا وهو يترنح من نشوة الشراب ونشوة النصر بأن الوقت قد حان ان يرد الفلسطينيون للعرب الصفحة لما فعلوه بهم خلال كل هذه السنين مستخدماً تعبيراً سوقياً شائعاً. قال ذلك مع شيء من السباب والشتائم بالعرب وهو الذي بدأ حياته السياسية في تنظيم "حركة القوميين العرب" فأدركت ليس فقط حجم المعاناة التي يشعر بها الفلسطينيون في قرارة أنفسهم تجاه العرب

ولكن أيضاً ما سوف تحمله الأيام والأشهر والسنين القادمة من مفاجئات. في 4 تموز/ يوليو 1994 غادر "عرفات" تونس الى غزة التي ذهب اليها لتشكيل السلطة الفلسطينية وفي اللية التي سبقت ذلك دعى الصحفيين الى عشاء للتوديع فسألته في لحظات صفاء عما اذا كان يؤمن الآن بان اتفاق أوسلو هو الطريق الذي سيوصله الى القدس كما يردد دائماً فأجابني فوراً: " ما أبغيه هو انش (بوصة) واحد من الأرض كي أرفع عليه علم فلسطين". ولكنه كمن كان يقرأ أفكاره وهو اجسي اضاف " لماذا لا أصطحبه غداً الى غزة والعمل هناك في ظل السلطة الفلسطينية التي سيقمها، مضيفاً انه سيمنحني جواز سفر فلسطيني. لم استطع ان أجيبه سوى انه فاجئني وشكرته على العرض الكريم ثم سألته مجاملاً ان يعطيني وقتاً للتفكير.

*

في 23 أيلول/ سبتمبر 1994 وصلت الى "القاهرة" بعد أن قررت الوكالة انتدابي للعمل في مكتبها في العاصمة المصرية وهو ما رأيته فرصة كبيرة للعمل في أكبر وأهم بلد عربي وعاصمة المنطقة المكتضة

بالنشاطات الكثيفة والمتنوعة. وبقدر ما كنت أشعر انها فرصة الا اني كنت أدرك انها تشكل أيضاً تحدياً جماً بالرغم من ان شعرت في اليوم الأول الذي بدأت العمل فيه انني أعرف عن مصر، بل مصر ذاتها أكثر ما فاق توقعاتي. وصلت "القاهرة" وكانت "مصر" تعاني من داء الإرهاب الذي كان يضرب بشكل مأساوي مستمر يكاد ان يكون يومياً في معظم بقاعها ووجدت نفسي في خضم متابعة هذه الأحداث وشخصها وخلفياتها المعقدة في ظل تبيانات شديدة في مواقف الفاعلين والمفعولين والمراقبين المحليين والدوليين حيث كان كل طرف يحاول ان يملئ روايته ورؤيته. لم يكن الأمر بالنسبة لي بالبساطة وربما السذاجة التي بدا عليها كما نقرأها في الصحف العالمية محصوراً بين من يرى فيه جهاداً ومن يرى فيه إرهاباً كما لم تكن هناك أيضاً إمكانية الوقوف في منطقة رمادية بدت غير موجودة أساساً. من الناحية الصحفية كان موضوع الإرهاب يتعدى طابعه المحلي ليس فقط بسبب دور مصر المحوري وانعكاس ما يحدث فيها في المنطقة وربما في العالم ولكن لأن الإرهاب أصبح بحد ذاته ومنذ سنوات قضية دولية ومحط اهتمام معظم دول العالم مثيرة مخاوفها من احتمالات انتشار الظاهرة لديها. غير ان الإهتمام بمتابعة قضايا الإرهاب ومن ثم ملف

التطرف الإسلامي وقضايا الإسلام السياسي قادني الى التعمق في دراسة الإسلام بشكل أكثر تفصيلاً. ومع ذلك ظل اهتمامي بموضوعات سياسية وإقتصادية وإجتماعية وثقافية أخرى كبيراً جداً وبدأت "مصر" عبر أحداثها كنزاً صحفياً لا ينضب. لكن لم يغب العراق عن بالي بل وجدت فرصة وجودي في "القاهرة" وتنوع اهتماماتي وبدأت وبشكل نشط متابعة الأحداث المتعلقة بالعراق والكتابة عما يحصل هناك وخاصة نشاطات المعارضة العراقية في الداخل والخارج والأحداث التي لايجري عادة تغطيتها من قبل المراسلين في بغداد لأسباب معروفة مثل الإنتهاكات المختلفة والمستمرة لحقوق الانسان. وفي الواقع بدأ العراق شيئاً فشيئاً يعود كما تمنيت دائماً الى خضم عملي وصميم إهتمامي وحين انتقل مكتب الوكالة في الشرق الأوسط المسؤول عن تغطية كامل أخبار العراق الى القاهرة أصبحت كل أخبار العراق ضمن نطاق إهتمامي ومتابعتي اليومية. ذلك على المستوى المهني اما على المستوى الشخصي فقد جعلني الأمر أكثر قرباً الى العراق، الوطن، مما ترسمه المسافات والحدود حتى بدت صور بغداد وشوارعها وأزقتها بل رائحة أشجارها وحتى خبزها تعيش معي لحظة بلحظة وكنت أشعر أحياناً وكأنني لم اغادر بغداد بعد. هنا شعرت بان مسؤولي النظام لابد

وانهم يدركون الآن بان قرار سحب اعتمادي ومنعي من العمل قبل سنوات كان قراراً سيئاً وبليداً اذ ها انا هنا أمارس حريتي في الكتابة بطريقة لم أتوقعها انا نفسي من قبل.

*

عندما وصل "حسين كامل" وأخوه "صدام كامل" فجأة الى العاصمة الأردنية عمان يوم 8 آب/ أغسطس 1995 كان الإعلان عن هروبهما مع زوجيتهما "رغدة" و"رنا" ابنتي "صدام" بمثابة فضيحة مدوية وأيضاً ركلة قوية وجهت الى بنية النظام وركائزه التي كان "حسين كامل" يمثل ركيزة أساسية فيها. وفي الواقع تلقيت شخصياً الخبر وخاصة دوافع هروبه بين مصدق ومكذب لأن خطوة مثل هذه لا يمكن ان تعني الا واحدة من اثنتين اما انها لعبة ذكية حاكها "صدام" نفسه أو انها تعكس الإنهيار التام الذي أوصل هذا النظام الى هذا المنحدر بحيث أصبح عارياً امام العالم أجمع والذي لم يعد فيه ممكناً اخفاء حالة ارتبائه، بل ضعفه وتمزقه. رجحت الخيار الثاني ودعم ذلك سريعاً "حسين كامل" نفسه في المؤتمر الصحفي الذي عقده في اليوم التالي

والذي كشف فيه حتى دون ان يقول ذلك علانية انه يقدم نفسه للعالم بديلاً عن "صدام" وعن ولديه "عدي" و"قصي". لكن سرعان ما تكشف للعالم ان "حسين كامل" لم يكن الا بديلاً واهناً وساذجاً حين تكشف انه لاحقاً انه لم يكن غير مجرد دمية استخدمت في وضع مسمار آخر في نعش نظام العشيرة التي كان هو واحداً من الذين سعوا بالدم والنار في اقامته وتدعيمه. كنت أراقب عبر شاشة تلفزيون "سي.ان.ان" المؤتمر الصحفي الذي أقيم له في حديقة احدى قصور الضيافة الملكية التي انزل فيها وأرجع بذاكرتي الى تلك الأيام التي بدا فيها طلوع نجم ذلك الشاب الذي اعتاد ان يقف وراء "صدام" ضمن الصف الأول من فريق حمايته حين كان لايزال نائباً لرئيس "مجلس قيادة الثورة" وتبدو عليه ملامح القسوة ممزوجة بتعابير البلاهة والغطرسة في آن واحد. لم أطرح على نفسي سؤالاً من نوع كيف استطاع هذا الريفى القروي الساذج الذي لم ينهي مدرسته الابتدائية ان يصبح فريقاً أولاً في الجيش العراقي ويتبوأ منصب وزير الدفاع ووزير التصنيع العسكري ووزيراً النفط، بل وان يمسك بمعظم مفاتيح السلطة العسكرية والأمنية والإقتصادية ان لم يكن كلها. كان السؤال الذي راودني حينها هو أي سوء للحظ أصاب العراق والعراقيين حتى أصبح

مصيره بيد عصابة مثل هذه ينظر أفرادها الى البلد كضيعة والى أهله كعبيد يمكن ان يتولوا أمورهم واحداً بعد آخر. بعد حوالي سبعة أشهر فاجيء "حسين كامل" العالم مرة ثانية بعودته الى بغداد تاركاً عمان والقصور الملكية الهاشمية وراءه وفي اليوم التالي لوصوله أي في 23 شباط/ فبراير 1996 قتل "حسين" وأخيه "صدام" وأخ آخر مع والدهم "كامل" في مجزرة أعداها وقادها عمه "علي حسن المجيد" وشارك فيها ابنا "صدام" "عدي" و "قصي". كان "صدام" قد وافق على العفو عن "حسين" ضمن صفقة تمت عبر السفير العراقي في "عمان" "توري اسماعيل الويس" ووفق شروط ظلت مجهولة لكن من في هذا العالم كان سيصدق ان "صدام" سينسى أكبر إهانة وجهت له من أقرب الناس اليه ويدعها تمضي دون حساب ومن كان سيصدق ان "صدام" سيترك "حسين" لحاله وهو الذي باع، بل تبرع مجاناً بكل أسرار أسلحة الدمار الشامل العراقية الى "رالف اكيوس" كبير المفتشين الدوليين وأسرار أخرى الى "المخابرات المركزية الامريكية" عرت "صدام" وألأعيبه أمام المنظمة الدولية والأمريكان. ذهب "حسين كامل" الذي ساهم في صنع جزء مهم من مأساة العراق ومنها دوره في القمع الوحشي للإنتفاضة الى مزبلة التاريخ غير مأسوف عليه من أي عراقي لكن

أسئلة كثيرة خلفها وراءه عن الأسباب التي دعتة للإنشاق ومن اقنعه بذلك وماالذي كان يرتجيه من تلك الخطوة وماالذي جعله يغير رأيه ويعود الى حيث لقي مصيره البشع.

*

لم يكن يوم 31 آب/ أغسطس 1996 مجرد يوم عادي آخر بالنسبة لسكان ضاحية "عين كاوة" في مدينة "أربيل" شمال العراق الذين اعتادوا على التحركات الكثيفة في المنزل رقم 23 في شارع رقم 7 والذي تقام عليه حراسة مشددة كانت مصدراً لتساؤلات الكثير من سكانه عن نوع النشاط الذي يقوم به نزلاءه من الأمريكان. كان قلة من الأهالي من العاملين مع حزب "الاتحاد الوطني الكردستاني" ملمين بهوية قاطني البيت الذي تكتظ على أسطحه الهوائيات المتعددة وبأنه مركز وكالة "المخابرات المركزية الامريكية" الرئيسي في شمال العراق الذي يعمل مع المعارضة العراقية وينسق جهود جمع المعلومات وغيرها من النشاطات التي تقوم بها الوكالة في العراق. في ساعة مبكرة قبل فجر اليوم بدأت سيارات "لاندكروزر" تنقل نزلاء البيت على

عجل تاركين وراءهم معظم متعلقاتهم ومنها أجهزة كومبيوتر وتلفونات تعمل بالأقمار الاصطناعية ومعدات أخرى كانت تستخدم في البث الإذاعي الموجه ضد نظام صدام. لكن لم يكن هذا فقط ما خلفه عملاء الوكالة وراءهم وهم يهربون من أربيل تحت جناح الظلام بل تركوا أيضاً أكثر من 1200 عراقي كانت قد جندتهم مختلف جماعات المعارضة التي كانت تتعاون معهم في معسكرات أو مقرات قريبة يواجهون مصيرهم الأكيد على يد قوات الحرس الجمهوري التي كانت تشق وقتها طريقها نحو قلب المدينة بعد ان اقتحمت مواقع "حزب الإتحاد الوطني الكردستاني" بزعامة "جلال" طالباني" وأجبرت فلول قواته ومن تبقى من قيادته على الفرار باتجاه الجبال البعيدة. في حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر كانت بعض وحدات الحرس الجمهوري ومعها ضباط من المخابرات العراقية تقتحم أحد مراكز "المؤتمر الوطني العراقي" وتخرج من فيه والذي ترواح عددهم بين 97 و100 شخص وتقوم باعدامهم بشكل جماعي بينما كان الآخرون من زملائهم في مقرات أخرى يفرون عبر الجبال بحثاً عن مناطق أكثر أمناً. في الساعات اللاحقة كانت قوات من "الحزب الديمقراطي الكردستاني" بزعامة "مسعود بارزاني" تدخل المدينة وتبدأ بالسيطرة على مراكزها الرئيسية التي تركتها قوات

غريمهم "الاتحاد الوطني" التي فرت باتجاه حصونها في السليمانية. في مكنتي في القاهرة وانا أتابع الموقف بدا لي الأمر مثيراً للسخرية مثلما هو مثير للآسى والشفقة. فعملاء المخابرات الامريكية يهربون تاركين صغار المتعاونين العراقيين معهم لجحيم "صدام" ودون حتى انذارهم ومنحهم فرصة للخلاص في الوقت الذي تقتحم قوات الحرس الجمهوري المدينة لكي تطرد منها جماعة كردية معارضة ولكي تسلمها بعد ساعات قليلة الى جماعة اخرى مناوئة لها وكل هذا دون تفسير واضح من كل الجهات المعنية لما يجري. كل شيء بدا عبثياً لكل من لا يلم بالمشهد العراقي وخاصة ما كان يجري في تلك المنطقة بالذات خلال الأشهر الأخيرة. فقد ظلت الأخبار تتواتر منذ فترة عن نشاطات تجريها مجموعة "المؤتمر الوطني" وربما بتأييد محدود من "الاتحاد الوطني" بالتحرش بقطعات الجيش المتواجدة جنوب اربيل. كانت بيانات "المؤتمر الوطني" تصلنا خلال تلك الفترة تباعاً اضافة الى التقارير الإخبارية من المنطقة وكلما أمعنت في تحليلها أجد انها لاتخرج عن كونها محاولة لإشعال نوع من التمرد داخل هذه الوحدات العسكرية واستخدام ذلك كمقدمة لتمرد أكبر قد يصل الى مستوى كل قطعات الفيلق الأول في الجيش العراقي المرابطة في المنطقة وبالتالي

بالبدء بخطوات اسقاط النظام عن طريق الجيش الذي يفترض حسب هذا السيناريو ان يسلم قياده الى المؤتمر ورئيسه "احمد الجلبي". كانت هناك أسئلة كثيرة تتعلق بإمكانية نجاح مثل هذا السيناريو الذي بدا ساذجاً الى حد يصعب حتى تسميته بالخطئة. كانت هناك أيضاً أسئلة تتعلق بموقف مختلف أجهزة ادارة الرئيس الامريكي "بيل كلنتن" من المشروع الذي كان من المؤكد انه من بنات أفكار "الجلبي" إضافة طبعاً الى أسئلة تتعلق بموقف الطرفين الكرديين من هذا المشروع في الوقت الذي كانا فيه لا يزالان يتصارعان حول السيطرة على مدن و مناطق الإقليم الكردي. وعلى رغم الصورة العنيفة لما جرى في ذلك اليوم الأخير من آب/ أغسطس 1996 كان كل شيء يبدو مؤشراً صادقاً على المواقف الحقيقية للأطراف المعنية. فالإدارة الأمريكية التي كانت تحمي بطائراتها المنطقة التي اعلنتها منذ أربع سنوات منطقة أمنة تخلت عن وظيفتها (ادعى جلال طالباني بعد فترة انه تلقى تطمينات من وكيل وزارة الخارجية الأمريكية بأن الطائرات الأمريكية ستتدخل لو اقتحم صدام أربيل) كما ان بارزاني لم يجد حرجاً في ان تدخل قواته مع الحرس الجمهوري لكي تحتل اربيل عاصمة الاقليم الكردي وتعيد ترتيب التوازن فيه لمصلحتها وربما الى فترة

طويلة في حين كان "صدام" ينسحب بقواته من منطقة عراقية بارادته وللمرة الثانية ويسلمها طوعا الى خصومه. حين التقيت بـ"الجلبي" بعد ذلك بعدة أعوام في لندن فوجئت بأنه لا يزال يتذكر مقالاً كنت كتبتة حينها اندهش فيه وربما أسخر أيضاً من موقف رجال المخابرات الأمريكية الذين تركوا أولئك المساكين العراقيين يواجهون قدرهم أمام بطش النظام في الوقت الذي كانت تلمح فيه الى نيتها مساعدتهم على اسقاطه. ولكني لم اتعجب من تذكره للمقال فقد ظل "الجلبي" يلوم المخابرات المركزية ووزارة الخارجية مما رآه من خذلانه وراح يصعد هجومه على الطرفين وخاصة في أوساط "الكونغرس" الذي تبناه بعض أعضائه مثل "ترينت لوت" و"جيس هيلمز". ولم يكن اقتحام "أربيل" من قبل الحرس الجمهوري فشلاً لمشروع "الجلبي" الذي هو في الواقع "مشروع بوب" كما كان يدعى حينها نسبة الى عميل لوكالة المخابرات الأمريكية كان يسمى نفسه "بوب" ويعمل في محطة "عين كاوة" اذ ان ذلك المشروع كان يحمل بداخله بذور فشله منذ بدايته. لم يكن الفشل نتيجة العمل العشوائي لوكالة المخابرات المركزية والصراعات داخلها وبينها وبين الأجهزة الاخرى مثلما حاول مثلاً "وارن ماريك" عميل الوكالة وأحد مسؤوليها عن الملف العراقي خلال هذه الفترة ان يثبت

في تصريحات أدلى بها بعد تقاعده (الهيرالد تريبون 27 حزيران/ يونيو 1997) وإنما كان نتيجة لتخبط السياسة الأمريكية في العراق منذ نهاية حرب الخليج عام 1991. فقد انتهت الحرب التي شارك فيها نصف مليون جندي من أكثر من 30 دولة بقيادة الولايات المتحدة مع قوة نارية جبارة لم يشهد لها التاريخ البشري مثيلاً من قبل دون إسقاط "صدام" وتركت إدارة الرئيس "جورج بوش" الشعب العراقي يواجه قدره بنفسه بينما تبنت إدارة "كلنتن" التي تلتها السياسة الغامضة التي أعلنها مستشاره للأمن القومي "مارتن انديك" يوم 18 آيار/ مايو 1993 والتي سماها "الإحتواء المزدوج" باستخدام مزيج من العقوبات الإقتصادية والعزلة السياسية وفرض مناطق الحظر الجوي مع بعض النشاطات السرية بهدف ضععة النظام وانتظار سقوطه وهي السياسة التي اطالت معاناة العراقيين غير انها لم تفلح في الإطاحة بنظام "صدام"، بل ربما قوت من عضده.

*

(4)

"التاريخ يدعونا"
(جورج بوش الابن)

عندما أُعلن فوز "جورج دبليو بوش" بالانتخابات يوم 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 2000 وأصبح الرئيس الـ43 للولايات المتحدة كانت النظرة العامة لمستقبل هذا القادم الجديد لـ"البيت الأبيض" داخل وخارج الولايات المتحدة متشككة وفي أحسن الأحوال ملتبسة نظراً للهامش الضيق في نسبة التأييد التي حصل عليها في الاقتراع والتي كانت أقل نسبة يحصل عليها رئيس امريكي منذ عام 1876 اضافة الى الجدل

الدستوري والقانوني حول احتساب الأصوات التي جاءت به الى منصب الرئاسة. لكن الأهم من ذلك كانت المخاوف التي ابداهها البعض عن شخصية الرئيس الجديد نفسه كسياسي ذي تصورات فكرية تحدد الأشياء وفق مقاييس الأبيض أو الأسود أو الجيد أو الرديء أو أنت معنا أو ضدنا. تلك التصورات اتضحت خطورتها مباشرة بعد انتخابه عندما اعتمدت قراراته على هذا المعادلة وفق يقين اخلاقي بل انجيلي وحسب الإعتقاد الديني الذي يؤمن به كمنتسب للكنيسة المنهجية او الميثودية البروتستانتية. بقدر تعلق الأمر بالعراق كان هناك بعدان آخران كان من المتوقع ان يلعبا دوراً بتشكيل رؤيته نحو الأزمة المستمرة منذ تسع سنين أولاها هو انه ابن الرئيس الذي خاض حرباً لم تستكمل ضد "صدام" أخرجته من "الكويت" لكنها أبقتة في السلطة متحدياً لأمريكا خلال عشر سنين خلت وثانياً وجود هذا العدد الكبير من المحافظين الجدد ومؤيديهم في إدارته الذين لم يخفوا أبداً مشاريعهم لازاحة "صدام" من السلطة ضمن رؤية أوسع للمنطقة وللعالم في إطار مشروعهم الأوسع الذي سموه بـ"القرن الأمريكي" الذي سيسود العالم. في المقابل كان "صدام" قد إستثمر ببراعة فشل سياسة "الإحتواء المزدوج" التي انتهجتها إدارة "كلنتن" وتبعاتها خلال

السنوات الثمانية السابقة كما استفاد من "برنامج النفط مقابل" الغذاء الذي أتاح له إمكانية النفاذ من العقوبات الإقتصادية التي فرضها "مجلس الأمن الدولي" لكي يكسر طوق العزلة المفروض عليه دولياً ويحسن من فرص افلاته من مصيره المحتوم. لم يكن هناك ما يوحي منذ انتخاب "بوش" من ان "صدام" يعي كل ما يعنيه وصول هذا الرجل الذي وضع صورة أبيه على أرضية مدخل "فندق الرشيد" تدوسه كل الأقدام المارة بالأحذية ومن بينها الوفود الأجنبية والتي كانت تنقل مشاهدتها عدسات التلفزيون مرة بعد مرة. غير ان كل المؤشرات التي بدأت تخرج من واشنطن كانت توحي بان قواعد اللعبة التي حكمت الأزمة العراقية الأمريكية في فترة ما بعد حرب الخليج هي في طريقها الى التغيير.

*

حتى بعد الظهر بتوقيت القاهرة لم يكن الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 الا يوماً عادياً جداً في حياة العالم. كنت قد انتهيت من عملي في وقت مبكر وتوجهت الى البيت لتناول لعداء ولأخذ قسط من

الراحة. وكما هي العادة فقد فتحت جهاز التلفزيون على قناة "سي. ان. ان" لمشاهدة البرامج الإخبارية عندما قطعت القناة برامجها المعتادة فجأة لتتنقل لنا مشاهد بدت أقرب الى أفلام الأكشن الأمريكية من نقل مشاهد حقيقة على الهواء. كانت هناك طائرة مدنية تطير ثم ترتطم باحد برجى مبنى "مركز التجارة الدولي" في "نيويورك" فتشتعل طوابق المبنى المصاب بالنار وتتطاير الأنقاض في الهواء. حولت التلفزيون الى قنوات اخرى فكانت هي أيضاً تنقل مشاهد حية مثيرة لما يحصل يعجز الإنسان حينها ان يجد تفسيراً لها وخاصة العثور على إجابة سريعة جاهزة عن السؤال فيما اذا كان الأمر حادثاً عرضياً أم شيئاً مدبراً. بينما كنت قد تسمرت أمام الشاشة لمشاهدة هذه اللحظات المثيرة سرعان ما ظهرت طائرة أخرى ففعلت الشيء نفسه في المبنى التوأم للمركز وبذلك لم يبق أي مجال للشك بان ما ما نشاهده هو عمل مقصود. توالى الأحداث سريعاً حين ظهر ان هناك طائرة ثالثة ضربت مبنى "البنتاغون" في "واشنطن" وطائرة رابعة سقطت أو أسقطت في بنسلفانيا ربما كانت في طريقها لضرب "البيت الأبيض" في واشنطن. كنت ربما مثل جميع من يراقب هذه المشاهد توقع ان تشير أصابع الاتهام سريعاً الى ان تكون جماعات إسلامية متطرفة

وخاصة "تنظيم القاعدة" بزعامة "اسامة بن لادن"، وراء التفجيرات الانتحارية تلك، وهو ما حصل فعلاً، غير ان سؤالاً آخر بدأ يشغل بالي مباشرة وهو ما تأثير هذا الهجوم الإرهابي والزلزال السياسي المدمر الذي سيطلقه على الوضع العراقي. في هذه الأثناء كلمني الزميل "محمد صلاح" مدير مكتب مؤسسة "الحياة" في القاهرة ليطلب مني ان اكتب مقالاً عن الحدث المزلزل هذا لمجلة "الوسط" على ان أسلمه يوم غد لعدد المجلة الذي يظهر عادة يوم السبت. في العادة احتاج الى وقت أطول من ذلك لإستيعاب جوانب حدث كبير وأيضاً غامض الدوافع والأهداف ومحاولة تقليبه من كل أو معظم جوانبه الا ان فكرة أساسية طرأت على بالي عزمت ان اتناولها وان اطرحها كسؤال تدور حوله المقالة وهو "هل ستفجر تفجيرات نيويورك وواشنطن صراع الحضارات؟" الذي نظر له " صاموئيل هنتنغتن" طويلاً والذي بدأت نظريته في "صراع الحضارات" تلقى ردود أفعال متباينة. سرعان ما طرأ على ذهني الآتي: ان "الولايات المتحدة الامريكية" بادارتها الجديدة ستدرك أو نها على الأقل ستتعل بان هذه التفجيرات نقلت "الإرهاب الإسلامي" الى عقر دارها وان الأمر أصبح حرباً حقيقية بينها وبين الجماعات الإسلامية المتطرفة التي تقف وراءه وان كل ذلك سيؤدي بصانعي السياسة

الأمريكية الى الإستنتاج بان لب المشكلة أصبح يكمن الآن في هذه الفجوة الهائلة التي تفصل العالمين الإسلامي والغربي عن بعضهما مما يستوجب تركيز الإهتمام عليها كمسألة استراتيجية وليس على الإرهاب باعتباره قضية أمنية فقط. مالذي يعني كل هذا؟ انه يعني ان على العالم الإسلامي وخاصة قلبه وهو العالم العربي ان يتخلى عن الكثير من أفكاره وعاداته القديمة التي هي جوهر وسبب المشكلة القائمة التي تواجه أمريكا. كان من المبكر جدا القول كيف سيتم ذلك لكنني شعرت بان الإدارة الأمريكية لابد وان تتوصل عاجلاً وليس آجلاً الى ان هناك حاجة وضرورة للتغيير في هذا المنطقة وان البداية لابد انها ستكون من العراق الذي تحول بفضل سياسات "صدام حسين" الغبية وحروبه المدمرة وتشبثه بالسلطة بأي ثمن الى بطن رخوة يسهل ضربها. كنت قبل ذلك قد كتبت في "الوسط" بتاريخ 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 2000 بان سياسة أي إدارة امريكية قادمة لابد وان تجعل من العراق محور استراتيجيتها في الشرق الأوسط في ظل حقائق جديدة منها فشل سياسة "الإحتواء المزدوج" ضد نظام "صدام" واستمراره في تحدي الولايات المتحدة وظهور مؤشرات على نجاحه في إحداث اختراقات مهمة في جدار العزلة المفروض عليه بسبب الأموال

التي حققها له "برنامج النفط مقابل الغذاء" والتي اتاحت له شراء ذمم أنظمة ورجال حكومات وسياسة في كل انحاء العالم بدءًا يلتزمون موافقه ويدافعون عنها. في الأسابيع التي تلت ضربات نيويورك وواشنطن بدأت مؤشرات عديدة تظهر من واشنطن بان ادارة "بوش" قد بدأت فعلا بالربط بين "صدام" و"بن لادن" وبين العراق و"القاعدة" وبغض النظر عما اذا كان هناك ما يسند هذا الربط أم لا غير ان سياسة جديدة أمريكية تجاه العراق وهي بالتأكيد سياسة حازمة بدأت تتبلور ومعها أخذ العد العكسي لضرب العراق والتخلص من "صدام" يبدأ. لم أجد شخصياً من خلال عملي في المتابعة الدقيقة خلال الأشهر التي تلت الهجمات دليلاً على التقارير التي أشارت الى هذا الربط من أمثال القصص العديدة التي روجت عن علاقات أحد الدبلوماسيين العراقيين العاملين في براغ مع "محمد عطا" قائد إحدى المجموعات الإرهابية التي ضربت أحد برجى "مركز التجارة الدولي" أو عن معسكرات التدريب التي قيل ان "صدام" أقامها للقاعدة في العراق أو عن علاقات ربطت "فاروق حجازي" أحد مسؤولي المخابرات العراقية مع "أسامة بن لادن" نفسه ووجدت ان الأمر لا يتعدى كونه فبركات صحفية أو في أحسن الأحوال إشاعات غير مؤكدة لكن من

المؤكد انها ستكون من بين الذرائع التي ستستخدم ضد "صدام" اذا ما قررت الإدارة شن الحرب عليه. والواقع ان إحساساً كان قد تولد لدي ان قراراً بشن الحرب لإزاحة "صدام" لابد وان كان قد اتخذ بشكل من الأشكال حتى قبل ذلك بكثير من قبل إدارة "بوش" وهبطت أحداث التفجيرات في نيويورك وواشنطن كهدية لتكون الذريعة التي تشن بها الحملة على الإرهاب. هذا الأمر بدأ يتأكد في الأيام والأسابيع اللاحقة لتفجيرات 11 أيلول/ سبتمبر ومع بدأ الكلام عن مفهوم الحرب الوقائية أو الإستباقية كعقيدة تبنتها إدارة "بوش". وكم كان مثيراً ما اباح به "بول أونيل" "وزير الخزانة" في بداية عهد "بوش" والذي استقال بعدئذ في تصريحات له في شهر كانون الثاني/ يناير 2004 من ان الرئيس "بوش" كان يفكر بل وناقش مسألة شن الحرب واسقاط "صدام" في بداية عهده وفي أول إجتماع لـ "مجلس الأمن القومي" الأمريكي الذي عقده بعد تسنمه منصبه وقبل سبعة أشهر من تفجيرات 11 أيلول / سبتمبر. وربما كان الأكثر إثارة هو ما كشفه "ريشارد كلارك" نائب مستشارة الأمن القومي في كتابه "ضد كل الاعداء، من داخل حرب أمريكا على الإرهاب" عن الحاح "بوش" عليه في تلك الأيام على ضرورة إيجاد أي رابط بين "صدام" وبين "بن لادن" لكي يكون

مبرره للحرب الإستباقية على الإرهاب التي وضع الأثنين في مرمى نيرانها.

*

مع بداية عام 2002 بدأت العديد من المؤشرات تبرز من ان إدارة الرئيس "بوش" خطت خطوات فعلية للتحضير للحرب التي تريد ان تشنها على العراق للقضاء على نظام "صدام" وانها بدأت بالفعل بإتخاذ خطوات عملية لتهيئة مسرح الحرب التي ستخوضها ضد "صدام". كان "بوش" قد طرح رؤيته في ما يتعلق بدول "محور الشر" والتي وضع العراق على رأس قائمتها و بدأ مذهبه حول الحرب الاستباقية يأخذ طريقه للتنفيذ. في بداية آذار/ مارس 2002 بدأ نائب الرئيس الأمريكي "ديك تشيني" جولة في المنطقة دشنها في "القاهرة" في محاولة محمومة لكسب التأييد العربي للحرب أو على الأقل تحييد من لا يرغب في المشاركة الفعلية. في "القاهرة" اجتمع "شيني" مع الرئيس المصري "حسني مبارك" ثم انتقل في اليوم ذاته الى العقبة في الأردن للإجتماع مع "الملك عبد الله الثاني". لحقت بـ"تشيني" بعد تغطيتي

لقاءه مع مبارك في صنعاء التي وصلتها فجر اليوم التالي وبقيت في المطار بانتظار وصول "تشيبي" حيث أخبرت بأن لقاءه مع الرئيس اليمني "علي عبد الله صالح" سيكون خاطفاً هناك. كان المشهد في مطار صنعاء حيث رتب للإجتماع بين "تشيبي" والرئيس مثيراً للإنتباه وأكثر دلالة من أي مكان آخر اثناء جولة "تشيبي" تلك. فقد ملئ رجال الأمن الأمريكيون صالة الشرف في المطار والمنطقة المحيطة بها التي أصروا على يكون مكان الإجتماع فيها نظراً لعدم اطمئنانهم على سلامة نائب الرئيس لو نزل موكبه الى المدينة التي ربما يتغل فيها الإسلاميون المتطرفون من اتباع أو مؤيدي "بن لادن" الذين كانوا قد فجروا قبل أشهر السفينة الحربية الامريكية "كول" في ميناء "عدن" وقتلوا عدداً من من بحارتها. رجال الأمن الأمريكيين سيطروا تماماً على المكان حتى انهم فتشوا قاعة الشرف بالكلاب التي كانت ترافقهم وغيروا من مكان اللقاء وسط ذهول رجال الأمن الرئاسي اليمني الذين كانوا يرافقون "صالح" الذي ظل داخل قاعة الشرف بينما ذهب نائبه اللواء "عبد ربه منصور" ينتظر وصول طائرة "تشيبي" على أرض مدرج المطار. حين حطت طائرة نقل عسكرية تقدم المسؤولون اليمنيون وعلى رأسهم "منصور" لإستقبال "تشيبي" لكن تبين انها

ليست الطائرة التي تقل نائب الرئيس الامريكي بل مزيداً من الحرس والمارينز ورجال الأمن الأمريكيين الذين انتشروا في أرجاء المطار. حطت بعدها طائرة ثانية من نفس الطراز ثم تبين انها طائرة كانت تحمل عدداً كبيراً من الصحفيين الأمريكان. بعد دقائق بدت طائرة اخرى من نفس الطراز ايضاً تهبط على أرض المدرج وكانت درجة الإثارة قد تصاعدت لدى المسؤولين والعدد المحدود من الصحفيين الذين سمح لنا بالوقوف قريباً قبل ان تتوقف ويظهر منها "تشيني". استمر اجتماع "صالح" و"تشيني" أكثر من الساعة بقليل وانتهى بمؤتمر صحفي قرأ فيه "تشيني" بياناً فقط ورفض الإجابة على أسئلة الصحفيين. سألت الرئيس اليمني بعد ذلك وقبل ان يغادر القاعة عن الاجتماع وعما اذا كانت اليمن ستلبي الطلب الامريكي بتأييد الحرب وان تقدم الدعم لها فنظر الي أولاً ربما بعد ان تنبه الى لهجتي العربية ثم سأل وزير الإعلام الذي يقف الى جانبه الذي سمت جزءاً مما أخبره به بأني قادم من القاهرة. عندها انبرى "صالح" بسؤالي: " هل تعتقدون انتم المصريين بان بإمكانكم ان تضعوا الأمريكان بعكم وتلعبوا معهم لوحدكم؟" قبل ان يسترسل وكان ذلك ربما خطأ مني أجبته باني عراقي ولست بمصري. عندها تغيرت سيماء "صالح" ولهجته وقال انهم

سيقفون مع العراق كما فعلوا دائماً مضيفاً بان على ان أنتظر قليلاً فانهم سيصدرون بياناً سيجعل كل عربي فخوراً بالموقف اليمني الذي سيعلن. عندما صدر البيان لم يكن الا تكراراً للمواقف العربية التي تقال منذ بداية التصعيد بأنهم يقفون مع العراق الشقيق. في محطاته الأخرى في دول الخليج ساد موقف عربي مماثل، لا إعلان رسمي عن الدعم للحرب القادمة ولكن ايماءات واضحة للأمريكان بان افعلوا ما يحلو لكم. ما أثار اهتمامي أيضاً ان جميع الدول التي زارها "تشيني" كانت على خط سير السفن التي من المتوقع ان تنقل القوات الأمريكية الى "الكويت" ثم العراق او انها تستضيف قواعد أو قوات أمريكية على أراضيها. في المذكرات الشخصية وكتب عديدة ستصدر بعد ذلك سيتضح بان كل هذه الدول العربية لم تبلغ "تشيني" وغيره من كبار المسؤولين السياسيين والعسكريين الأمريكان بمعارضتها للحرب بل انها أعلنت رغبتها بالتخلص من "صدام" كما عرضت مساعدات لوجستية للقوات الأمريكية الغازية.

على الصعيد العراقي كان الأمريكان قد حلوا مشكلة كبيرة وهي الخلافات المستعصية بين الفصليين الكرديين الكبيرين وتمكنوا من انهاءها بالمصالحة بين زعيميهما في اتفاق وقع في واشنطن وبذلك

انتهى الموقف المتردد لزعيم "الحزب الديمقراطي الكردستاني" "مسعود برزاني" الذي كان يصر في تصريحاته بان الأكراد غير مستعدين للإنخراط في أية خطط أمريكية للإطاحة بـ"صدام" وتأكيد على ان هناك حواراً قائماً مع "بغداد" يمكن ان يحل المشكلة الكردية. في نيسان/ أبريل من ذلك العام دعت الإدارة الأمريكية كلاً من "برزاني" و"طالباني" الى اجتماعات سرية عقدت في قاعدة أمريكية في ألمانيا وربما انتقلا منها بعد ذلك الى واشنطن والالتقاء هناك بكبار المسؤولين في الإدارة لمناقشة الإستعدادات للحرب ودور الأكراد فيها. كنت قد نشرت خبر اللقاء السري والعاجل بعد حصولي لتأكيد عليه من مصادري الا ان المسؤولين الأكراد نفوا في البداية حصول الاجتماع في البداية لكن عندما واجهتهم بتأكيد مسؤول في الخارجية الألمانية وصول "برزاني" و"طالباني" الى ألمانيا عادوا وأكدوه بل أقروا بان دور الأكراد في الإستعداد للحرب كان في صلب المباحثات. في حزيران/ يونيو واثناء زيارة قمت بها الى "لندن" وبعد ان انهيت دورة تدريبية اقيمت لمراسلي الوكالة للتدريب على مخاطر الحرب والحماية منها وجدت ان أطراف المعارضة في نشاط محموم لمناقشة دورها في المرحلة القادمة. كان هناك قناعة تامة بان الإدارة الأمريكية حسمت

أمرها وان على أطراف المعارضة العراقية ان تستعد لمرحلة التغيير. في مقر "المؤتمر الوطني العراقي" في كينسغتن قابلت "احمد الجلبي" لأول مرة في مكتب "لطيف رشيد" فبدا لي كما تصورته دائماً يحمل في نفسه الكثير من الإعتداد المفرط بالنفس الى درجة الغرور لكنه ظهر أكثر من ذلك وبدا واثقاً ان الأمور محسومة هذه المرة كما ارادها وان حلمه في ان يجلس على كرسي "صدام" سيتحقق قريباً. في نفس الوقت كان ممثلون عن الحزبين الكرديين الى جانب ممثلين عن "المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق" و"حركة الوفاق الوطني" و"الحركة الملكية الدستورية" يعقدون اجتماعات مكثفة في "واشنطن" للبحث في مستقبل العراق لما بعد "صدام". على الجانب الآخر برزت في هذه الأثناء أصوات عدد من ضباط وقادة الجيش العراقي المنشقين ومن بينهم الفريق الأول "نزار الخزرجي" المقيم في "الدنمارك" الذي بدا وكأنه يسعى في هذه المرحلة لكي يؤسس لحركة سياسة تكون مظلتها للدخول في المشاريع السياسية المطروحة. عندما تحدثت معه تلفونياً كان واضحاً في إستعداده ان يلعب هو شخصياً دوراً قيادياً لكنه كان كمن يضع شرطاً لذلك وهو بقاء الجيش العراقي رغم انه أعرب عن الرأي بان الجيش يجب الا يلعب دوراً سياسياً في عراق المستقبل. بدا

لي ان موقف "الخزرجي" يتناقض مع مواقف أطراف المعارضة الرئيسية وانه يعزف على نغمة مختلفة تماماً عما يفكر به الأمريكيان. كان "الخزرجي" شخصية غير مقبولة من قبل معظم الجماعات السياسية المعارضة بسبب ماضيه في ظل نظام "صدام" والقضية التي كانت رفعت ضده في "الدنمارك" والتي اتهمه فيها أكراد بالمشاركة في ضرب الأكراد اما في "حلبجة" أو في عمليات "الأنفال" بالأسلحة الكيميائية اثناء وجوده في منصب رئيس الأركان بالجيش العراقي. لكن مع ذلك ظل اسمه يطرح لبضعة أسابيع باعتباره "كرازي" العراق تشبيها بالزعيم الأفغاني "حميد كرزاي" قبل ان يثير اختفاؤه الغامض من مقره في "الدنمارك" قبيل الحرب بأيام الكثير من الأسئلة عن الجهات العربية أو حتى الدولية التي ساعدته في "الهروب" وعن مصلحتها في ذلك وعن مستقبله السياسي أيضاً. ضباط منشقون آخرون بدؤوا يلعلعون في الفضائيات العربية وفي تصريحات الى الصحف مبشرين بقرب قدومهم كمحررين للعراق وطارحين أنفسهم في سوق الزعامة لبلد يرونه على وشك السقوط كثمرة ناضجة في احضانهم. ما يثير السخرية هو ان معظم هؤلاء الضباط خدموا "صدام" طويلاً والبعض عمل في قيادات أجهزته الأمنية والمخابراتية لسنوات

عديدة والآن يقدمون خدماتهم لأجهزة عربية ودولية مماثلة في الوقت الذي يظهرون فيه على شاشات التلفزيون يتكلمون عن الديمقراطية والحريات وحقوق الإنسان.

*

من المؤشرات القوية على ان إدارة "بوش" كانت قد دخلت فعلاً مرحلة التخطيط للحرب وإزاحة "صدام" كانت زيارة وفد يمثل مجموعة الستة للمعارضة العراقية الى "واشنطن" والتي بدأت يوم الثامن من آب/أغسطس 2002 حيث عقد مسؤولون كبار في وزارتي الخارجية والدفاع و"مجلس الأمن القومي" و"وكالة المخابرات المركزية" في اليوم التالي محادثات مع أعضاء الوفد والذي شارك فيه لأول مرة "عبد العزيز الحكيم" عن "المجلس الأعلى للثورة الإسلامية" في "العراق" وهو الشخص الوحيد من أعضاء الوفد الذي دعي الى زيارة مبنى "البنتاغون" لإطلاعه على بعض الإستعدادات للحرب وخططها مما عزز التوقعات بدور كبير للمجلس في المرحلة القادمة وحسم "إيران" لموقفها من الحرب القادمة. كان أخوه "محمد باقر الحكيم" رئيس المجلس قد بعث يستشيرني عن طريق مدير مكتب المجلس في "لندن"

"حامد البياتي" من خلال سؤال واحد وهو هل يشاركون في تلك الجهود. أجبته عن طريق "البياتي" أيضاً بان " لاخيار لكم في ذلك." كنت اتحدث يومياً بالتلفون مع بعض أعضاء الوفد وأجد ان تحليلهم للموقف الأمريكي هو ان الإدارة كانت أكثر جدية مما كانوا يظنون حين تم دعوتهم للقاءات واشنطن في التعجيل بعملية التغيير مما أدى الى إقتناعهم بأن عليهم ان يبدؤا الإستعداد جدياً للمرحلة المقبلة. الواقع ان هذه الإجتماعات كانت البداية الفعلية التي وضع الأمريكان فيها ثقلهم على هذه المجموعات للمشاركة في تهيئة الأجواء للحرب في الوقت الذي ظلت هناك أسئلة حقيقية بلا إجابة عن مدى قدرة مجموعات المعارضة المتصارعة واللاديمقراطية والتي ليس لديها وجود حقيقي على الأرض وتفتقر الى الدعم الشعبي داخل العراق في إقامة نظام ديمقراطي بعد إسقاط "صدام". ما ان انتهت الزيارة حتى بدأت الإستعدادات لعقد مؤتمر موسع للمعارضة العراقية يهيء الواجهة العراقية المطلوبة لشن الحرب واسقاط النظام. في نفس يوم وصول وفد المعارضة الى واشنطن كان "صدام" يحتفل بما يسميه بـ"اليوم العظيم" وهو اليوم الذي أعلن فيه "الخميني" قبوله بقرار وقف اطلاق النار في الحرب مع ايران قبل أربعة عشر عاماً. في خطابه وعد

"صدام" بدحر "الغزاة" الذين قال انهم "سيموتون بعارهم" وطالب "قوي الشر" ان "تهياً أكفانها معها" مهدداً اياها اما "بالعودة عن مخططاتهم او ان يحفروا قبورهم بايديهم". كنت اتابع خطاب "صدام" من مكتبي في القاهرة فأتساءل ان كان "صدام" يعي فعلاً مغزى ما يحدث حوله وماذا يمكن له ان يفعله لكي يتجنب ذلك عدى اصدار التهديدات الجوفاء تلك.

*

في يوم 14 كانون الأول/ يناير 2002 افتتح اجتماع المعارضة العراقية في لندن والمكرس للإعداد للحرب ولفترة ما بعد إسقاط النظام بعد عقبات عديدة ظهرت، منها ما هو خارجي، ومنها ما هو داخلي. فلسبب ما لم يعلن عنه ولكنه بدا مرتبطاً بحاجة الولايات المتحدة للحصول على تأييد أوروبي واسع لخططها لشن الحرب اتجهت النية لعقد المؤتمر في "بروكسل" عاصمة الإتحاد الاوربي لكن "بلجيكا" رفضت بقوة الفكرة. عندما زار وزير خارجيتها "لوي ميشل" القاهرة يوم 25 تشرين الثاني/ نوفمبر 2002 سألته في مؤتمر صحفي في القصر

الجمهوري لماذا هم ضد فكرة استضافة المؤتمر في "بروكسل" أجنبي بعد ان فوجيء بالسؤال يأتيه في "القاهرة" وبعد مباحثات مع "مبارك" بشأن قضايا أخرى مختلفة تماماً مما جعله يشعر بعدم الإرتياح. أجنبي بان ليس هناك قرارات لـ "الأمم المتحدة" بخصوص ما يجري الإستعداد له ضد "العراق" وبالتالي فان الأمر يفتقد الى الشرعية الدولية. كان ذلك في الواقع إشارة أولى عن الموقف الأوربي بقيادة "فرنسا" و "المانيا" الذي سيتبلور لاحقاً الى معارضة للحرب. وبسبب الإستعجال الأمريكي البريطاني لتنفيذ المخطط الذي بدأ عده التنازلي منذ زمن فقد قررت "بريطانيا" استضافة المؤتمر في "لندن" وبدأت في منح سمات الدخول على عجل للمشاركين العراقيين من الخارج. داخلياً، كانت الخلافات واضحة منذ البداية بين أطراف المعارضة سواء المنضوية منها تحت مظلة ما أصبح يعرف بمجموعة الستة والتي حسمت قرارها وبين تلك الأطراف التي كانت خارجها والتي وقفت مترددة ومتشككة وممزقة بين رغباتها وحساباتها وعلاقاتها مع دول وأطراف أخرى. كان وفد أمريكي مكون من وكيل وزارة الدفاع "دوغلاس فايت" ووكيل وزير الخارجية "مارك غروسمان" قد زار "لندن" وبدأ ترتيبات عقد المؤتمر العتيد وقدا ورقة الى مجموعة الستة تشدد على

ان الولايات المتحدة لا تساند فكرة ان يخرج المؤتمر بـ"مجلس وطني" ولا بـ"حكومة مؤقتة" في "هذه المرحلة" كما أكدت الورقة التي حصلت على نسخة منها ضرورة ان يختار المؤتمر "هيئة إستشارية" تضم مختلف الأطياف العراقية تعمل كهيئة إتصال بين الولايات المتحدة والمعارضة العراقية. ما لفتي نظري في الورقة التي قمنا بنشرها هو الفقرة الأخيرة التي تقول بضرورة ان يوافق كل عضو في المؤتمر على هذه النقاط سلفاً والا تجري أية عملية تصويت بانتهاءه سوى الموافقة على قراراته بالتصفيق. الفقرة التي سبقتها أكدت على ضرورة ان يشدد المؤتمر على تأييد كل قرارات "مجلس الأمن" بشأن "العراق" وسمت بالتحديد قرار 678 الخاص بوقف اطلاق النار في حرب الخليج الأولى. هذه الإشتراطات إضافة الى هيمنة الجماعات الستة أدت ببعض قوى المعارضة وخاصة "الحزب الشيوعي" و"حزب الدعوة" الى الإستمرار في رفض المشاركة مفضلين في ما يبدو الإنتظار التكتيكي لمرحلة أخرى خشية الا تلصق بهم، في هذه المرحلة، الإتهامات بالإنسياق وراء المخطط الأمريكي. على الجانب الآخر كان هناك من هو غير مدعو للمؤتمر لكنه كان يرغب بالحضور للحصول على نصيبه في الكعكة المرجوة فاختر التشويش على المؤتمر من

الخارج باصدار بيانات وتصريحات ممددة به. لكن برغم الخلافات الخارجية والمساومات الصعبة داخلياً حول تشكيل لجنته التحضيرية فقد انعقد الإجتماع تحت ضغط مارسه على كل الأطراف "زالماي خليل زاد" الدبلوماسي الأمريكي ذو الأصل الأفغاني والذي عين مندوباً رئيسياً عند المعارضة العراقية لأن انعقاده كان مطلوباً وبسرعة تنسجم مع وتيرة سير المخطط الأمريكي للحرب. ما لاحظته سريعاً ان قيادات الجماعات الست كانت مستأثرة بإدارة المؤتمر ونقاشاته حتى بدا أغلبية الاعضاء الـ 300 لا شأن لهم بما يدور في قاعة المؤتمر وقضوا معظم وقتهم خارج القاعة إضافة الى ان المؤتمرين لم يظهروا تركيزاً على القضايا والأفكار التي كان يراد ان تتبلور كبرامج عمل بقدر ما اظهروا تركيزاً على تشكيل "لجنة المتابعة والتنسيق" التي عمل البعض من البداية على ان تكون نواة القيادة أو الحكومة التي ستحل محل نظام "صدام" حال سقوطه. ولم يخف معظم المندوبين صراعاتهم الشخصية أولاً ثم خلافاتهم السياسية والقومية والطائفية ثانياً في مسعاهم لإشغال عضوية اللجنة والتي سرعان ما تحولت الى بؤرة التركيز الإعلامي على المؤتمر والذي أظهر للعالم صورة "العراق" القادم الذي سيقام على انقاض نظام "صدام" الذي بدأت شهادة وفاته

تكتب الآن. عدا الصراعات المعروفة كان سؤالان آخران يثيران الإهتمام وهما: ما هو الدور الحقيقي والفعلي الذي يمكن ان تلعبه هذه الفصائل في عملية اسقاط النظام ثم مالذي سيتمكن لهذه المعارضة التي لا تمتلك رصيذاً سياسياً وتنظيمياً كبيراً داخل "العراق" من ان تفعله حين تعود في مجتمع لم يعرف عن الكثير منها سوى أسماء تتكرر في أجهزة الإعلام الأجنبية وغالباً ما ترتبط بنعوت وصفات سلبية؟ من المؤكد ان هذان السؤالان وغيرهما لم يكونا غائبين عن الكثير من الأجهزة الأمريكية التي تخطط للحرب والتغير في "العراق" ولكن السؤال الأهم هو كيف سيكون بإمكان الولايات المتحدة ان تجعل من معارضة ضعيفة ومفككة بديلاً للنظام الذي حكم العراق بيد من حديد لأكثر من ثلاثين عاماً. الواضح ان الجهد الامريكي كان يأمل أولاً ان يجعل من هذه المعارضة الواجهة المطلوبة عراقياً لخوض الحرب اذ بدون ذلك فان الحرب ستفتقد لشرعيتها العراقية، ولربما كان يأمل، ثانياً، ان يطور من خلال هذه الجماعات والأفراد النخبة السياسية التي يأمل ان يراها ممسكة بزمام الأمور في العراق في فترة ما بعد سقوط "صدام" ونظامه. ما كان يلفت الانتباه هو مدى حرص الممثلين الأمريكان في المؤتمر وخاصة "خليل زاد" الذي حرص على

ان يلتقي شخصياً في جناحه في الفندق ببعض الوجوه لكي يدقق في كل مرشح للجنة التنسيق بل في العديد من أعضاء المؤتمر ويستمع منهم مباشرة الى وجهات نظرهم في ما هو مطروح. كان الأمر يبدو أكثر من محاولة للتعرف على الأعضاء بل اختباراً شخصياً لمقاييس الكفاءة المطلوبة امريكياً. لكن من ناحية ثانية، كان واضحاً أيضاً ان للأمريكان صلات قوية بالكثير من المندوبين بشكل شخصي ويحاولون الموازنة بين رغباتهم في تمرير هؤلاء الأعضاء وبين رأي الجماعات السياسية التي كانت تحتفظ بمواقف معينة منهم لإعتبارات شخصية أو سياسية أو طائفية. بخلاف الدعم الشخصي لمرشحيهم كان الأمريكان يحاولون ان يجدوا توازناً سياسياً بين مختلف الإتجاهات حتى داخل التشكيلة المذهبية مثلاً، كما حصل مع الشيعة، كي لا ينفرد ممثلو جماعة معينة بتمثيل طيف معين منهم. كنت أعمل خلال أيام المؤتمر طيلة النهار والليل كله في لقاءات مع المندوبين وفي متابعة مناقشاتهم فاكتشف في كل مرة ذلك الجانب الكوميدي في تصرفات السياسيين الذين رأيتهم طيلة حياتي المهنية في بلدان عديدة المتسم بالغرور الأحق والغطرسة الفارغة التي عادة ما يلزمها خواء فكري وسخافة تصل أحياناً الى مستوى الإنحطاط والتدني. كان عدد

الطواويس التي شاهدها وهي تنفث ريشها عندما تتكلم أو حتى حين تسير في ممرات الفندق يفوق بكثير أية توقعات ممكنة مما يعطي دلالات كثيرة عن مستقبل "العراق". في لحظات معينة داخل المؤتمر كنت أشعر بان هؤلاء المعارضين المجتمعين في "لندن" لن ينجوا يوماً من الإتهام بانهم جاؤا على دبابات أمريكية مهما ستكون مبرراتهم لذلك وبأن الغزو الأمريكي الآتي كان مجرد أمر واقع وصدفة تاريخية جمعت بين مصالح العراقيين والمصالح الأمريكية وكذلك بسبب إنسداد أفق التغيير الداخلي بسبب سياسات "صدام" القمعية.

كصحفي يعمل في وكالة أنباء أمريكية اعتقد اني استطعت ان انقل للعالم صورة موضوعية وحقيقية حاولت رسمها عن مستقبل لا المعارضة فقط بل عن مستقبل "العراق" أيضاً بعد الحرب التي أصبحت أمراً واقعاً الآن. اما كعراقي فمنذ البداية لم يكن لدي أية أوهام. فقبل إفتتاح المؤتمر بيومين ظهر مقال لي في جريدة "الحياة" التي تصدر في لندن تحت عنوان "زوربا العراقي: كنت أعرف جيداً ما سيهدم لكني لا أعرف مالذي سيبنى فوق الانقاض" كنت كتبتة بمناسبة المؤتمر واحاول ان أوضح فيه ان الحرب قادمة بلا شك وانها ستدمر الكثير من "العراق" لكني كنت أشكك فيه أيضاً بقدرة المعارضة على ان تبني

"العراق" الجديد بعد الإنقضاظ على النظام القديم. الكثيرون من المشاركين لم يعجبهم ذلك الإستنتاج وبنوا عليه مواقف عدائية مني لم يخفوها داخل المؤتمر. ومما أثارهم ايضا مقال ظهر للزميل "عدنان حسين" في "الشرق الأوسط" في اليوم نفسه شدد فيه على ان اجندة المؤتمر وبعض بنودها شروط مذلة أملتها الولايات المتحدة الأمريكية كما قال فيه ان بعض الذين سيجلسون في المقاعد الامامية في المؤتمر هم "جلادون وقتلة سابقون وعناصر أمن ومخابرات واستخبارات سابقون وخدام أذلاء لـ"صدام". كما سيشارك فيه اشخاص لا يعرفون من العراق شيئاً ولم يعيشوا فيه وآخرون هم سراق مال عام وخاص داخل العراق وخارجه وغيرهم من تجار الحروب." قبل ذلك بيومين كان الشاعر "سعدى يوسف" قد نشر قصيدة يصف فيها المؤتمر بانه "عرس أبناء آوى" ويختتمها بقوله "سوف أبصق في وجوه بنات آوى/سوف أبصق في صحائفهم/وأبصق في قوائمهم/وأعلن اننا أهل العراق/ودوحة النسب/وأعلن اننا الأعلون تحت سقيفة القصب./

*

بعد مؤتمر "لندن" بأيام قليلة توجهت الى "عمان" التي وصلتها يوم 21 كانون الأول/ يناير 2002 في مهمة قصيرة في مكتب الوكالة هناك لإعتبارات عديدة منها ان العاصمة الأردنية هي الأقرب لـ"العراق" جغرافياً ولتواجد مكاتب لبعض قوى المعارضة العراقية فيها إضافة الى وجود جالية عراقية كبيرة هناك. في "عمان" كان يمكن إستكمال رسم صورة لما يجري في "العراق" غداة الغزو المتوقع من خلال المعلومات والأخبار وحتى الإشاعات التي يجري تداولها في أوساط العراقيين وكذلك قياس نبض الشارع العربي الذي لابد انه سيعبر عن رأيه في الحرب اذا ما وقعت. كان العراقيون منقسمين كالعادة بشأن الغزو وإحتمالاته لكن يجمعهم القلق مما يمكن ان تنتهي اليه الأمور هذه المرة. اما بالنسبة للشارع الأردني فكان يعيش نفس حالة الإضطراب بالرؤية التي سادت خلال حرب تحرير "الكويت" حيث الأردني ممزق بين مشاعر تأييد صدام ومعاداة أمريكا واسرائيل وبين موقف الحفاظ على مصالح الأردن التي تقتضي عدم الصدام مع الأمريكان وحماية المكتسبات الإقتصادية التي يحققها "الأردن" الرسمي والشعبي. كان من السهولة ان أرى ان هناك من ينطلق من موقف تقليدي معادي

لأمريكا وخاصة في صفوف الإسلاميين والقوميين واليساريين الذين يرفضون خطط ونوايا الغزو في حين كانت هناك نسبة معقولة ممن تحدثت اليهم سواء في الشارع أو من أفراد النخبة تحدثوا عن صدام كونه رجل أناني ومغرور ومغامر في طريقه الى أن يدمر "العراق" ويفتح المنطقة العربية أمام الهيمنة الأمريكية. بت بعد سنوات من العمل في المنطقة أعي الكثير عن كيفية تطور الرأي العام، أو بالأحرى صناعته والمعادلات التي تتحكم به، خاصة عندما يكون الأمر متعلقاً بأمريكا لكن تلك التجربة التي سأعيشها في "الأردن" وبعد ذلك في العديد من البلدان العربية أثناء أزمة غزو "العراق" ستعلمني الكثير عن الشارع العربي ومزاجه وتقلباته والأهم من ذلك قدرته الفعلية على التأثير. ما أذهلني حينها هو قدرة الأنظمة العربية التي أصبح لديها الآن وسائل تقنية متطورة كمحطات التلفزيون الفضائية والانترنت تستخدمها مثل لاعبي السيرك في السير فوق حبل رقيق في محاولة إدارة هذا المزاج الشعبي بطريقة تحاول فيها التوازن بين هذا الإندفاع العاطفي وعلاقاتها مع أمريكا وأيضاً مصالحها الذاتية التي تدرك انها ستتعرض للخطر. كان الرأي العام العربي يكره أمريكا وكل ما تقوم به في المنطقة وكانت الأنظمة تكره "صدام" لأنه ورطها

في مغامراته منذ الحرب مع "إيران" وغزوه لـ"الكويت" وتتمنى ان ينتهي كابوسه لكنها كانت أيضاً تخشى ان يكون مصيرها كمصير صدام.

بعد أيام من وصولي الى "عمان" تمكنت من الإطلاع من مصادر متنوعة عليا بان هناك إتصالات تجري بين بعض الدول والشخصيات العربية بهدف اقناع "صدام" بفكرة التخلي عن الحكم ومغادرة العراق لقاء الترتيب لمنفى مناسب له في بلد ما. كانت الفكرة بدأت في نطاق ضيق بين مجموعة من الشخصيات العراقية المستقلة المعارضة لصدام والتي كانت تعارض الغزو الأمريكي أيضاً. كنت واحداً من هؤلاء وكنا في تلك الأيام نحاول بشكل بعيد عن الإعلام صياغة أفكار وخطة عمل غايتها تجنب الحرب من خلال محاولة إقناع صدام بالتنحي طوعياً. كان البعض من هذه المجموعة قد بدأ اتصالات مع قيادات وسياسين عرب لإقناعهم بالفكرة ودعوتهم لتبنيها وحين علمت بان الأمر وصل الى مرحلة تتطلب الكشف عن المشروع قررت الكتابة عن الموضوع وكانت المرة الأولى التي تطرح فيها فكرة تنحي "صدام" في الإعلام الدولي يمكنها تجنب الحرب. كنت متيقناً اولاً من عدم حماس إدارة "بوش" للفكرة لأنها تراهن على الحرب كما لم أكن واثقاً من صدام سيقبل هو أيضاً بالتنحي ولكي اتناول هذه الاحتمالات من كل جانب

فقد وضعت الموقفين بنظر الإعتبار في ماكتبته. الطريف انه عندما تكلمت مع "صباح سلمان" السكرتير الصحفي الأسبق لـ"صدام" من منفاه في "هولندا" عن هذا الإحتمال أكد، وهذا ما نشرته بأسمه، بأن "صدام" لن يتنحى وهو إستنتاج ربما كان صحيحاً لكن "سلمان" أضاف انه سيحتفظ بالطلقة الأخيرة في مسدسه لنفسه وهو ما اعتبرته رهاناً على العالم كله ان ينتظره لكي يرى كيف سيتصرف الرئيس العراقي. عندما عدت الى "القاهرة" كانت فكرة التنحي قد أصبحت محوراً مهماً في النقاش ليس في الصحافة العالمية فحسب، بل في الأوساط السياسية وطرحت أسماء بعض الدول ومنها "مصر" التي قيل لي من مصادري الخاصة ان "مبارك" على إستعداد لإستضافته لو طلب هو والأمريكان ذلك كما تذكرت ان بعض المسؤولين فيها ومنهم "اسامة الباز" المستشار السياسي لـ"مبارك" كان قد صرح قبل سنوات عن إستعداد "مصر" لقبول "صدام" لاجئاً فيها. تذكرت قصة "صدام" عندما كان في "مصر" بعد هروبه إثر العملية الفاشلة التي شارك فيها لإغتيال "عبد الكريم قاسم" عام 1959 فقررت ان أقابل بعض الذين عرفوه في تلك الفترة وكم كانت دهشتي عندما تحدث لي الصيدلي "لويس نجيب" والذي يعتبر نفسه صديق "صدام" منذ وجوده في

"القاهرة" وعرض أثناء مقابلي معه على "صدام" ان يستضيفه في بيت قال أنه بناه خصيصاً له في منطقة الأهرامات. سرعان ما تطورت فكرة تنحي "صدام" وتجاوزت صفحات الجرائد الى تحركات دبلوماسية خفية. ففي شباط زار الرئيس اللبناني الأسبق "أمين الجميل" "بغداد" في محاولة للوساطة بينه وبين الإدارة الأمريكية لإيجاد مخرج للحرب التي كانت وشيكة. ما تسرب من جهود الجميل كما نقلت الى من صديق التقاه انه نقل اليه رسالة من "دونالد رامسفيلد" وزير الدفاع الأمريكي يعرض عليه مغادرة العراق مع أمواله وعائلته ومن يرغب باصطحابهم معه الى منفى سيدبرون فيه أمره غير ان "صدام" رفض العرض واقترح بدلاً من ذلك منحه امتيازات النفط العراقي لشركات أمريكية مع توقيعه على اتفاقية سلام مع "إسرائيل" والسماح للمعارضة العراقية بالعودة لقاء ابقاءه في السلطة. في مقابلة مع القناة الرابعة في التلفزيون البريطاني يوم 12 كانون الثاني/ يناير 2004 قدم الجميل روايته بما حصل في المبادرة واعترف أنه كان وسيطاً بين "صدام" وإدارة "بوش" نظراً لعلاقات سائلة مع رجال في الإدارة الأمريكية على رأسهم "رامسفيلد". واستناداً الى رواية "الجميل" فإنه تلقى قبل الحرب رسالة من "صدام" عبر وسطاء "مخلصين" للطرفين تفيد بأن

"صدام" يريد الإلتقاء به في "بغداد" على نحو عاجل. وقال "الجميل" انه توجه الى "بغداد" وهناك التقى بـ"صدام" الذي أراد منه نقل رسالة إلى الأميركيين يقول فيها "انه عازم على تنفيذ كل ما تطلبه الولايات المتحدة من إجراء انتخابات ديموقراطية حرة بمشاركة دولية، وفتح كل المنشآت العراقية للتفتيش الدولي في سبيل التوصل على حل يخدم مصالح الطرفين والمنطقة كلها". لكن "الجميل" أكد على ان نتائج مشاوراته مع "الأصدقاء الذين أعرفهم وأتفاهم معهم جيداً في الإدارة الأميركية الراهنة" يؤكد على أنه لا بد من التخلص من حكم صدام حسين مهما كانت التنازلات من جانبه وفي أي شكل". وأضاف "الجميل" أنه عاد إلى "بغداد" ليلبغ "صدام" بأن الحرب آتية لا محالة وان الإدارة الأميركية الجديدة عازمة على إسقاطه، وأنه يتعين عليه فعل شيء ما قبل فوات الأوان".

*

في الأول من اذار/ مارس 2003 انعقدت القمة العربية في "شرم الشيخ" بمصر بعد مشاورات عديدة بين الرؤساء العرب ادت الى نقل القمة من مقرها المقرر سابقاً في "البحرين" الى "مصر". في اليومين

الذين سبقا القمة عقد وزراء الخارجية العرب اجتماعات تمهيدية لإقرار مشروع البيان الختامي. وكعادته منذ تسلمه منصب وزير الخارجية منذ سنتين كان وزير الخارجية العراقي "تاجي الحديثي" يمارس ميوله الإستعراضية داخل وخارج قاعة الاجتماعات والتي زادت هذه المرة بتصريحات تتسم بالعنجهية والصلافة، بل انه تمادى في مرات عديدة في ردود خلت من أي لياقة مع الصحفيين الذين كانوا يسألونه عن ردود الأفعال العراقية. كان أعضاء الوفد العراقي الذي ضم أيضاً وزير التجارة "محمد مهدي صالح" واضحي التوتر والإنفعال وخاصة خارج قاعة الاجتماعات في فندق الشيراتون كمن يدرك تماماً بأنه يدافع عن قضية خاسرة ولم يكن في أيديهم غير سلاح الإستفزاز والترهيب حتى لو كان لفضياً وفارغاً. بعض الصحفيين العراقيين الذين رافق الوفد كانوا من الذين أعرفهم منذ أيام العمل في "بغداد" وكانوا كلما سنحت لهم الفرصة في الكلام معي بعيداً عن مراقبة موظف السفارة العراقية في "القاهرة" عقيد المخابرات "عبيد التكريتي" الذي تكفل بتلك المهمة يسألون سؤالاً واحداً وهو هل هناك مخرج وكنت أشعر بوطأة الإحباط الذي يرتسم على وجوههم عندما أجيبهم بان عمر النظام الذي يخدموه أصبح الآن يعد بالأسابيع ان لم يكن بالأيام.

القمة نفسها لم تكن الا عرضاً آخرًا من عروض السياسة العربية التي تتسم بالعجز والهوان والنفاق. فالبيان الختامي الذي أصدرته القمة اكد على الرفض المطلق لضرب العراق او تهديد أمن وسلامة أي دولة عربية بإعتباره تهديداً للأمن القومي العربي كما أكد على امتناع الدول العربية عن المشاركة في أي عمل عسكري يستهدف أمن وسلامة أي دولة عربية. لكن في نفس الوقت الذي كان يصاغ فيه البيان الختامي ويوقع عليه كانت العشرات من السفن الحربية الأمريكية والبريطانية تمخر عبر "قناة السويس" الى البحر الأحمر على مسافة لا تبعد الا اميالاً قليلة عن مكان انعقاد القمة مارة بتسع دول عربية من تلك التي أصدرت البيان وفي طريقها الى المشاركة في ضرب العراق. ما أعطى القمة نكهتها الهزلية أيضاً هو ذلك المشهد الكاريكاتوري الذي انخرط فيه الزعماء على الهواء مباشرة اثر المشادة الكلامية بين الزعيم الليبي العقيد "معمر القذافي" وولي العهد السعودي "الأمير عبد الله" الذي حول القمة الى مسرح عبثي مثلما أكد على ان الوضع العربي برمته في تلك اللحظة التاريخية لم يكن الا كوميديا سوداء. كانت رسالة رئيس دولة الإمارات "الشيخ زايد بن سلطان ال نهيان" والتي دعا فيها "صدام" الى التنحي هي اللفتة الوحيدة في القمة التي

استلقت الإهتمام الإعلامي وكان يمكن ان تمنح المؤتمر نوعاً من الرصانة والجدية في مواجهة المشكلة لولا التصرف الغريب الذي حدا بالأمين العام للجامعة العربية "عمرو موسى" الى الامتناع عن قراءة رسالة "الشيخ زايد" في جلسة القمة. عندما خرج ابن "الشيخ زايد" وزير إعلامه "الشيخ عبد الله" لتوزيع الرسالة على الصحفيين خارج قاعة المؤتمر كان واضحاً ان العرب ضيعوا فرصة جدية لإرسال رسالة واضحة ومدوية لـ"صدام" بانه ببقائه في السلطة سوف لا يضحى بالعراق ويفتح أبوابه أمام الغزو فقط بل سيفتح كل العالم العربي أمام التهديدات التي حذر منها بيان القمة. هذه الفرصة ضاعت مرة أخيرة بعد ثلاثة أيام في العاصمة القطرية الدوحة حين عقدت القمة الإسلامية وخرج الزعماء ومن يمثلونهم ببيان هزيل مشابه مُحملاً هذه المرة بنكهة نفاق قوية ولا مثل لها نظراً لأن قاعة المؤتمر كانت تبعد كيلومترات قليلة عن "قاعدة السيلية" التي ستدار منها بعد أيام الحرب ضد العراق وعن "قاعدة العبيد" التي ستنتقل منها الطائرات الأمريكية لضربه. في اليوم التالي للقمة ذهبت الى "مسجد عمر بن الخطاب" حيث يصلي ويلقي خطبة الجمعة "الشيخ يوسف القرضاوي" والذي شن هجوماً لاذعاً على الأمريكان كما دعا الى الجهاد لكنه تجاهل بدوره

الكلام عن القواعد الامريكية القريبة والتي كانت تهبط فيها الطائرات التي ستضرب العراق بعد ايام بينما كان صوته يجهر بدعوات الجهاد لنصرة العراق. عندما انتهى من الصلاة قلت له باني سأكتب موضوعاً عن الخطبة ومن المفيد ان أضمنه رأيه فسألته عن هذه المفارقة بين دعوته الى الجهاد ووجوده في مكان لا يبعد عن القاعدة الأمريكية التي ستقود منها القوات الأمريكية الحرب الا ان الداعية الإسلامي الكبير تجاهل السؤال تماماً وقام من كرسيه ومضى. حاولت ان اجد إجابة عند شبان قطرين كانوا في المسجد سألتهم كيف ينظرون الى وجود هذه القواعد في بلادهم والتي ستنتقل منها القوات لتدمير بلد عربي وهل سيلبون دعوة "الشيخ القرضاوي" الى الجهاد ضد الأمريكيين؟ اجباني احدهم بعد ان نظر الي أولاً بريبة ثم بإستغراب: "هل أنت مجنون؟"

*

على الرغم من ان الحرب كانت ستشن عملياً للقضاء على نظام "صدام" الا ان دافعها المعلن والذي استخدم كمبرر طيلة هذه الفترة كان التخلص من أسلحة الدمار الشامل العراقية والتي اعتبرها الخطاب الإعلامي للإدارة الأمريكية تهديداً مباشراً للولايات المتحدة ذاتها وليس

فقط لمصالحها أو لحلفائها في المنطقة. في يوم الخميس 12 أيلول/ سبتمبر 2002 القى الرئيس "بوش" خطاباً في الجمعية العامة للأمم المتحدة وصف نظام "صدام" بأنه "خارج عن القانون" ودعا فيه العالم الى تشكيل أئتلاف دولي لنزع أسلحة الدمار الشامل العراقية كما أنهم "صدام" بمساندة الإرهاب الدولي واضطهاد شعبه. ورغم ان الخطاب كان قد أعد بشكل متقن لإقناع الرأي العام الأمريكي واستقطاب التأييد الدولي لتأييد دوافع الحرب التي كان "بوش" يستعد لها الا انه لم يوفر دليلاً ناصعاً على امتلاك العراق للأسلحة المذكورة سوى تأكيده على حجب نظام "صدام" للمعلومات بشأن الأسلحة عن المفتشين الدوليين. خلال الأشهر التي تلت ذلك استمرت الإدارة الامريكية وحليفاتها المخلصة الحكومة البريطانية العزف على أسطوانة أسلحة الدمار الشامل لكن دون دليل مقنع حتى ان الحكومة البريطانية لجأت الى سرقة معلومات قديمة من رسالة أكاديمية لطالب من اصل عراقي من على الأنترنت في سبيل دعم حججها بينما ظل العالم غير مقتنع تماماً بذلك. في الخامس من شباط/ فبراير 2003 ظهر "كولن باول" في "مجلس الأمن الدولي" ليلقي خطاباً حول أسلحة الدمار الشامل العراقية كان بمثابة المرافعة النهائية التي قدمها للحصول على قرار

دولي بشأن الحرب على العراق. عرض "باول" ما أسماه حجج دامغة كان من بينها صوراً وتسجيلات قال انها من ضباط عراقيين وكذلك أنبوباً قال ان فيه مادة بيضاء يمكنها قتل الآلاف اذا ما أُلقيت في احدى المدن الأمريكية أو الغربية. من المؤكد ان معلومات "باول" جاءت من المخابرات الأمريكية ومن المؤكد انه اقتنع بها قبل تقديمها بهذا الشكل الدرامي ومع ذلك لم يستطع حتى "باول" الأكثر عقلانية بين المسؤولين الأمريكيين من كسب تأييد العالم لقضية شن الحرب على العراق من أجل التخلص من أسلحة الدمار الشامل لا دليل على وجودها. كان موقف "هانز بليكس" الدبلوماسي السويدي ورئيس فريق مفتشي الأسلحة ملفتاً للنظر حين قدم تقريراً محايداً ومهنيّاً عن جهود لجنة الأمم المتحدة التي يرأسها لم يكن ليعطي واشنطن أي مبرر في حملتها الشرسة لشيطنة العراق. في تصريحات عديدة له بعد ذلك شكك "بليكس" في الإدعاءات الأمريكية والبريطانية كما اتهم إدارتي البلدين بتلفيق وثائق من شأنها تبرير شن الحرب. بعد الحرب وفي التاسع من شهر كانون الثاني/ يناير 2004 قدمت مؤسسة "كارنجي" الأمريكية تقريراً ربما كان الأكثر دقة بشأن أسلحة العراق أعده ثلاثة من خبراءها استنتجت فيه ان إدارة "بوش" بالغت في موضوع أسلحة

الدمار الشامل وانها أثارت فزعاً بين الناس بهدف شن الحرب مما يعني ان الإدارة كذبت عن سابق تصور وتصميم. بعد أسبوعين من ذلك وفي يوم 24 كانون الثاني/ يناير 2004 استقال "ديفيد كي" رئيس اللجنة التي عينها "بوش" لإيجاد أسلحة العراق بعد الحرب بعد ان فشل هو و 1500 من مفتشيه بالعثور على أي دليل حول وجود الأسلحة المذكورة. بعد يومين قال "كي" لجريدة "النيويورك تايمز" ان معلومات المخابرات الأمريكية عن أسلحة "صدام" كانت كلها خاطئة وان تقييم المخابرات كان يعتمد اما على معلومات خاطئة أو تحليل لمعلومات عما كان يقوله العلماء العراقيون لـ"صدام" عن خططهم لإنتاج الاسلحة والتي لم تكن غير ادعاءات لأرضاء غرور "صدام" اكثر منها خطط واقعية. ولم تكن شهادة مماثلة لـ"كي" أمام الكونغرس بعد ذلك بأيام قليلة لتثير غضب الإدارة مثلما أثارت تصريحاته الشكوك لدى الرأي العام الأمريكي بنوايا الإدارة وكذبها بهدف شن الحرب فقد هيئت الفرصة للرئيس "بوش" ان يأخذ المبادرة ويشكل لجنة خاصة للتحقيق في المعلومات بشأن الأسلحة العراقية بما يسمح بإمتصاص النقد المتزايد لإدارته في عجزها في العثور على أسلحة الدمار الشامل

العراقية استباقاً لإستغلالها من قبل خصومه الديمقراطيون في الحملة الإنتخابية الجارية.

من ناحيتي كنت اتابع بدقة موضوع أسلحة الدمار الشامل منذ خروجي من العراق ولربما كنت من الصحفيين القلائل الذين تابعوا هذا الموضوع منذ البدء بإنشاء مشاريع التسلح العراقية بشكلها الجنيني حتى قبل الحرب العراقية الإيرانية ومن ثم تشكيل "هيئة التصنيع العسكري" بعد الحرب والتي لعبت مصانعها إضافة الى "منظمة الطاقة النووية" دوراً رئيسياً في برامج التسلح العراقية. كنت بحكم عملي في وزارة الإعلام ومن ثم في "كلية الحرب" في "جامعة البكر" للدراسات العسكرية وفي "جريدة القادسية"، لسان حال القوات المسلحة وبعد ذلك عملي الصحفي على اطلاع جيد بنشاطات البرامج المختلفة للصناعات الحربية في العراق. من الأمور التي استنتجتها في وقت مبكر ان معظم هذه المشاريع بنتها أو شاركت في بنائها مؤسسات غربية ومنها أمريكية وبالتالي فانها تعرف بدقة كل التفاصيل المتعلقة بها من أصغر مسمار جهزتها به الى الفنيين الذين يعملون فيها وبهذا فأن القضية لا تنطوي على الكثير من الأسرار بالنسبة للحكومات الغربية أو شركات السلاح الدولية المتورطة فيها. وفي الواقع كان من الوثائق

السرية التي كشف عنها بعد عام من التوصل اليها ان رئيس المراقبين الدوليين ورئيس الوكالة الدولية للطاقة النووية وقعا رسالة مشتركة مع نائب رئيس الوزراء "طارق عزيز" بتاريخ 8 تشرين الأول/ أكتوبر 1993 يتعهدان فيها عدم الكشف عن الشركات والأشخاص الأجانب الذين ساعدوا العراق على امتلاك أسلحة الدمار الشامل مما يعني حماية الموردين وضمان عدم ملاحقتهم قانونياً.

بعد حرب الخليج عام 1991 تابعت بحكم عملي وعن كذب كل ما يتعلق بموضع الأسلحة منذ بدأت عمليات التفتيش ولكنني حاولت تجنب الخوض فيه لأنني أدركت منذ البداية بأنه ليس القضية الأساسية للعراقيين في نضالهم ضد نظام "صدام" على الرغم من اني كنت أيضاً أدرك تماماً أهمية الموضوع وخطورته بالنسبة للعراقيين طالما ان "صدام" كان الوحيد ممن استخدم هذا النوع من السلاح ضد شعبه. لكنني أدركت سريعاً ان هذه القضية سيحولها "صدام" صراعاً بين القط والفار من جهة وميداناً للتجاذب او حتى بازاراً للقصاص المثيرة من جهة أخرى. واكثر ما أثار ريبتي وشكي خلال هذه السنين هي القصص التي كان يسربها بعض المعارضين العراقيين وخاصة أحمد الجلبي عن معرفتهم بوجود هذه الأسلحة وتبرعهم بإدلاء

معلومات عنها يتضح فيما بعد انها ليست الا قصصاً مسلية شبيهة بتلك التي ينشرها البعض من الصحفيين وحتى من بين العاملين في صحف أمريكية وبريطانية كبرى مثل "نيويورك تايمز" و"صندي تايمز" ممن لديهم أجنداث أو علاقات خاصة بهذا الطرف أو ذاك. وعموماً بقدر ما كنت أعلم ان قضية أسلحة الدمار الشامل كانت قد أصبحت قضية جوهرية في السياسة الدولية كما أدرك حاجة المجتمع الدولي للتعامل معها بجدية الا اني كنت مقتنعاً بانها ليست الا ذريعة ستتدخل بها إدارة "بوش" الحرب مما سيجعلها مسألة أخلاقية ستظل تطرح نفسها على السياسة الأمريكية غير انها لن تكون مسألة جوهرية بالنسبة للعراقيين الذين لم يكونوا بطبيعة الحال بحاجة اليها لتبرير تخلصهم من نظام "صدام".

*

من بين العديد من الأسئلة التي طالما خطرت على بالي في هذه الفترة هو السؤال الذي يتعلق بحالة "صدام" الذهنية وهو يرى كل ما يجري من حوله من استعدادات للحرب لم يكن بإمكانه ان يتجاهلها

مهما حاول ان يتظاهر بذلك في خطبه وبياناته. الملايين في هذا العالم الذين يعاينون ما يجري في العراق وحوله لا يعرفون عن هذا الرجل الكثير غير ما ينشره هو وإعلامه من تمجيد الذات أو عباداتها أو ما يبثه أعداؤه عنه من قصص وحكايات الكثير منها لا يرتقي الى أي مستوى من المعقولية ناهيك عن الحقيقة. تخدم تحليلات الخطاب الصدامي وسياسته بطبيعة الحال توضيح صورته كما توفر إمكانيات الوصول الى استنتاجات حول كيفية التعامل معه من قبل خصومه وخاصة الأمريكان الذين بدأوا بوضعه تحت المجهر منذ سنوات طويلة لكن من المؤكد ان السؤال يبقى حول حالته الذهنية وهو يقود بلاده الى هاوية لا مفر منها. من بين الأشياء التي ربما تجاهلها العالم الى حد كبير هو كتب الروايات التي نسبت الى "صدام" ووزعت على نطاق واسع في العراق وخارجه حتى ان واحدة منها بالأقل ترجمت الى بعض اللغات الأجنبية. لماذا يكتب "صدام" الرواية وما حاجته الى ذلك وهو القادر على توصيل أفكاره كما فعل دائماً عبر الخطابات والكلمات التي لم يكن يتوقف عنها حتى انها كانت مقررراً يومياً على مشاهدي التلفزيون العراقي ولساعات طويلة. لماذا لم يلجأ الى أساليب أخرى مثل الكتب التي كتبها عنه العديد من الكتاب العراقيين والعرب بتوجيه

منه ووفق الرواية الرسمية سواء ما أراد منها ان تكون جزءاً من سيرته الشخصية كما كان يراها هو أو الكتابات التي تناولت "عبقريته" السياسية والفكرية حتى لم يعد هناك باباً لم يطرقوه من تجديده للفكر القومي ومساهماته الإستراتيجية السياسية والعسكرية، بل ابداعاته اللغوية. هل أدرك مؤخراً ان خطابه أصبح مملاً وممجوجاً ولم يعد يغري بالإستماع اليه وهل أدرك الآن ان ما يقوم به جموع الطبالين والمنافقين من الكتبة لم يعد يفي بالغرض بعد ان فاحت أعمالهم بروح التملق والرياء ولم يعد لديهم من مزيد؟ ربما كان ذلك سبباً ولكن من المؤكد ان اختيار "صدام" للشكل الروائي لتوجيه خطابه كان، من ناحية مناورة جديدة لعرض أفكاره القديمة التي استهلكها خطابه بشكل جديد وربما مغرٍ، ومن ناحية ثانية، تعبير عن حالة ذهنية كان يمر بها وهو مقدم على خوض مغامرة حياته الكبرى والأخيرة. كنت قد استلمت نسخة من روايته الأولى "زبيبة والملك" قبل أكثر من عام وبدأت بقراءتها قبل ان أتوقف ضجراً من أسلوبه ولغته وأفكاره التي بدت لي بليدة ومملة وبشكلها الرمزي أشبه بحكاوي العجائز ولم اكملها. ثم استلمت روايته الثانية "القلعة الحصينة" والتي رأيت فيها اسلوباً مباشراً أكثر تعبيراً عن "صدام" وأفكاره خاصة انها كانت نوعاً

من أنواع السيرة الذاتية المعبئة بالبطولات الوهمية التي طالما ردها هو عن نفسه أو إعلامه عنه خلال السنوات الفائتة. غير اني عدت لقراءة الكتابين متسلحاً هذه المرة برغبة لإستكشاف الحالة الذهنية والسايكولوجية لـ"صدام" والتي رأيت انها لابد وان تؤثر عليه في هذه المرحلة خاصة وان السؤال الذي كان يصاحب ذلك هو من أين جاء بهذا الوقت لكي يكتب روايتين وحتى رواية ثالثة صدرت قبل فترة وجيزة سماها "رجال ومدينة" وايضا رواية رابعة لم تظهر بعد وقيل ان اسمها "اخرج ايها الملعون" وما هي تلك الحاجة التي تلح عليه لكي يفعل ذلك. طبعاً لاتحتوي هذه الكتابات على أي من السمات التي توفر للرواية المتعة وتحريك الفكر والوجدان ،بل هي لا ترتقي الى مستوى الرواية الأدبية عادية المستوى. لا أظن ان "صدام" كان يبتغي طرح اسمه في عالم الأدب لأنه كان بنظر نفسه أكبر من ذلك بكثير والدليل على ذلك ربما هو عدم وضع اسمه على الروايات التي كتبها. ما بدا لي هو ان "صدام" بدأ يعاني هذه الفترة من قلق واضطراب ذهني وسايكولوجي وحالة من التخبط الداخلي وهو يجد أحلامه تنهار ومشروعه التاريخي ينحدر الى الهاوية فبدا له، وهو المهوس بمكان له بين الماجدين، ولربما تحت نصائح ما، ان الرواية هي أكثر

الأساليب قدرة على تخليده ومن هذا المنطلق ربما كانت روايته هي وصيته أيضاً.

ما لم يكن يتوقعه وهو يسطر رواياته ان رواية ستنتشر يومها أسمها " عالم صدام حسين " بقلم كاتب مجهول يدعى مهدي حيدر ويصدرها عراقي منفي يمتلك دار نشر في المانيا تدعى "دار الجمل". استقبلت الرواية باهتمام من قبل القراء حتى انها صدرت بطبعات اقتربت من عشرة لأنها صدرت قبيل الغزو بفترة قصيرة وبالتأكيد بسبب تسليطها الضوء على شخصية صدام ولكن بشكل روائي مما اثار الفضول. سيكتب الناشر ان الرواية ليست نصاً تاريخياً بل هي عمل من نسج الخيال يستغل الواقع لبناء عالم مواز للعالم الواقعي الذي عاش فيه صدام. لم تلق الرواية رغم أسلوبها الفني المتماسك بال النقاد لأسباب منطقية كونها أعتبرت مادة دعائية تحريضية خاصة في ظل غياب أسم مؤلف معروف.

*

(5)

"لا تستفز الأفعى قبل ان تببت النية والقدرة على
قطع رأسها. ولن يفيدك القول انك لم تبدىء ان
هي فاجئتك بالهجوم عليك، وأعد لكل حال ما
يستوجب. وتوكل على الله."

(صدام حسين)

مع إصرار "صدام" على رفض تقديم أية مبادرات سياسية جدية
لإنقاذ العراق من محنة الحرب الوشيكة ومع انتهاء الجهود السياسية
العربية والدولية لكبح جماح الحرب الى طريق مسدود أصبح شن
الولايات المتحدة العمليات العسكرية على العراق أمراً محسوما خاصة
وان القوات الأمريكية كانت قد استكملت استعداداتها في الخليج منذ

بداية شهر أذار/ مارس وبالذات الحشد البري الذي كان قد استكمل في الكويت بعد تردد الحكومة التركية في السماح باستخدام أراضيها والشروط التي وضعتها لذلك. واذ لم يكن هناك شكوك في قدرة الجيش الأمريكي على كسب الحرب بعد ان أعد لها العدة اللازمة وفتح فعلياً ميدان المعركة بانتظار إطلاق شرارتها الأولى ظل السؤال مالذي يمكن لـ"صدام" ان يفعله لكي يتفادى الهزيمة المتوقعة، بل ما هي الإمكانيات التي لديه لكي يقاوم كل هذا القوة الجبارة التي تحيط به من كل جانب؟ سياسياً ظل السؤال حول في ما اذا كان "صدام" يعتقد بان الرئيس الأمريكي ربما سيغير رأيه وبذلك فانه يراهن بتفادي الحرب أم انه ربما يعتقد بان الأمر كله لن يتعدى بعض الضربات الجوية التي لن تتعدى ذلك الى غزو بري وهو ما يمكنه بالتأكيد استيعابه والنجاة من توابعه. مثل هذا الإستنتاج اذا صح يثبت ان "صدام" كان بعيداً عن الواقع بل ويسبح في خيال جامح ربما ساعده على الإيمان بها امتناع أو خوف مساعديه من نصحه أو حتى لفت إنتباهه الى ما يرونه وما يسمعه عن القوة الأمريكية الجبارة المتجفلة على حدود العراق. على الجانب العسكري كانت التقديرات المتداولة ان عناصر القدرة العسكرية العراقية تتمثل في 22 فرقة عسكرية من بينها 6 فرق حرس جمهوري تضم

جميعها 350 ألف جندي إضافة الى 4 ألوية حرس جمهوري خاص لحماية "صدام" بينما قدر عدد الدبابات التي لدى العراق ب 2200 دبابة منها 1800 دبابة صالحة للقتال من بينها 700 من طراز تي-72 السوفيتية الصنع إضافة الى 2400 قطعة مدفعية ومخزوناً كبيراً من الصواريخ المضادة للدبابات وصواريخ أرض-أرض متوسطة المدى وصواريخ دفاع جوي كما يضم 316 طائرة مقاتلة أقل من نصفها صالح للخدمة بالإضافة الى عدد قليل جداً من زوارق البحرية وصواريخ "سلكوم" بر-بحر. طبعاً كان هناك تقديرات أيضاً عن الإحتياطي الذي يمكن ان يستدعيه "صدام" والذي قد يبلغ 650 ألف جندي وآلاف من "فدائيو صدام" ومن "جيش القدس" الذين دربهم النظام لأهداف القتال الداخلي ولكن الذين قد يستخدمون في حرب المدن. مهما يكن من أمر هذه القوة العراقية فهي لم تكن باي حال من الأحوال نداً للقوات الأمريكية التي أُستكمل تجميعها ولا للقوة النارية التي تمتلكها كما ان من المؤكد انها تفتقد للمعنويات والرغبة القتالية التي يمتلكها الجندي الأمريكي. ومع ذلك ظل السؤال يطرح عماذا في جعبة "صدام" من خطط او أسلحة سيفاجيء بها العالم في الدفاع عن نظامه ناهيك عن تهديداته بالحاق الهزيمة بمن سماهم

بالمغول الجدد على أسوار بغداد. منذ بداية العام انشغلت بدراسة الموقف العسكري في محاولة لإستقراء الإمكانات العراقية والإحتمالات الممكنة مستعينا بخبراتي سواء من خلال معرفتي بالجيش العراقي عن كتب أثناء خدمتي العسكرية الإلزامية سنوات طويلة ومنها في مقر وزارة الدفاع وفي "كلية الحرب" في "جامعة البكر للدراسات العسكرية العليا" وفي "جريدة القادسية" لسان حال وزارة الدفاع أو من خلال عملي كمراسل صحفي خلال الحرب العراقية الإيرانية وحرب الخليج عام 1991 إضافة الى كل ما تجمع لدي من خبرات أثناء عملي الصحفي في الخارج ومنها تغطية عدد من الحروب والصراعات. وكلما تمكنت بالأمر جلياً بدا لي ان "صدام" الذي من المؤكد انه سيتولى القيادة عندما تندلع الحرب رغم جهله المطبق بإستراتيجيات الحرب وتكتيكاتها وفنونها القتالية والتعبوية وبلا خطة حربية حقيقية لميدان الحرب مما سيجعله يتخبط أمام قادة عسكريون من طراز رفيع يمتلكون ليس القوة والمهارة بل والإرادة على تحقيق النصر. في عدة تقارير كتبتها حاولت من خلالها استعراض خيارات "صدام" المتاحة لم أجد ما يشير الى ان "صدام" يعد لحرب حقيقية يواجه بها التهديدات الماثلة أمام كل عين. كان جلياً منذ البداية ان "صدام" إستبعد خيار

الهجمات الإجهاضية ضد القوات الأمريكية المحتشدة على بعد بضعة كيلومترات من حدود العراق الجنوبية تماماً مثلما فعل في حرب الخليج الأولى عام 1991 ولو فعل ذلك لكان قد قلب الكثير من الموازين السياسية والعسكرية وغير من مجرى الحرب. ولعلها مهمة ستوكل للتاريخ ان يبين لنا يوماً لماذا لم يهاجم "صدام" القوات الأمريكية والحليفة المحتشدة في "الكويت" استباقياً ويحاول ان يجهض أو على الأقل يعرقل بدء الهجوم الأمريكي أو يعطي إشارات عن قدرته الدفاعية. كان واضحاً أيضاً من خلال خارطة نشر قواته على الأراضي العراقية ان "صدام" لا يتوقع معارك كبرى على الحدود فلم يحفر فيها خنادق أو يجري استحكامات أو يضع تشكيلات قتالية من شأنها ان تعرقل الهجوم البري المتوقع. ولم يضع "صدام" خططاً أو على الأقل لم نرّ معارك كبيرة على مشارف المدن العديدة والجسور وعقد المواصلات التي مرت بها القوات الأمريكية أثناء تقدمها نحو "بغداد" ولو فعل لربما أطل أمد التقدم الأمريكي نحو العاصمة ووضعها أمام عقبات حقيقية ووفر فرصة لمناورات سياسية ودبلوماسية.

من المؤكد ان الحرب شهدت بعض المعارك المميزة وقتالاً شرساً كالذي قام به "اللواء 45" في "أم قصر" و"البصرة" أمام القوات

البريطانية وكذلك الإشتباكات التي حصلت بين "فدائي صدام" في "الناصرية" ومدخل "النجف" الا ان تلك كانت مواجهات إستثنائية ولم تبدو أنها كانت جزءاً من خطة دفاعية شاملة. البعض اعتقد ان "صدام" كان يعول على خوض معركة مدن تقليدية في "بغداد" تصورها ستكون حاسمة أو كما سمى هو الحرب نفسها بعد ذلك بـ "أم الحواسم" يستطيع فيها ان يجعل الأميركيان ينتحرون على أسوار المدينة كما وعد فيعلن بذلك نصره ليس في الحرب بل على أمريكا كلها. مشكلة "صدام" الأساسية هي انه لم يكن يدرك حقائق أساسية وهي ان لا الشعب ولا الجيش ولا حتى حرسه الجمهوري كان مستعداً للدفاع عن نظامه وان الجميع كانوا يانتظار طلقة المدفع الأمريكي الأولى لكي يغادروا مواقعهم ويتركونه وحيداً وعارياً مع قلة صغيرة من صحبه. وهذا فعلاً ما حصل. كان خيار "صدام" كما رأيته منذ البداية هو "خيار شمشون" الذي كتبت عنه مقالين في جريدة "الحياة" وفي صحيفة "الأهرام ويكلي" والذي يريد من خلاله تدمير العراق وتركه حطاماً ورماداً مادام هو ماضٍ الى حتفه وهذا ما حدا به الى رفض كل نداءات التنحي ورفض آخر فرصة لإنقاذ العراق وهي إنذار الرئيس "بوش" بان يسلم "صدام" أسلحته ويغادر العراق قبل يوم الأربعاء 20

أذار/ مارس 2003. الواضح والأكيد ان "صدام" خطط لكي يجر
الأمريكان الى معارك مدن في الفترة التي ستلي الحرب والإحتلال
وبذلك يخلط الأوراق في بلد من المتوقع ان تنهكه الصراعات
والمنافسات والتجاذبات المختلفة، ذلك يبدو رهانه الأكيد.

*

بعد انتهاء إنذار الرئيس "بوش" أصبح بدء الهجوم الأمريكي
مسألة ساعات ليس الا. في الساعة الرابعة و 40 دقيقة من فجر
الخميس 20 آذار/ مارس 2003 ايقضتني زميلتي المناوبة في المكتب
"ماجي ميشيل" من النوم لتخبرني بان القصف الجوي قد بدأ وان
الصواريخ والطائرات تضرب "بغداد". قفزت نحو الصالة لمشاهدة
التلفزيون والذي كانت قنواته المختلفة تنقل تلك الصور الرهيبة
للإنفجارات التي فاقت صور حرب الخليج الأولى والتي طالما شبّهت
بالألعب النارية. كانت "بغداد" تحترق من كل جهة وصوب وكان
واضحاً من تحليلي للصور ان بعض الصواريخ تضرب القصر
الجمهوري والمواقع الرئاسية القريبة منه والتي تمكنت الكاميرات

المنصوبة في مبنى وزارة الإعلام القريب من تسجيلها. انتقلت الى المكتب سريعاً وأول ما خطر ببالي هو كتابة تقرير عن مشاعر العراقيين في الخارج الذي طال انتظارهم للرجوع للوطن وربما شعروا الآن ان ساعة العودة قد دقت. كلمت الصديق "فيصل فكري" الذي قضى ثلاثين سنة في منفاه في "القاهرة" وسألته عن مشاعره فأجاب : " هذه اللحظة التي انتظرتها طيلة حياتي". كانت تلك مشاعر إنسانية عادية وصادقة لم تبلغ التطرف الذي ذهب اليه "كنعان مكية" بعد ذلك حين وصف القنابل التي كانت تسقط على "بغداد" ساعتها بأنها كانت أشبه بالموسيقى وهي تصل الى مسامعه. بعد حوالي ساعتين من بدء الهجوم بدأ "صدام" يلقي خطاباً تنقله الفضائية العراقية التي يبدو ان مكاتبها لم تقصف بعد. كان "صدام" يلبس نظارة طبية وبدأ في هيئته وفي حشرجات صوته أكبر من عمره بكثير كما لن تخف كلماته الحماسية قلقة وارتباك. كان شيئاً مسلياً في ذلك الجو التراجيدي ان تتضمن كلمة صدام قصيدة مطلعها ... اطلق لها السيف لاخلوف ولا وجل / واطلق لها السيف وليشهد لها زحل / اسرج لها الخيل قد جاش العدو لها / فليس يثنيه الا العاقل البطل /. تساءلت مع نفسي متى يطلق صدام رجله للريح بعد أن يرى كل رجاله يطلقونها قبله بعد ان

بدأت تنزل الصواريخ والقنابل الأمريكية مثل المطر على عاصمة الرافدين للمرة الثانية خلال أقل من عقد ونصف. وكأنه يرد على تسائلي أكمل "صدام" خطابه متوسلاً بالعراقيين مناشداً إياهم "ان يتذكر كل واحد منكم ولا ينسى كل ما قاله وما انتخى به". ربما كان يشير هنا الى تلك الوعود التي كان يسمعها من المنافقين والسفهاء من القادة العسكريين او الحزبيين الذين يستقبلهم على شاشات التلفزيون فيمسكون بشواربهم ويدقون صدورهم قسماً للقائد بتمكينه من النصر المبين. في حدود الساعة الثانية ظهراً كانت "فرقة الفرسان السابعة للجيش الأمريكي" قد دخلت الأراضي العراقية من الكويت كمقدمة للفرقة الثالثة التي قادت الإجتياح البري في الهجوم على الجناح الصحراوي في الطريق باتجاه العاصمة العراقية من غربها في الوقت الذي تبعثها الفرقة الأولى على جناح الجزيرة المفضي الى "بغداد" مباشرة عبر الجنوب. وفي المساء وبعد حوالي ست ساعات من بدأ الحرب كان العراق يطلق بعض صواريخ من طراز "الصمود" على "الكويت" ولم يكن ذلك الا إستعراضاً إعلامياً باهتاً افتقد حتى للقدرة على خلق الضجيج الدعائي الذي صاحب اطلاق الصواريخ على "إسرائيل" و"السعودية" في حرب الخليج الأولى.

يوم 24 آذار/ مارس 2003 عقد وزراء الخارجية العرب إجتماعاً طارئاً بناءً على طلب من "سوريا" وذلك بهدف تفعيل قرار القمة العربية كما أشارت "دمشق" . كان آخر إجتماع يحضره "ناجي الحديثي" الذي وصل الى "دمشق" متخفياً في زي بدوي بعد ان عبر الطريق الصحراوي في سيارة تاكسي كما قيل حينها. عند وصوله الى "القاهرة" صرح "الحديثي" بان إسرائيل دخلت الحرب ضد "العراق" وانهم عثروا على صواريخ إسرائيلية كما هاجم "الأردن" لطردها دبلوماسيين عراقيين خضوعاً كما قال لأوامر أمريكية. ولم يكن خافياً مغزى هذه التصريحات والتي جاءت متزامنة مع تصريحات أدلى بها في بغداد "طه ياسين رمضان" والذي قسم الأنظمة العربية الى ثلاثة أقسام وفق ما وصفه بدرجة تعاونها مع الولايات المتحدة اما "علنا" واما "بشكل مستتر" واما "عبر منعها لشعوبها من التعبير عن التضامن مع العراق. وكما كان متوقعاً فقد قاد "فاروق الشرع" وزير الخارجية السوري حملة لإقناع زملائه بتبني قرار يدين العدوان الأمريكي على العراق ودعوة

مجلس الأمن الدولي للإجتماع وإصدار قرار يدين الحرب وفي حالة فشل ذلك يتم دعوة الجمعية العامة للأمم المتحدة لذلك الغرض. الطريف ان "بثينة شعبان" مسؤولة الإعلام في الخارجية السورية هي التي وزعت بنفسها نسخة من مشروع القرار السوري على أساس انه المشروع الذي تبناه الوزراء قبل يوم من نهاية إجتماعاتهم. كان هدفها إظهار قبول الوفود العربية الأخرى بالموقف السوري رغم ان الأمر بدا محسوماً داخل "مجلس الأمن" الذي تشارك فيه ثلاث دول تقود الحرب في العراق. وبدا الإجتماع واحداً من تلك اللقاءات المعهودة للجامعة العربية والتي تنتهي بقرارات مائعة لاتعني أي شيء سوى تسجيل المواقف بدعوى ارضاء الشارع العربي.

*

في يوم 29 آذار/ مارس قال الرئيس "بوش" في خطابه الأسبوعي ان القوات الأمريكية وبعد أقل من عشرة أيام من بدأ الحرب أصبحت على بعد 80 كيلو متراً من "بغداد". كنت على إتصال مع مراسلينا المرافقين للقطعات الأمريكية الزاحفة من خلال الرسائل البريدية

الألكترونية اتابع سير العمليات من خلال المعلومات التي يرسلونها والتي كنا في مكتبي "الدوحة" و"القاهرة" نحاول ان نكون الصورة التي سنخرج بها في تقارير الوكالة عن مجريات الحرب على الأرض. نهار اليوم كانت القوات الأمريكية من الفرقة 101 المحمولة جو قد اشتبكت مع قوات من الحرس الجمهوري من "فرقة نبوخذنصر" في المنطقة بين "كربلاء" و"النجف" بينما اشتبكت قوات من "الفوج 70" التابع للفرقة الثالثة ولأول مرة مع قوات من الحرس الجمهوري جنوب "النجف" على طريق الحلة-بغداد في الوقت الذي استمرت الطائرات من طراز (أي-10) والهيليكوبترات من طراز "أباتشي" تصطاد دبابات الحرس التابعة لـ"فرقة المدينة المنورة" من الحرس الجمهوري التي كانت تطوق "كربلاء" من إتجاه الطريق الصحراوي الغربي المؤدي الى "بغداد" بينما كانت قوات أخرى تقطع طريقاً ثانياً جنوب "كربلاء" عبر مدينة "الهندية" في اتجاه "الحلة". في نفس الوقت شقت قوات أمريكية من "الفرقة الأولى" طريقها جنوب "الكويت" نحو "الصويرة" التي تقع على بعد 60 كيلو مترا جنوب "بغداد". كانت الكماشة التي تنفذها القوات الأمريكية حول "بغداد" محكمة كما ان الزحف نحو العاصمة انطوى على الكثير من عناصر المباغثة لقوات الحرس الجمهوري التي عول عليها

"صدام". وبما ان القوات الأمريكية أصبحت فعلياً على حافة بغداد فقد كتبت موضوعاً حاولت ان اناقش فيه احتمالات الحرب على أبواب العاصمة والتي وعد "صدام" ان تكون المقابر التي سيدفن فيها جيش "هولاكو" العصر. كان اندفاع القوات الامريكية سريعاً ومذهلاً بسبب انهيار المقاومة العراقية على طول الخطوط الجنوبية وربما لم يكن ذلك الإنهيار السريع متوقعاً الا انه بات واضحاً ان القيادة العليا الأمريكية تريد الآن استثمار الفوز والوصول الى "بغداد" بأسرع وقت ممكن. واذا ما استمر هذا الإندفاع فلن يبقى بين القوات الأمريكية والعاصمة العراقية ربما أقل من أسبوع أخذاً بنظر الإعتبار حجم ونوع القوات التي نشرها العراق على طول الخطوط الباقية وهي كلها من فرق الحرس الجمهوري. تدمير "فرقة المدينة المنورة" التي كانت مرابضة على أطراف "كربلاء" والتي كانت تعتبر خط الدفاع الأول عن "بغداد" بواسطة طائرات "اف-16" و"اف-18" وهليكوبترات "الأباتشي" و"الكوبرا" خلال اليومين الماضيين يعطي مؤشراً على مدى قدرة باقي فرق الحرس على الصمود. داخل "بغداد" حيث تتحصن قوات أخرى للحرس الجمهوري كان القصف يشتد وطال مبنى وزارة الإعلام التي كان وزيرها مصراً حتى هذه اللحظة على ان القوات الأمريكية تتقهقر

أمام مقاومة القوات العراقية. من الواضح القيادة العراقية لم تتفاجئ بذلك الزحف الأمريكي السريع وهو ما كشف عنه وزير الدفاع "سلطان هاشم" في مؤتمر صحفي قبل أيام حين قال فيه انهم يتوقعون وصول القوات الامريكية الى "بغداد" خلال خمسة أيام. ومع ذلك ظل هذا التصريح مثيراً للكثير من علامات الإستفهام عماذا كان يقصده هاشم من اطلاقه. على الصعيد السياسي ينتخب "عدنان الباجه جي" رئيساً لـ"تجمع الديمقراطيين المستقلين" في مؤتمر حشد له العديد من الشخصيات المعارضة. وحال اختياره يعتبر ان "الإحتلال الإجنبي غير مقبول بتاتا" ويدعو الى تشكيل حكومة مؤقتة تدير البلاد وملاً الفراغ.

*

منذ اليوم الأول للحرب كان الإعلام العراقي كما كان متوقعاً من خلال دراسة تجارب حرب 1980-1988 مع إيران وحرب الخليج 1991 يلجأ الى اسلوب التعبئة وشحن الهمة الوطنية في حرب كان من الواضح حتى قبل ان تبدأ انه لا يحظى فيها باي دعم وطني عام. كانت الحرب منذ البداية محسومة وطنياً بانها حرب النظام مع أمريكا

ولذلك فلم يكن يجدي بتاتاً استخدام أساليب الخداع ذاتها التي استخدمت في الدعاية أثناء الحرب مع إيران حين تم إستغلال عواطف الناس الوطنية واستعدادهم للتضحية في سبيل الوطن وتجيش ذلك لمصلحة النظام. والواضح ان "صدام" ادرك منذ وقت مبكر هذه المعادلة التي كان عليه ان يتعامل معها إعلامياً فاستخدم خطاباً إسلامياً وبنلادنياً (اسامة بين لادن) موجهها للرأي العام الإسلامي والعربي في حالات كثيرة غير معنى بالعراقيين الذين اراد فقط ان يذكرهم في معظم خطابه الأخيرة بوعودهم التي قطعوها اليه عبر شعرائهم ومطربيههم وكتبتهم وكأنما أراد ان يتهمهم بالخيانة والغدر مثلما اتهمهم في الإنتفاضة التي اندلعت ضد نظامه بعيد حرب 1991. ما ان بدأت الحرب حتى ظهرت ورطة "صدام" وبطانته عندما بان حقيقته أمام شبكات التلفزيون التي كانت تنقل الحدث دقيقة بدقيقة. في 31 آذار/ مارس 2003 وبينما كانت القوات الأمريكية قد أحكمت سيطرتها على معظم جنوب العراق طلع وزير خارجيته "تاجي الحديثي" ليقول "ان قوات الغزو تندحر على كل الجبهات وتراجع أمام الضربات القوية المدمرة التي يوجهها العراقيون عسكريون ومدنيون قبل ان يضيف بان "كل يوم يمر يغوص فيه الأمريكيون في وحل

الهزيمة أكثر وتزداد خسائرهم." غير ان مثل هذه التصريحات لم تكن شيئاً يذكر أزاء استمرار وزير الإعلام "محمد سعيد الصحاف" بإنكاره حتى اليوم قبل الأخير لسقوط الصنم وبعد ان احتلوا قصر "صدام" ومقر ووقفوا بدباباتهم أمام باب مبنى وزارته التي هرب منها ليقول أمام شاشات التلفزيون ومن "فندق فلسطين" التي مر من أمام القوات الامريكية قبل ان يصل اليه بان الجنود العراقيين يذبحون الغزاة ويطردونهم الى خارج الحدود. وطيلة أيام الحرب ظل "الصحاف" يطل من عبر المؤتمرات الصحفية التي كان يعقدها أو تصريحاته وهو في بدلة الجنرال العسكرية يوجه شتائم الى الأمريكان والبريطانيين ويصفهم بأقبح الأوصاف غير انه لا يقول شيئاً من الحقيقة. اخترع الصحاف تسميات و أوصاف جديدة مثل "العلوج" التي اشتهر بها بعد ذلك ومنحته كنية "ابو العلوج" كما وصف الأمريكان والبريطانيين بالمخبولين والخائبين. الإعلام البريطاني اطلق عليه "المهرج علي" اشارة الى سلاح الخداع الذي يستخدمه مقارنة بـ"علي كيمياوي" الأسم الذي أطلق على علي حسن المجيد. الرئيس "بوش" قال في حديث لشبكة "ان.بي.سي" انه كان يخرج ليشاهد "الصحاف" كلما ظهر على شاشة التلفزيون مضيفاً "انه رجلي المفضل.. لقد كان رائعاً.. هناك

من اتهمنا بتوظيفه وتكليفه بالمهمة التي كان يقوم بها. " لم يتوان عن استخدام الألفاظ النابية حتى مع الصحفيين الذين اعتاد ان يواجهه من يعجز عن الرد عن سؤاله بقوله "اطرح سؤالاً منطقياً" ثم يبدأ بالتهرب من الإجابة غير انه يلجأ الى التهديد بالعنف عندما لا يكون الحديث على الهواء مباشرة. وفي آخر ظهور له في "فندق فلسطين" أقسم بان "الأوغاد ينتحرون بالمئات على أبواب بغداد" وقال للعالم أجمع ان "قواتنا تطبق عليهم وتحاصرهم في دباباتهم". الصحفيين الأجانب الذين كانوا في الفندق قالوا انه لم يغادر الا بعد ان جمع بعض مساعديه من منتسبي وزارة الإعلام آلاف الدولارات قبل ان يهرب مع موظفيه ويختفي. هل كان رجلهم حقاً كما سخر "بوش" ؟ هذا متروك أيضاً للتاريخ غير ان سماح القوات الامريكية لطائرة امارتية ان تنقله من مطار بغداد الذي تسيطر عليه الى أبو ظبي بعد أيام من انتهاء الحرب لا بد ان يثير أكثر من التساؤلات عن ما هو الثمن المدفوع لقاء ذلك.

اما "تاجي الحديثي" فيستوضح وفق تقارير متعددة بانه كان متعاوناً مع المخابرات الأمريكية الـ "سي أي أي" وانه زودها عشية الحرب بتقارير عن حالة برامج التسليح العراقية التي كانت في صلب دوافع الحرب. لن تضم القيادة الأمريكية أسم "تاجي الحديثي" الى القائمة

الشهيرة لأعوان صدام الذين تم اعتقالهم ومحاكمة بعضهم كما سيتم نقله الى قطر حيث يعيش في كنف القيادة القطرية التي تؤمن له ولعائلته حياة رغيدة. اما كيف تم تجنيد "الحديثي" فقد أشارت التقارير الى دور أساسي للمخابرات الفرنسية عبر أحد عملائها العرب وهو صحفي لبناني أسمه نبيل مغربي كان مرتبطاً بالعراق. في روايتي "حافات الأمل" كنت قد لمحت الى علاقة بطلها "تاجح المديني" الذي يجسد شخصية "ناجي الحديثي" بالمخابرات البريطانية منذ زمن بعيد اثناء عمل والده لدى شركة النفط البريطانية في العراق. كما ان ثمة احتمالات بان تلك العلاقة ترسخت اثناء عمله في "لندن" كمستشار إعلامي في السفارة العراقية لفترة طويلة أواسط السبعينيات من القرن الماضي. السؤال الذي سيظل من غير جواب هو هل كان "صدام" على علم بإرتباطات "تاجي" الذي رقاہ الى منصب وزير الخارجية علماً انه لم يكن من القيادات الحزبية في النظام كما ان "صدام" نفسه كان قد حكم على أخ له بالإعدام وحبس آخر بتهمة التآمر عليه.

*

في يوم 3 نيسان/ أبريل 2003 كانت طلائع "اللواء الأول مشاة" من "الفرقة الثالثة" الأمريكية قد اجتازت كل الموانع المائية على "نهر الفرات" كما دمرت في طريقها فرقة "المدينة المنورة" التابعة للحرس الجمهوري ووصلت الى مشارف العاصمة العراقية باتجاه "مطار صدام الدولي" هدفها المحدد منذ ان عبرت الحدود الكويتية يوم 20 آذار/ مارس الماضي. في الساعة السابعة والنصف من مساء ذلك اليوم كان "الكولونيل وليم غريسلي" قائد اللواء قد وصل بدباباته الى وسط المطار مواجهها مقاومة خفيفة من قبل الجنود العراقيين الذين فر معظمهم. السبت 5 نيسان/ أبريل دعا "صدام" في بيان مكتوب قرأ عبر الراديو والتلفزيون قواته الى تخفيف العبء عن "بغداد" مما يشير الى الضغط الذي كانت تتعرض له الوحدات القليلة الباقية في محيط العاصمة. قال "صدام" في رسالته: "العدو ركز قواته على "بغداد" مما اضعف قدراته على المحاور الأخرى وجعلها أقل من ذي قبل.... واجبكم الآن ان ترهقوه وتزيدوا جراحه غوراً وتحرموه مما حصل عليه من مكاسب على الأرض عندكم حتى لو كانت شكلية ودعائية لتهزوا فرائصه وتسرعوا في هزيمته." لكن نداء "صدام" كان مجرد صرخة في البراري حيث لم تبق هناك وحدات عراقية في مواقعها يمكنها ان تسمع

ناهيك عن ان تستجيب. فشلت القوات العراقية في هجوم مضاد شنته يوم 6 نيسان/ أبريل 2002 في استعادة المطار وشنّت القوات الأمريكية هجمات اخرجت فيها العراقيين من منطقة المطار وفي اليوم التالي بدأت مجموعات عراقية تفد الى المنطقة القريبة من المطار في مسعى لجر القوات الأمريكية الى معارك مدن تمنعها من الوصول الى قلب المدينة. كان "صدام" كما تسرب يقود فلول وحداته من مقر مؤقت أقامه في "جامع أم الطبول" أو من منزل في "شارع 14 رمضان" في منطقة "المنصور" حيث يشترك بعض المقاتلين العرب مع بعض البعثيين في القتال. وعلى تقاطعات ثلاثة جرت معركة ضارية تمكنت القوات الأمريكية خلالها يوم 7 نيسان/ أبريل من إبادة المقاومة العراقية والبدء بالزحف نحو منطقة القصر الجمهوري بلواء واحد هو "اللواء الثاني" من "الفرقة الثالثة" القادم من إتجاه "الدورة". ماالذي حصل هنا؟ وكيف انهارت القوات العراقية بهذه السرعة وتخلت عن خط دفاعها الأخير؟ بسرعة البرق بدأت الأقاويل تأتي عن خيانة في صفوف القيادة العراقية أو على الأقل في صفوف قيادات الحرس الجمهوري ولم يرد أحد ان يصدق ان انهيار المعنويات وضعف القدرات القتالية والإفتقاد الى الرغبة في القتال لدى القوات العراقية في

مواجهة قوة جبارة وأسلحة غير تقليدية وخصم مصمم على تحقيق النصر كلها عوامل أساسية تؤدي الى الإنهيار السريع. بعض من اتصل بي هذا اليوم من المتابعين للحرب من مسؤولين ودبلوماسيين وخبراء بدأ يتصل بي للاستفار عما حصل. كانت معلوماتي الخاصة حينها هي ان القوات الأميركية كانت قد زرعت عملاء لها من الجيش العراقي من خارج قوة أمن المطار لإعطاء معلومات مباشرة من داخل المطار حول القوة العراقية التي تسيطر عليه. ووفقا لتلك المعلومات فان الأميركيين ظلوا يعدون العدة استخباراتياً للحرب على مدى شهور طويلة خلت وأنهم زرعو لهم أعواناً داخل الجيش العراقي ومدنيين كثيرين آخرين كما أنهم تمكنوا من إرسال عملاء أميركيين وبريطانيين وقوات خاصة إلى عمق المدن العراقية كما تم إنفاق ملايين الدولارات لشراء ولاء ضباط كبار وصغار في الجيش العراقي وخصوصاً في الحرس الجمهوري. الأصابع تشير الى دور كل من "الفريق سفيان التكريتي" رئيس أركان الحرس الجمهوري و"مدير مكتب قصي" نجل "صدام" وكذلك "رئيس أمن رئاسة الجمهورية" و"مدير الاستخبارات العسكرية" في التعامل مع الولايات المتحدة وتسهيل الإنهيار السريع لقوات الحرس الجمهوري.

فجر اليوم الحادي والعشرين للحرب يوم 9 نيسان/ أبريل 2003 كانت القوات الأمريكية من وحدات "الفرقة الأولى" التي تندفع من الجنوب بعد ان عبرت "نهر ديالى" واحتلت "معسكر الرشيد" تتوجه الى وسط العاصمة دون أية مقاومة تذكر. في نفس الوقت كانت وحدات "الفرقة الثالثة" القادمة من إتجاه الغرب بعد ان انتهت إحتلال "مطار صدام الدولي" تكمل سيطرتها على القصر الجمهوري على الجانب الآخر من "نهر دجلة" في طريقها الى قلب "بغداد" أيضاً. لم تعد هناك أية دفاعات عراقية ولا مقاومة بينما كانت شاشات الفضائيات تنقل صوراً عن المواطنين العراقيين وهم ينتظرون الى الدبابات والمدركات الأمريكية تجوب شوارع مدينتهم ربما غير مصدقين لما يجري. لم تكن هناك باقات ورد ترمى على الجنود الأمريكان الذين بدوا هم أيضاً غير مصدقين لوصولهم الى قلب بغداد لكن مشاعر الإبتهاج سرعان ما بدأت تظهر. كانت أول تلك المظاهر هي مانقلته بعض الفضائيات العربية عن العراقيين الذي هاجموا مبنى "اللجنة الأولمبية العراقية"

مقر "عدي صدام حسين" ومكاتب الحبس والتعذيب التي يديرها في نفس المبنى. وكانت أول صورة معبرة هي لرجل مسن وهو يحمل بيده نعاله ويضرب به صورة "صدام" التي انتزعها من ذلك المقر وهو يصرخ أمام الكاميرات مذكراً العالم كله بما ارتكبه "صدام" بحق العراقيين من جرائم. كانت لحظة تاريخية أخرى تجري في نفس الوقت في "ساحة الفردوس" حيث تجمع العشرات من العراقيين يحاولون جر تمثال "صدام" المنتصب وسطها واسقاطه. كان التمثال الضخم لـ"صدام" وهو يرفع يده اليمنى يلوح بها للجماهير التي ظن انها لن تتخلى يوماً عن ولائها غير المحدود وغير المشروط والثابت له. صعد رجل ووضع في رقبة التمثال إطار سيارة قديم وسط هتافات وترحيب الآخرين. تلاه آخر ولف رأس التمثال بيشماغ بطريقة كاركاتورية. ثم توالى آخرون كل منهم يطلع الى رأس الصنم ويضربه بفردة حذاء أو نعال بينما يزداد عدد الجمع الملتف حول النصب في "ساحة الفردوس". فجأة يظهر رجل يحمل مطرقة بيديه ويبدأ بضرب قاعدة التمثال الرخامية. مشهد شبيه بما قام به الألمان وهم يهدمون بيديهم "سور برلين" قبل أربعة عشر عاماً. يضرب الرجل كثيراً غير ان مطرقته لا تنفع في هدم القاعدة الصلبة وانزال التمثال. يطلب العراقيون المساعدة من الجنود

الأمريكيين اللذين وقفوا أولاً يشاهدون ما يجري. تمنوعوا بداية، ثم تقدم أحد الجنود من فوق إحدى الدبابات القريبة الى التمثال ولفه بعلم أمريكي بعملية أشبه بتغطية رأس محكوم بالإعدام قبل تنفيذ الحكم. لم تكن استجابة العراقيين مرحبة فناوله أحدهم علماً عراقياً فانزل الجندي علم بلاده ثم لف الرأس بالعلم العراقي قبل ان ينزله ولكن لكي تتقدم إحدى الدبابات ويصعد احد العراقيين فوقها ليضع سلكاً سميكاً برأس التمثال الذي بدأت الدبابة بسحبه واسقاطه على الأرض. ما ان سقط حتى هوى عليه العراقيون يضربونه بالاحذية والنعلان. يا الهي! من كان بإمكانه ان يتخيل ان كل ذلك سيحصل وسيشاهد العالم كله ذلك الطاغية يهان ويذل وينهار نظامه بهذه الطريقة وبهذه السرعة. لن يستطيع العراقيون الذين لم يكن يمتلك الا القليلين منهم جهاز إستقبال تلفزيوني بالأقمار الصناعية مشاهدة هذا الحدث الذي انتظروه سنين طويلة ولكن من شاهده مثلي لابد وان لح عليه السؤال هل رأى "صدام" الفار من قصوره بنفسه ما آل اليه تمثاله ونظامه اليوم وما هي مشاعره وما الذي قاله للزمرة الصغيرة التي ظلت معه. في المساء تعرض إحدى القنوات الفضائية شريطاً له وسط جوقة صغيرة في منطقة الأعظمية وهم يرددون له لأخر مرة "بالروح والدم نفديك يا

صدام" قبل ان يهرب من العاصمة التي وعد ان يقاتل الأميركيان فيها وينحرهم على أسوارها.

يبقى هناك سؤال هل كان مشهد "ساحة الفردوس" معداً سلفاً وفق سيناريو كتبه وأخرجه الأميركيان كجزء من متطلبات الدعاية والحرب النفسية في الغزو؟ ما يثير الشكوك هو ان وزارة الإعلام نقلت المركز الصحفي للمراسلين الأجانب قبل أيام قليلة من وصول القوات الأمريكية الى مشارف "بغداد من" مكاتبها الى بناية "فندق الميرديان" المطل على "ساحة الفردوس" مما هياً للمراسلين والمصورين الأجانب فرصة الإطلالة على القصر الجمهوري الذي يقع على الجانب الغربي لـ"نهر دجلة" من جهة، وعلى "ساحة الفردوس" من جهة أخرى. لولا تواجد كاميرات التلفزيون العالمية في الفندق لم يكن بمستطاع العالم ان يشاهد سقوط التمثال برمزيته المعبرة على الهواء مباشرة. من أتخذ قرار نقل الصحفيين الأجانب الى هناك يبقى السؤال الذي لم يجب عليه أحد الا ان الملفت للإنتباه حقا هو ان الوزير "الصحاف" سيسمح له بمغادرة العراق كما ان عدداً ممن كان مسؤولاً في وزارة الإعلام عن تلك العملية سينتهي بهم المطاف بعد الحرب في "أمريكا"

و"كندا" ودول اوروبية التي سيحملون جنسياتها وجوازات سفرها في وقت لاحق.

*

صباح 10 نيسان/ أبريل 2003 أجريت مكالمة تلفونية مع "السيد عبد المجيد الخوئي" الذي كان قد وصل الى "النجف الاشرف" قبل أيام قليلة بعد سقوط معازل النظام فيها. منذ وصوله الى العراق وأنا اتصل به عبر تلفون "الثريا" لكي يطلعني على التطورات الجارية هناك وجهوده شخصياً للعمل على إستتباب الوضع في المدينة التي هي معقل الشيعة ومركز قيادتهم الدينية والتي لابد ان الأمريكان كانوا يعولون عليها كثيراً دعم الغزو الذي سيسى تحريراً في الأيام القادمة. كانت رحلته أشبه بالمغامرة عبر طائرة اقلته من "بريطانيا" ثم الى البحرين ثم الناصرية ووصله الى النجف وسط نيران الحرب التي لم تكن قد انطفأت بعد حتى ذلك الوقت مثيرة للإهتمام حقاً وخاصة في دوافعها وأسباب التعجيل بها. كان واضحاً من وصوله المبكر انه يريد استباق الحركات والشخصيات الإسلامية الشيعية الأخرى ويظهر

سيطرته على المدينة التي تركها منذ سنوات بعد ان خاض فيها إنتفاضة عام 1991. كنت قد التقيت مع "الخوئي" في المرة الأخيرة على هامش مؤتمر لندن وأدركت ان لديه مشروعاً خاصاً مغايراً لما لدى "المجلس الأعلى للثورة الإسلامية"، مثلاً، وخاصة بشأن العلاقة مع إيران وطبيعة الدولة والمجتمع اللذين يرى إمكانية قيامهما بعد التغيير. كان "الخوئي" يرى إمكانية قيام مجتمع ذو هوية إسلامية ولكنه أكثر انفتاحاً ولربما حتى أكثر علمانية واعتقد اني سمعت منه ربما شيئاً عن العلمانية المؤمنة وهو تعبير أثار اهتمامي بشكل ملفت. وأشد ما كانت صدمتي عندما سمعت بعد ساعات قليلة من مكالمتي الأخيرة معه نبأ اغتياله في "النجف". لقد كان متفائلاً وعازماً على ان يفعل الكثير وربما كان بقاءه سيغير من المعادلة التي نتجت بعد ذلك مما يثير تساؤلات حقيقية عن مقتله والدوافع والجهات التي تقف وراء ذلك.

*

أكثر ما كان محزناً من المشاهد التي رافقت الإنهيار السريع للنظام هي مشاهد السلب والنهب التي عمت بغداد فور سقوط تمثال

"صدام" في "ساحة الفردوس". اليوم 12 نيسان 2003 وبعد ثلاثة أيام من دخول القوات الأمريكية الى بغداد كانت هذه العمليات مستمرة بشكل فاق كل التصورات التي يمكن ان ترد الى ذهن أي أحد عما تأتي به الحروب من ويلات وصدمات وعجائب. كان نهب قصور "صدام" وأولاده وقصور كبار المسؤولين في نظامه شيئاً متوقعاً ولربما مفهوماً غير ان عمليات السلب والنهب والتخريب التي طالت مؤسسات الدولة ووزارتها، بل وحتى المدارس والجامعات والمستشفيات العامة والمصانع لم تكن غير مفهومة اطلاقاً، بل مستهجنة. كانت شاشات التلفزيون تنقل مشاهد النهب وتبدوا بعضها كوميدية في أداء أصحابها مثل مشاهد ناس يحملون كرسيّاً أو طاولة على رؤوسهم أو سرقة فرس أبيض جميل من قصر "عدي صدام حسين" وجره بواسطة سيارة وسط شوارع "بغداد" التي اكتضت باللصوص الجدد. لكن أكثر ما كان محزناً هو مشاهد نهب "المتحف الوطني" و"المكتبة الوطنية" و"مكتبة الأوقاف" و"متحف الفن الحديث" ومن ثم تخريب هذه المؤسسات الوطنية وأضرار النار فيها. ربما كان من الممكن تفهم او حتى ايجاد التبريرات للذين اندفعوا نحو قصور "صدام" لنهبها لكن أسئلة كثيرة راودتني وأنا أشاهد تلك الصور عن

دوافع حرق المكتبات ونهب المستشفيات وتفكيك المصانع التابعة للقطاع العام وعمن يكون هؤلاء اللصوص المخربين وكيف اندفعوا بهذه السرعة الفائقة لإتمام عملهم، وهل هي عمليات فردية تلقائية أم انها منظمة ومن يقف وراء تنظيمها؟ والسؤال الأهم الذي ظل يقلقني هو كيف جرى كل ذلك تحت سمع وبصر القوات الأمريكية التي اسرعت للسيطرة على وزارة النفط وتركت كل العاصمة رحمة للصوص والمخربين؟ هل سمحت القوات الأمريكية لهؤلاء وبشكل متعمد لتنفيذ هذا "الفرهود" لحسابات خاصة قد يكشف النقاب عنها لاحقاً أم ان الأمر لم يتعد رغبة الجنود الأمريكيين في ان يروا ويستمتعوا بمنظر "علي بابا" على الطبيعة وهو يسرق تحت أبصارهم في مدينة ألف ليلة وليلة؟ هل كان كل السراق والمخربين من العراقيين أم ان بينهم من جاء من بلدان مجاورة؟ مهما كانت الأجوبة فالواضح ان المخططين الأمريكيين للحرب تركوا أمر السيطرة الأمنية على المدن بعد سقوط النظام دون تخطيط وكأن الأمر لا يعنيهم أو أنهم توقعوا ان تسير الأمور بسلام وأمن وهو توقع لا ينسجم مع طبيعة الأشياء في أزمان الحروب والفوضى. كل ذلك أثار عندي قلقاً وشكوكاً عميقة عن شكل العراق الذي جاء الأمريكيون لتحريره من "صدام" واعادة بناءه اذا

كانت هذه هي بداية إحتلالهم. هل هو وكر اللصوص ومغارة "علي بابا" التي نراها أمامنا أم واحة الديمقراطية والحرية التي يوعدون بها العراقيين؟ بعد بضعة أيام وبالذات يوم 17 نيسان/ أبريل 2003 ضبّطت سلطات الكمارك في "مطار هيثرو" في "لندن" بندقية كلاشينكوف مطلية بالذهب تعود لـ"صدام" بصحبة مهربان حسب مصادر في الكمارك البريطانية قالوا لوكالة الانباء الفرنسية انهما أتيا بها من العراق عبر الكويت. كيف يمكن تهريب بندقية من العراق الى انكلترا ولا يمكن تهريب المصانع المفككة وسيارات الدولة المنهوبة وشبكات الكهرباء المنزوعة وأشياء أخرى غيرها الى الدول المجاورة للعراق؟

*

في 1 آيار/ مايو 1991 أعلن وزير الدفاع الامريكي "دونالد رامسفيلد" انتهاء العمليات الرئيسية في العراق ولم يكن ذلك بطبيعة الحال إعلاناً بانتهاء الحرب. وفي الواقع بدا ان حرب أمريكا في العراق

قد دخلت صفحة جديدة على المستويين العسكري والسياسي. اليوم يعاد السؤال الذي طالما وجه الى زعماء الإدارة الأمريكية قبل الحرب وهو ماهي خطتكم لليوم التالي؟ ماتفعله الإدارة الأمريكية في العراق منذ دخولها هو تفكيك الدولة والنظام السياسي وحتى المجتمع بطريقة أشبه بلعبة "سكرامبل" للأطفال ربما بهدف إعادة تجميعه من جديد بالطريقة التي تحلو لها. لا يعقل ان ليس لهذه الإدارة خطة أو رؤية للعراق بعد "صدام" ولكن السؤال هو ما هي هذه الخطة؟ وهل ستستجيب للحاجات والمتطلبات العراقية وتراعي أوضاع المكونات السياسية والإجتماعية للعراق كوطن وشعب وكجزء من هذه المنطقة التي هو قلب محيطها الجغرافي؟ من المؤكد ان الأيام والأسابيع القادمة ستوضح الى أي اتجاه ستسير أمريكا بالعراق. في هذا الوقت تتجه الأنظار نحو جيران العراق وي طرح السؤال فيما اذا كان التغيير في العراق هو مقدمة لعملية تغير أكبر في منطقة الشرق الأوسط وخاصة في ضوء ما بدأ يدعى برؤية "بوش" وبرنامج "كولن باول" للشراكة الشرق أوسطية والتي هي مجموعة أفكار بدأت الادارة تطور ملامحها لما تسميه تطوير المنطقة وهو ما يعود بنا الى أحداث يوم 11 أيلول/ سبتمبر عام 2001 وتبلور استراتيجية أمريكية للتعامل مع

دولها على أساس تداعياتها. في 6 تشرين ثاني/ نوفمبر 2003 أعاد "بوش" طرح مشروع نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط وخلال الأشهر اللاحقة كشفت ملامح مشروع جديد وموسع للإدارة الأمريكية بهذا الإتجاه تحت اسم مشروع "الشرق الأوسط الكبير" قالت انها تعزم طرحه كقاعدة لسياستها الجديدة لفترة ما بعد الحرب على العراق. جوهر المشروع يقوم على مواجهة تحديات الحرية والمعرفة وحقوق الإنسان وأوضاع النساء والإرهاب. بعض أهداف المشروع تتضمن تقديم مبادرات الى الدول المعنية في مجالات واسعة ابتداء من تقديم المساعدة القانونية للمتضررين من تدني مستويات العدالة ودعم منظمات المجتمع المدني ومكافحة الفساد الى بناء المجتمع المعرفي وتطوير التعليم وتوسيع الفرص الاقتصادية وزيادة المبادلات التجارية. بهذه المبادرة ربما ارادت "واشنطن" ان تؤكد على جديتها في دعم وتنشيط جهود الإصلاح في المنطقة والتي ترى في تردي أوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية دافعاً لتفشي الإرهاب. ربما كان العراق منطلقاً للمشروع ومختبراً له الا ان ما ادت اليه الحرب هو تدني مكانة الولايات المتحدة في المنطقة وتساعد موجات العداء لها في العالمين العربي والإسلامي او كما اقرت "مارغريت تتوايلر"

المسؤولية الأمريكية عن الدبلوماسية العامة في وزارة الخارجية في شهادة لها أمام الكونغرس في 4 شباط / فبراير 2004 أي بعد عام تقريباً من الحرب بان مكانة "أمريكا" تدهورت الى درجة يتطلب استعادتها سنوات من العمل المثابر والمركز. " في 29 نيسان/أبريل 2004 استقالت "تتوايلر" لأنها أدركت ان الفجوة التي بين الولايات المتحدة والعالمين العربي والإسلامي بعد الحرب على العراق أصبحت أكبر من ان تصلحها دبلوماسية العلاقات العامة في حين أصبح الوضع في العراق بعد عام من تحريره من "صدام" أكثر سوءاً من ان تصلحه الآلة العسكرية الأمريكية التي يهemin على توجيهها نخبة من المحافظين الجدد يروون في ماعملوه في العراق نموذجاً ممكن التطبيق في باقي أرجاء المنطقة.
